علوم القرآن الكريم

الدكتور عبد المنعم النمر

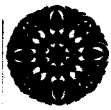

الناشرون :

دار الكتاب المصري
القاهرة

دار الكتاب اللبن
بيروت

حقوق الطبع محفوظة للناشر :

دار الكتاب المصرى

القاهرة ج.م.ع

٣٣ شارع قصر النيل - ت ٧٤٢١٦٨

ص.ب ١٥٦ - برقيا (كتامصر)

تلكس ١٣٤/٢٣٣٦ ك.ت.م القاهرة

Telex Nº 2336 Cairo

a.t.t 134 k.t.m .....

دار الكتاب اللبنانى

بيروت - لبنان

ص.ب ٣١٧٦ - برقيا (كتالبان)

تليفون ٥٤-٢٥٤ - ٢٣٧٥٣٧

Telex Nº 22355 k.t.l

الطبعة الأولى

١٣٩٩ هـ - ١٩٧٩ م

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

الحمد لله الذى أنزل على عبده الكتاب . وهو يتولى الصالحين . وأفضل الصلوات والتسليم . على صفوة خلقه وأنبيائه ورسله . وعلى آله وصحبه . والمؤمنين المتجمعين حول هديه . المستمدين من القرآن نورا يضيء طريقهم فى الحياة . ويسعد موقفهم أمام الله . .

وبعد

فالقرآن الكريم . هو هداية الله وهديته إلى خلقه :

« يَهْدِى بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ »

ولقد كان القرآن ، وسيظل على مر القرون ، يمثل العمود الفقرى لهذه الأمة ، به ارتفعت وترتفع قامتها ، ومنه استمدت وتستمد قيمها وقيمتها ، وعليه قامت نهضتها وازدهرت حضارتها ، ومن تعاليمه شكلت منهاج وخريطة وشكل حياتها ، وفى خلوتها ومناجاتها لربها تعتمد عليه ، كصلة وثيقة بينها وبين ربها . .

ولقد عرف أسلافنا السابقون ، رضوان الله عليهم ، فضل القرآن على وجودهم ، فأحاطوه بكل عنايتهم واهتمامهم ، وجعلوه كل شيء فى حياتهم ، وقام منهم علماء غيارى بخدمته على مر العصور ، وقدموا له تفسيرات متنوعة : طويلا ووسيطا ومختصرا . مما هيأ زادا لكل مسلم ، يستمد منه ما يناسبه ، ويستطيع هضمه ، كما قام بعض منهم بإلقاء أضواء لابد منها حوله ، فتحدثوا : عن الوحى ، ونزوله ، وكيف ومتى نزل وتلقاه الرسول ﷺ ، وذكروا ما كان من أسباب للنزول ، وأول ما نزل منه وآخر ما نزل ، وما هو المكى منه والمدنى . .

وكيف حفظ وكتب ، وكيف جمع ورتب ، ولماذا نزل مفرقا ولم ينزل دفعة واحدة ، كما سبقه من الكتب . .

وتحدثوا عن معنى نزوله على سبعة أحرف ، والصلة بين ذلك وبين ما عرف من القراءات السبع ، ومعنى المحكم والمتشابه فيه ، إلى غير ذلك من البحوث التى لابد منها للمسلم المعتز بقرآنه . .

وألفت فى ذلك الكتب الطوال التى عنيت بالتفاصيل والروايات والأقوال ، وحفلت بالمصطلحات العلمية ، التى يعلمها الخبيرون ، كما ألفت فى ذلك كتب متوسطة اختصرت بعض الشىء ما حفلت به الكتب الطوال ، ولكنها جاءت قريبة منها ، فى سمتها العلمى المتخصص . .

ولذلك ، ظل هذا العلم الذى سمى « بعلم التفسير » أو « علوم القرآن » أو« أصول التفسير » محصوراً فى دائرة الباحثين والدارسين المتخصصين ، بعيد التناول عن عامة المثقفين ، الذين لم يدرسوا الدراسات الدينية المتخصصة ، مع شدة حاجتهم أو رغبتهم فى معرفتها كثقافة عامة ، يسترشد بها المسلم ويتزود ، وهذا مالمسته من كثرة الأسئلة التى توجه إلى أو أتلقاها بالبريد وفى المحاضرات . .

ومن ثم رأيت أن أخرج بهذا العلم عن دائرته المحصورة ، إلى دائرة أوسع ، دائرة الثقافة العامة لكل مسلم يعتز بقرآنه ، ويحب أن يعرف المزيد عنه مما يتصل ببعض هذه الجوانب التى عنى بها أسلافنا . .

وإلى هؤلاء الأخوة الأعزاء المعتزين بالقرآن ، وإلى الدارسين كذلك ، أقدم هذه الدراسة العلمية بالأسلوب السهل ، المناسب ، البعيد – ما أمكن – عن الاصطلاحات العلمية ، والبعيد – كذلك – عن الدخول فى متاهات الأقوال والآراء ، ليستطيع القارئ أن يتزود بما يحب فى وقت قصير . .

والله الموفق والمعين .

دكتور عبد المنعم النمر

القرآن

إذا نطق أحد ، أو سمع كلمة « قرآن » أو « القرآن » ، انصرف ذهنه مباشرة إلى كلام الله تعالى ، المنزل على محمد ﷺ ، المتعبد بتلاوته ، المعجز للعرب ببلاغته ، المنقول إلينا بالتواتر : حفظا فى الصدور ، وكتابة بين دفتى المصحف . .

وإطلاق هذه الكلمة على كلام الله هذا ، لم يكن من الرسول ﷺ ، ولا من الصحابة أو غيرهم ، ولكن من الله عز وجل ، فهو الذى أطلق عليه هذا الاسم « قرآن » أو « القرآن » بعد أن بدأ نزوله بآية :

« ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ﴿١﴾ » (١)

وكان هذا الإطلاق فى أوائل ما نزل منه :

« يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْمُزَّمِّلُ ﴿١﴾ قُمِ ٱلَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٢﴾ نِّصْفَهُۥٓ أَوِ ٱنقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا ﴿٣﴾ أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ ٱلْقُرْءَانَ تَرْتِيلًا ﴿٤﴾ » (٢)

وهذه الآيات التى نزلت بعد انقطاع الوحى عن الرسول ، عقب نزوله عليه أول مرة ، وهو بغار حراء بقوله تعالى : (**اقرأ باسم ربّك**) تأمره أن ينفض عنه الخوف ، والملابس التى تزمل والتف بها ، والراحة التى كانت تتوافر له قبل نزول القرآن عليه ، واضطلاعه بمهام الرسالة والتبليغ ، فإن الرسالة لها مسئوليات ، لابد أن يقوم بها غير مبال بالمتاعب ، ثم تكررت هذه التسمية فى القرآن الكريم نحوا من ثمان وستين مرة ، فى آيات متفرقة منه .

والقرآن يطلق على الكل ، كما يطلق على البعض الذى نزل منه .

---

(١) سورة العلق ، الآية : ١

(٢) سورة المزمل . الآيات : من ١ – ٤ .

ولكن لم سماه الله بالقرآن ؟ :

لم ير الإمام الشافعى داعيا للبحث فى أصل التسمية ، فإن الله سماه هكذا ، كما سمى المنزل على موسى بالتوراة ، وسمى المنزل على عيسى بالإنجيل ، فهو علَم أو اسم . . والأسماء لا تعلل . .

ولكن الكثير من العلماء جريا على عادتهم فى البحث عن أصول الأسماء ، تعرضوا لبحث أصل هذه الكلمة ، أو هذا الاسم ، هل روعى فيه معنى الضم والجمع ، فيكون من : قرنت الشيء بالشيء إذا ضممته إليه . . وألفاظ القرآن وآياته وسوره مضموم بعضها إلى بعض ، وعلى هذا تكون النون أصلية ، والهمزة الممدودة زائدة ، ولذلك يمكن أن تقول « قران » بدون همز ، وهو ضعيف ، أو هو من « قرأ » . .

والذين قالوا إن أصل كلمة قرآن : قرأ لا قرن ، لم يتفقوا على وجهة نظر واحدة فى معنى كلمة « قرأ » ، لأنها من الألفاظ المشتركة التى تحتمل معانى متعددة : قرأ : من القراءة بمعنى التلاوة ، وقرأ : بمعنى جمع من قرأت الماء فى الحوض إذا جمعته فيه ، وقرأ : بمعنى أظهر وأبرز . أى أن كلا راعى معنى من المعانى التى تحتملها كلمة قرأ ، فقال به وكل صحيح . .

والمصدر من قرأ هو : قرآن ، مثل : رجح رجحانًا ، وغفر غفرانا ، بزيادة ألف ونون . . ويكون قرآن بمعنى مقروء ، أو مجموع ومضموم ، أو بمعنى مظهر ومُبرز ، أى أن القارئ أظهر حروفه وكلماته وأبرزها بنطقه وقراءته . .

وذلك ؛ لأن المصدر يأتى ويراد به اسم مفعول ، كمصدر الخلْق بمعنى المخلوق ، ولفْظ بمعنى ملفوظ ، وأعتقد أنه من الممكن اجتماع هذه المعانى كلها معا حين يكون قرآن مصدرا من قرأ ؛ لأنه مقروء مجموع بعضه إلى بعض حين يقرأ ، وهو بقراءته وتلاوته يكون ظاهرا بارزا بنطق الحروف والكلمات . .

ولهذا نعتمد الرأى القائل بأنه مصدر من قرأ بمعنى تلا ؛ لأنه يمكن بهذا أن

يأتى المعنيان الآخران : الجمع والظهور ، لاسيما وأن أول آية نزلت بدئت بالأمر بالقراءة : (اقرأ باسم ربك) . .

وقراءته وتلاوته من الأمور التى يعبد الإنسان بها الله سبحانه ، وجاء هذا اللفظ « قرآن » بمعنى التلاوة والقراءة : « فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ »(١) أى قراءة جبريل له :

« وَلَا تَعْجَلْ بِٱلْقُرْءَانِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَىٰٓ إِلَيْكَ وَحْيُهُۥ »(٢)

أى لا تعجل بقراءة القرآن قبل أن ينتهى جبريل من قراءته ، وقوله تعالى :

« إِنَّ قُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا »(٣)

أى قراءة القرآن فى هذا الوقت تشهدها الملائكة ويشهدون بها . .

وأعتقد كذلك أنه لا اختلاف فى وجهة النظر بين الشافعى الذى قال إن الله هو الذى سماه « القرآن » وبين الذين بحثوا فى أصل اللفظ واشتقاقه ، فالله هو الذى سماه ، لكن لهذه التسمية أصل فى العربية وهو قرأ أو قرن ، على ما سبق أن بيناه . .

ولا ننسى أن ذلك كله بحث لفظى فى أصل الكلمة ، لتأكيد معناها المراد بها ، وهو كلام الله المنزل على محمد ﷺ . . الخ ، الذى عرفته الأمة كلها عن طريق التواتر ، والنقل الصادق الثابت الذى لا يعتريه شك بأنه القرآن ، وصار علما على كلام الله المنزل على محمد . .

لكن هل هناك أسماء أخرى لكلام الله هذا ؟ :

نعم هناك أسماء أخرى ، سماه الله بها ، وإن كان لفظ « القرآن » هو العلم

---

(١) سورة القيامة ، الآية ١٨ .

(٢) سورة طه ، الآية : ١١٤ .

(٣) سورة الاسراء ، الآية : ٧٨ .

المشهور عليه ، الذى لم يشاركه كتاب من الكتب المنزلة فيه ، فإذا أطلق انصرف إليه ، دون أية إضافة أو قرينة ، أما الأسماء الأخرى فهى مشتركة بين القرآن وبين الكتب المنزلة وغيرها . .

الكتاب : فقد سماه الله وأطلق عليه أنه « كتاب » و « الكتاب » ، مثل :

« كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ » (١)

« كِتَٰبٌ أُنزِلَ إِلَيْكَ فَلَا يَكُن فِى صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ » (٢)

« ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ فِيهِ » (٣)

وغير ذلك من الآيات . .

كما سمى التوراة كتابا مثل :

« وَءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ » (٤)

« وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلْنَا مَعَهُۥٓ أَخَاهُ هَٰرُونَ وَزِيرًا ﴿٣٥﴾ » (٥)

كما سمى الانجيل كذلك مثل :

« قَالَ إِنِّى عَبْدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِىَ ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلَنِى نَبِيًّا ﴿٣٠﴾ » (٦)

وسمى أتباع الرسل السابقين أهل الكتاب :

« قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ . . . الآية » (٧)

« وَلَا تُجَٰدِلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ » (٨)

---

(١) سورة إبراهيم ، الآية : ١ . (٢) سورة الاعراف ، الآية : ٢ .
(٣) سورة البقرة ، الآية : ٢ . (٤) سورة الإسراء ، الآية : ٢ .
(٥) سورة الفرقان ، الآية : ٣٥ . (٦) سورة مريم ، الآية : ٣٠ .
(٧) سورة آل عمران ، الآية : ٦٤ . (٨) سورة العنكبوت ، الآية ٤٦ .

كما سمى به اللوح المحفوظ :

« وَإِنَّهُۥ فِىٓ أُمِّ ٱلْكِتَٰبِ لَدَيْنَا لَعَلِىٌّ حَكِيمٌ ﴿٤﴾ » (١)

وصحيفة أعمال العباد :

« وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ فَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ » (٢)

أى وضع الملائكة فى يد كل إنسان كتابه . .

وهذه كلها تدور حول أنه مكتوب ومسجل . .

كما جاءت كلمة « كتاب » و « الكتاب » فى القرآن لمعان أخرى غير ذلك ، والأصل الملحوظ فيها كلها هو ما تفيده كلمة كتب من الكتابة ، باعتبار أنها صحف مكتوبة ، ومن هنا سمينا كل صحف مكتوبة بالكتاب : كتاب التفسير ، كتاب النحو ، كتاب الطبيعة . . . الخ .

الفرقان : وكما سماه الله بالقرآن والكتاب سماه بالفرقان . . قال تعالى :

« تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا ﴿١﴾ » (٣)

والمراد به القرآن .

كما سمى به المنزل على موسى :

« وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ٱلْفُرْقَانَ . . . الآية » (٤)

وسمى به كذلك ، يوم موقعة بدر ، بين الرسول وبين قريش التى انتصر فيها :

« وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ ٱلْفُرْقَانِ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ » (٥)

والمعنى الملاحظ فى هذه التسمية هو معنى « فرق » بين كذا وكذا . فالكتب

---

(١) سورة الزخرف ، الآية : ٤ (٢) سورة الكهف ، الآية : ٤٩ .

(٣) سورة الفرقان ، الآية : ١ . (٤) سورة الأنبياء ، الآية : ٤٨ .

(٥) سورة الأنفال ، الآية : ٤١ .

المنزلة فرقت بين الحق والباطل ، وبين عهدين ، كما أن يوم بدر كان فارقا بين عهدين ، وفرق الله به بين الحق وبين الباطل :

« لِيُحِقَّ ٱلْحَقَّ وَيُبْطِلَ ٱلْبَٰطِلَ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٨﴾ » (١)

الذِّكْر : وسمى القرآن كذلك ذكرا ، لأنه يذكر الناس بربهم ، وبالحقائق التى يجب عليهم الإيمان بها ، يقول الله تعالى :

« ذَٰلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ ٱلْءَايَٰتِ وَٱلذِّكْرِ ٱلْحَكِيمِ ﴿٥٨﴾ » (٢)

« وَقَالُوا۟ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِى نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ » (٣)

« وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ » (٤)

« أَءُنزِلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ مِنۢ بَيْنِنَا » (٥)

ولا يمنع هذا أن تطلق كلمة الذكر على معان أخر . .

وبهذا نلحظ أن اسم الكتاب واسم « الفرقان » واسم « الذكر » جاء كل منها مشتركا بين القرآن وغيره . .

أما اسم « القرآن » فلم يرد فى الآيات إلا علما لما نزله الله على رسوله ، من كلامه المعجز المتعبد بتلاوته ، وقد سمى الله بعض الكتب المنزلة السابقة صحفا :

« إِنَّ هَٰذَا لَفِى ٱلصُّحُفِ ٱلْأُولَىٰ ﴿١٨﴾ صُحُفِ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ ﴿١٩﴾ » (٦)

كما جاء أيضاً إطلاق كلمة « صحف » على القرآن ، قال تعالى :

« فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ ﴿١٢﴾ فِى صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ ﴿١٣﴾ » (٧)

---

(١) سورة الانفال . الآية : ٨ فى سياق قصة بدر .

(٢) سورة آل عمران . الآية : ٥٨ .

(٣) سورة الحجر . الآية : ٦

(٤) سورة النحل . الآية ٤٤ .

(٥) سورة ص . الآية : ٨ .

(٦) سورة الأعلى . الآيتان : ١٨ . ١٩ .

(٧) سورة عبس . الآيتان : ١٢ . ١٣ .

يشير إلى القرآن المثبت المكتوب فى صحف . وقال :

« رَسُولٌ مِّنَ ٱللَّهِ يَتْلُوا۟ صُحُفًا مُّطَهَّرَةً ﴿٢﴾ »[1] أى يتلو قرآنا فى صحف . .

والرسول ﷺ ، وإن لم يكن يتلو من المصحف ، بل مما حفظه عن جبريل ، إلا أن ذلك يشير إلى أنه يكتب فى صحف أيا كانت هذه الصحف ، التى يكتب عليها : من ورق ، أو من عظم ، أو حجارة ، إلى غير ذلك مما كان يمكن الكتابة عليه ، لملاسته وصلاحيته للكتابة ، فكان الرسول يتلو ما فى هذه الصحف ، ولا يتلو منها ، كما نقرأ نحن من كتاب . .

المصحف : ومن هذا الإطلاق « يتلو صحفا » ، « فى صحف » جاءت تسمية القرآن المكتوب كله فى الصحف بالمصحف . .

يقول الراغب الأصفهانى أبو القاسم الحسين بن محمد فى كتابه مفردات القرآن مادة : صحف . « والمصحف ما جعل جامعا للصحف المكتوبة (أى بكلام الله) وجمعه مصاحف » . .

وقد ورد تسمية الأشياء التى كان يكتب فيها القرآن من العظام والحجارة الملساء . . .الخ بالصحف ، كما ورد تسمية ما جمع من هذه الصحف بعد مقابلته على المحفوظ وكتابته فى صحف مرتبة بالمصحف ، وقد تم ذلك لأول مرة فى عهد أبى بكر رضى الله عنه ، قال على كرم الله وجهه : (أعظم الناس فى المصاحف أجرا أبو بكر . رحمة الله على أبى بكر هو أول من جمع كتاب الله) ، أخرجه ابن أبى داود فى المصاحف بسند حسن .

كما كان يطلق على ما جمعه بعض الصحابة من القرآن المكتوب بالمصحف ، كمصحف ابن مسعود ، ومصحف أبى بن كعب ، لكن هذه المصاحف وغيرها أحرقت بأمر عثمان رضى الله عنه ، بعد ما عمل على كتابة المصحف الموحد ، ليكون مصحفا إماما للمسلمين جميعا . .

---

(١) سورة البينة . الآية : ٢ .

فأصبح اسم المصحف : علما على كلام الله ، المنزل على محمد ﷺ ، المكتوب كله المجموع بعضه إلى بعض ، من أول سورة الفاتحة إلى آخر سورة الناس ، بهذا الترتيب الموجود .

* * *

الوحى

نردد كلمة « الوحى » كثيرا ونحن نتكلم عن نزول القرآن على رسول الله ﷺ ، كما نرددها فى كلامنا لمناسبات مختلفة ، فنقول فلان أوحى إلى فلان بكذا ، أو عمل كذا بإيحاء من فلان . .

وقد احتلت كلمة الإيحاء والوحى فى علم النفس حيزا كبيرا ، حيث تناول العلماء الإيحاء الداخلى ، والإيحاء الخارجى ، والإيحاء العكسى ، إلى غير ذلك من البحوث المتعلقة بالإيحاء . .

ونحن يهمنا هنا الكلام على الوحى فيما يتصل بالقرآن الكريم . .

فالوَحْى : مصدر وَحَى ، أو اسم مصدر من أوحى التى مصدرها إيحاء ، فيكون وحى اسم مصدر ، ويكون الوحى : بمعنى الإيحاء ، كالعطاء اسم مصدر الإعطاء من أعطى ، ومعناهما واحد . .

ومعنى الوحى أو الإيحاء فى اللغة : الإعلام ، أى إعلام الموحى إليه فى سرعة وخفاء بما يريد الموحى إبلاغه ، وتفهيمه للموحى إليه ، بأية طريقة خفية موصلة للغرض ، فيشمل التفهيم بالكتابة خفية ، والكلام ظاهرا وخفيا ، والإشارة والرمز والإلهام والرؤيا ، والإيجاد على مقتضى الحكمة والسنن التى أرادها الله . .

جاء فى مفردات القرآن مادة « وحى » : أصل الوحى الإشارة السريعة وقد يكون بالكلام على سبيل الرمز والتعريض ، وقد يكون بصوت مجرد عن التركيب ، وبإشارة ببعض الجوارح وبالكتابة :

« فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ
مِنَ ٱلْمِحْرَابِ فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ أَن سَبِّحُوا۟ بُكْرَةً وَعَشِيًّا ﴿١١﴾ » (١)

---

(١) سورة مريم . الآية : ١١ .

أى أوحى زكريا إليهم – فقد قيل رمز . وقيل اعتبار . وقيل كتب . وعلى هذه الوجوه قوله :

« وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ
عَدُوًّا شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ يُوحِى بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ
غُرُورًا »[1]

وقوله :

« وَإِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِهِمْ »[2]

فذلك بالوسواس المشار إليه بقوله : (من شر الوسواس الخناس) أى يوسوسون إلى أتباعهم بكلام وطريق خفى غير ظاهر للناس ثم قال : « ويقال للكلمة الإلهية التى تلقى إلى أنبيائه وأوليائه وحى » ، وذلك بوسيلة من الوسائل التى قررها الله للايحاء . .

ومثل الإلهام قوله تعالى عن النحل :

« وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ أَنِ ٱتَّخِذِى مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا . . . الآية »[3]

وهو يمثل هداية الله وتوجيهه للحيوان بما ركبه فيه من خصائص لحفظ حياته وقيامه بوظائفه ، وهو يتلاقى مع قوله تعالى : (الَّذِى أَعْطَى كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُ ثم هَدَى) فيما يتصل بالحيوان : النحل ، والنمل ، والطيور ، والأسماك ، وغيرها . وقوله تعالى من سورة الأعلى :

« ٱلَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ ۝٢ وَٱلَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ ۝٣ »

ومن الإيحاء بمعنى الإلهام أيضاً والتوجيه قوله تعالى :

« وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ . . . الآية »[4]

---

(١) سورة الأنعام . الآية : ٢١ : ١١٢ .

(٢) سورة الأنعام . الآية : ١٢١ .

(٣) سورة النحل . الآية : ٦٨ .

(٤) سورة القصص . الآية : ٧ .

وأم موسى لم يرد لنا نصّ يفيد أنه نزل عليها مَلَك من الملائكة ولكن ألهمها الله رعاية لموسى :

« وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَىٰٓ ﴿٣٧﴾ إِذْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّكَ مَا يُوحَىٰٓ ﴿٣٨﴾ أَنِ ٱقْذِفِيهِ فِى ٱلتَّابُوتِ فَٱقْذِفِيهِ فِى ٱلْيَمِّ .. الآية »[1]

ومثل ذلك قوله :

« وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى ٱلْحَوَارِيِّـۧنَ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِى وَبِرَسُولِى »[2]

وكذلك قوله تعالى عن الأرض :

« يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا ﴿٤﴾ بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا ﴿٥﴾ »[3]

بمعنى وجهها وسخرها . ومثله قوله تعالى :

« وَأَوْحَىٰ فِى كُلِّ سَمَآءٍ أَمْرَهَا »[4]

بمعنى أوجدها وسخرها لتنفيذ نظامه فيها .

وهذه المعانى كلها ينطبق عليها الإيحاء بمعناه اللغوى الواسع . .

وذلك ؛ لأن المعنى الشرعى للإيحاء المصطلح عليه بين العلماء خاص بمن يختارهم الله من عباده ، ويصطفيهم رسلا للبشر ، فيوحى إليهم ويبلغهم بما يريده منهم ويريد تبليغه للناس ، ليقوموا بإبلاغهم ، وفى هذا المعنى ورد الايحاء فى كثير من الآيات لرسله عليهم الصلاة والسلام :

---

(١) سورة طه . الآيات : من ٣٧ – ٣٩

(٢) سورة المائدة . الآية : ١١١ .

(٣) سورة الزلزلة . الآيتان : ٤ . ٥ .

(٤) سورة فصلت . الآية : ١٢ .

« إِنَّآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ كَمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ نُوحٍ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعْدِهِۦ ۚ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَٰرُونَ وَسُلَيْمَٰنَ ۚ وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا ﴿١٦٣﴾ وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَٰهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَرُسُلًا لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ ۚ وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا ﴿١٦٤﴾ »[1]

فكل وحى من الله لرسله ، معناه إبلاغهم بواسطة من الوسائط التى يريدها الله بما يريد . وملاحظٌ فى ذلك بالطبع المعنى اللغوى وهو الإعلام فى سرعة . .

وبهذا ، نعلم أن كلمة أوحينا أو أوحى وما يتفرع عنها جاءت فى القرآن بالمعنى اللغوى العام ، وبالمعنى الشرعى الاصطلاحى الخاص بالرسل ، وبما مر تستطيع أن تفرق بين الاثنين . .

لكن كيف يتم إعلام الله وإيحاؤه لرسله بالكلمة الإلهية التى نسميها « وحيا » ؟ :

إن الإبلاغ للرسل يتم بطرق متعددة :

١ – فيكون بالإلهام للرسول بشىء ينصب فى قلبه وروحه ، حتى يصير متأكدا منه منساقا إليه ، فيحس أنه من الله فينفذه ، ويقرب من هذا قول الرسول ﷺ (**إن روح القدس نفث فى روعى أنه لن تموت نفس حتى تستوفى رزقها فاتقوا الله وأجملوا فى الطلب**) . .

٢ – وقد يكون بوساطة الرؤيا الصادقة فى المنام ، فيقوم الرسول بتنفيذ مارآه كما حدث لإبراهيم وإسماعيل عليهما الصلاة والسلام : « فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ ٱلسَّعْىَ قَالَ يَٰبُنَىَّ إِنِّىٓ أَرَىٰ فِى ٱلْمَنَامِ أَنِّىٓ أَذْبَحُكَ ۖ فَٱنظُرْ مَاذَا تَرَىٰ ۚ قَالَ يَٰٓأَبَتِ ٱفْعَلْ مَا تُؤْمَرُ ۖ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٠٢﴾ فَلَمَّآ أَسْلَمَا وَتَلَّهُۥ

(١) سورة النساء . الآيتان : ١٦٣ . ١٦٤ .

لِلْجَبِينِ ﴿١٠٣﴾ وَنَادَيْنَاهُ أَن يَا إِبْرَاهِيمُ ﴿١٠٤﴾ قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿١٠٥﴾ » [1] فقد اعتبر إبراهيم رؤياه أمراً من الله ، وقام بتنفيذه ، وظهر إخلاصه ، فأكرمه الله وابنه : (وفديناهُ بذبْحٍ عَظِيم) .

وروى عن السيدة عائشة رضى الله عنها أنها قالت : (أول ما بدئ به النبى ﷺ من الوحى الرؤيا الصادقة ، فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت كفلق الصبح) [2] . .

ولم يثبت ثبوتا قاطعا أن شيئا من القرآن نزل عن طريق الرؤيا المنامية ، وإذا كانت هناك أحاديث يفيد ظاهرها ذلك ، فمردها الحقيقى إلى حالة من الحالات الروحية التى كانت تعترى الرسول عند نزول الوحى ، وربما ظنه الحاضرون نائما .

٣ – وقد يكون وصول الموحى به للرسول عن طريق كلام يسمعه ، ولا يرى المتكلم ، متأكدا أن هذا الكلام من الله ، كما قال الله عن موسى :

« وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا ﴿١٦٤﴾ » [3]

وقد جاء فى موضع آخر من القرآن ما يفسر ذلك مخاطبا الرسول :

« فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ يَا مُوسَىٰ ﴿١١﴾ إِنِّي أَنَا رَبُّكَ فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى ﴿١٢﴾ وَأَنَا اخْتَرْتُكَ فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَىٰ ﴿١٣﴾ إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي ﴿١٤﴾ » [4]

وكما حصل لنبينا عليه الصلاة والسلام وهو فى معراجه :

---

(١) سورة الصافات . الآيات : من ١٠٢ – ١٠٥ . (٢) رواه البخارى .

(٣) سورة النساء . الآية : ١٦٤ . (٤) سورة طه . الآيات من : ١١ – ١٤ .

« ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ ﴿٨﴾ فَكَانَ
قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ ﴿٩﴾ فَأَوْحَىٰ إِلَىٰ عَبْدِهِ مَا أَوْحَىٰ ﴿١٠﴾ »[1]

وكلمه الله دون أن يراه ، ولكن رأى نوره ، وفرض عليه الصلاة . .

٤ – وقد يكون إيصال الكلمة الإلهية « الوحى » للرسول بوساطة جبريل عليه السلام ، ولذلك يسمى « ملك الوحى » ، لأنه حامل الوحى لرسل الله أجمعين .

وقد نزل القرآن كله بوساطته على رسول الله ، كما يخبر الله عن ذلك :

« نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ
الْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ ﴿١٩٥﴾ »[2]

وقوله :

« قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِالْحَقِّ لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ آمَنُوا »[3]

والروح الأمين وروح القدس ، هو جبريل عليه السلام ، ملك الوحى ، ورسول الله إلى رسله من عباده . .

وهنا يتساءل الإنسان مستطلعا : كيف كان جبريل ينزل بالقرآن على الرسول ؟ :

لقد سئل رسول الله ﷺ هذا السؤال من أحد أصحابه هو الحارث بن هشام فأجابه وقال : (أحيانا يأتينى مثل صلصلة الجرس ، وهو أشده على ، فيفصم عنى ، وقد وعيت عنه ما قال ، وأحيانا يتمثل لى الملك رجلا فيكلمنى فأعى ما يقول) . .

قالت عائشة رضى الله عنها تحدث عن تجربتها مع الرسول حين نزول الوحى عليه : (ولقد رأيته ينزل عليه الوحى فى اليوم الشديد البرد ، فيفصم عنه ، وإن جبينه ليتفصد عرقا)[4] . .

---

(١) سورة النجم . الآيات : ٨ – ١٠ .
(٢) سورة الشعراء . الآيات من : ١٩٣ – ١٩٥ .
(٣) سورة النحل . الآية : ١٠٢ .
(٤) رواه البخارى .

فهذا الحديث يبين لنا كيفية اتصال جبريل بالرسول ليبلغه وحى الله إليه سواء كان قرآنا أو غير قرآن ، وهى حالتان :

(ا) **الحالة أو الكيفية الأولى** : أن يبقى جبريل على حالته الروحية ، ويتصل بالرسول ، والرسول حينئذ يسمع مقدمات وصوله فى مثل صلصلة الجرس ، لأن من حوله كانوا يعرفون حالة الوحى من الحالة التى يعانيها الرسول وهو يتلقاه كما كانوا أحيانا يسمعون دويا كدوى النحل كما قال عمر رضى الله عنه[1] . . فيبلغه جبريل حينئذ ما يريد إبلاغه ، والرسول فى هذه الحالة لابد أن يقترب من روحانية جبريل ، بروحانية تجعل حالته مغايرة لما كان عليه فى أحواله العادية ، ولذلك يعانى شدة وجهدا فى هذا الانتقال ، حتى إذا انتهى جبريل من الإبلاغ أخذ الرسول يعود إلى حالته الطبيعية العادية ، وقد وعى تماما ما تلقاه عن جبريل وأحسّ الجهد والتعب ، وجبينه يتفصد عرقا ، كما وصفته عائشة ، وهذه الحالة هى أشد الحالتين على الرسول كما يقول هو عليه الصلاة والسلام : (وهو أشده على) وقد تعهد الله لرسوله بأن يثبت فى قلبه ما يلقيه جبريل فى قوله :

« لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ
لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ ﴿١٦﴾ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ ﴿١٧﴾ فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ
فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ ﴿١٨﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ ﴿١٩﴾ »[2]

فكان الرسول عقب انفصال الوحى عنه وعودته لحالته العادية يقرأ على أصحابه ما تلقاه من القرآن عن جبريل . .

(ب) أما الحالة الثانية التى بينها الحديث السابق : فهى أن يتحول جبريل من حالته الملكية إلى صورة إنسان ، ويأتى لرسول الله يكلمه كما يتكلم الإنسان العادى ، كما جاء فى الحديث : (فيكلمنى فأعى ما يقول) ، وهذه الحالة سهلة على الرسول ، إذ يبقى على حالته العادية ويسمع كما يسمع كلام أى إنسان آخر . .

---

(١) فتح البارى شرح حديث بدء الوحى .

(٢) سورة القيامة . الآيات من : ١٦ – ١٩ .

والشاهد الذى نذكره هنا لهذه الحالة : نزول جبريل لإبلاغ أمر غير القرآن ؛ لأنه كان ينزل بالقرآن ، وبغيره كأن يبلغه بتفاصيل من أمور الدين لم يذكرها القرآن ، أو بحديث قدسى ، أو بخبر يحتاج الرسول إليه ، هو هذا الحديث الصحيح :

فعن عبد الله بن عمر عن أبيه رضى الله عنهما قال : (بينما نحن جلوس عند رسول الله ﷺ ، إذ طلع علينا رجل شديد بياض الثياب شديد سواد الشعر ، لا يرى عليه أثر السفر ، ولا يعرفه منا أحد ، حتى جلس إلى النبى ﷺ ، فأسند ركبتيه إلى ركبتيه ، ووضع كفيه على فخذيه ، وقال : يامحمد . أخبرنى عن الإسلام . . الحديث) . .

وفيه أنه سأله عن الإسلام فأجابه ، ثم عن الإيمان فأجابه ، ثم عن الاحسان فأجابه ، ثم عن الساعة فقال : (ما المسئول عنها بأعلم من السائل) ، فسأله عن علاماتها فحدثه عنها . .

وكان عقب كل جواب يقول للرسول صدقت . . ثم انصرف بعد انتهاء الإجابات ، والجالسون يتعجبون من هذا التعقيب على الإجابة . .

يقول عمر رضى الله عنه : فلبثت مليا ، ثم قال لى الرسول : (يا عمر أتدرى السائل ؟) قلت : الله ورسوله أعلم . قال : (إنه جبريل أتاكم ليعلمكم دينكم) . .

وكان الجالسون يرون هذا القادم حتى وصفه عمر الوصف السابق ، ويسمعون أسئلته ورد الرسول عليها وتعقيبه على الرسول بقوله : صدقت ، مما أثار تعجبهم : من هذا الذى يقول للرسول صدقت ؟

وبعد هذا الذى فصلناه من معنى الوحى وكيفيته نسوق آية كريمة تعرضت لتفصيل طرق كلام الله للبشر وهى قوله تعالى :

« وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآئِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِىَ بِإِذْنِهِۦ مَا يَشَآءُ إِنَّهُۥ عَلِىٌّ حَكِيمٌ ﴿٥١﴾ » (١)

(١) سورة الشورى ، الآية : ٥١ .

وقد جاءت الآية بصورة الحصر (وما كان لبشر أن يكلمه الله إلا . .) فذكرت ثلاث طرق ، مع مراعاة أن المراد بالكلام : الإخبار :

(ا) (إلاّ وحيا) : وهذا يشمل الإلهام حتى لغير الأنبياء والنفث فى الروع والرؤيا الصادقة . .

(ب) (أو من وراء حجاب) : ويراد به تكليم الله لأنبيائه بدون وساطة بكلام يسمعونه ولا يرون متكلما ، كما حصل لموسى حين إرساله ، وهو فى الطور ، ولمحمد ﷺ حين عرج به إلى سدرة المنتهى . .

(جـ) (أو يرسل رسولا) : وهذا ينطبق على نزول جبريل على الرسول بحالتيه السابقتين . .

وبهذا تكون الآية قد وضحت أنواع وطرق الوحى للبشر ، وإبلاغهم بمراد الله . . وتتلاقى الأحاديث السابقة مع الآية الكريمة . .

ولكن يبقى بعد ذلك تساؤل :

هل كان جبريل ينزل على الرسول بلفظ القرآن أو بمعناه واللفظ للرسول ؟ .

وجوابنا على هذا التساؤل : أن جبريل كان يبلغ الرسول لفظ القرآن كما تلقاه عن ربه ، والرسول يحفظه بلفظه ويبلغه كذلك بنصه ، دون زيادة ولا نقصان ، فالقرآن لفظه ومعناه الذى يحمله اللفظ من عند الله نصا وليس للرسول فيه أى تصرف ، وما عليه إلا أن يبلغه ، كما حفظه ووعاه : (ما على الرسول إلاَّ البلاغ) (إنْ أتبعُ إلا ما يُوحَى إلىَّ) . .

ومن هنا أى من تبليغ النص الإلهى ، كانت معجزة القرآن البلاغية ، وعجز البشر عن الإتيان بسورة من مثله ؛ لأنه بنصه من عند الله الذى تفوق قدرته قدرة البشر جميعا . .

فإذا رأيت كلاما غير هذا[1] فاضرب به عرض الحائط لأن القائلين له إما جاهلون أو مغفلون أو مغرضون ولا نتبع جاهلا أو مغفلا أو مغرضاً حاقدا .

والحديث القدسي ؟

أما الحديث القدسي فقد أجمع العلماء على أن معناه من عند الله ، نزل به جبريل ، ولكنهم لم يتفقوا عليه من جهة لفظه :

(ا) هل لفظه أيضاً من عند الله نزل به جبريل ، ويكون الفرق بينه وبين القرآن أن اللفظ غير معجز ، ولم يكن موضع التحدي للعرب ، ولم يشترط فيه النقل بالتواتر ، بهذا القول قال علماء . .

(ب) أو أن لفظه من عند النبي ، أي أن جبريل بلغ الرسول المعنى ، وتركه يعبر عنه بألفاظه وأسلوبه ، وأسند القول لله . بهذا قال علماء . وأنا أميل إلى هذا الرأي ، ومن هذه الأحاديث القدسية الحديث المشهور في الصوم : (كل عمل ابن آدم له إلا الصوم فإنه لي وأنا أجزي به . الحديث .

الأحاديث النبوية فمنها ما يكون معناه من الله ، ولا سيما ما يتصل بالأمور الغيبية التفصيلية على الأخص ، يلقيه جبريل إليه فيعبر عنه الرسول على أنه صادر عنه ، ونحن نعلم أن الرسول لا يتكلم فى أمر كهذا إلا أن يكون الله قد علمه إياه . .

ومنها ما يكون باجتهاد وتطبيق من الرسول على ما علمه من القرآن ومن الوحى غير القرآن ، ويتحدث بها الرسول كما شاء ، كلما دعت الحاجة إلى بيان ، وهذا النوع الاجتهادى يجوز أن يخطئ الرسول فى استنتاجه فيرده الله للصواب ، كما حصل فى أسرى بدر ، وفى الصلاة على المنافقين ، ويكون الفرق بين الرسول وبيننا – فى هذه الحالة – أن الرسول حين يخطئ يرده الله للصواب ويصحح الموقف ، وكل من الأحاديث القدسية والنبوية تجوز روايتها بالمعنى ، أما القرآن فلا ، لابد من النص .

ويبقى بعد ذلك كله تساؤل هو : كيف كان جبريل يتلقى كلام الله ؟ :

الواقع أن هذا من الأمور الغيبية التى لا مجال لعقولنا بالتدخل فيها : فالأمر إذن متوقف على [illegible] عن الرسول ﷺ .

وأعتقد أن هذا كافٍ لمن أراد معرفة هذا الأمر الغيبى ، وشاهدنا فيه قوله : (فيكون أول من يرفع رأسه جبريل فيكلمه الله من وحيه بما أراد) ثم قوله : (فينتهى جبريل بالوحى إلى حيث أمره الله . .) . .

وبعد أن ألممنا بكيفية الوحى ، للرسول ﷺ ، يأتى دور الكلام عن الوقت الذى نزل فيه القرآن . .

* * *

متى وأين نزل القرآن ؟

حدد القرآن الكريم وقت نزول القرآن فى ثلاث آيات منه :

(ا) الأولى تحدده بأنه نزل فى شهر رمضان :

« شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ »[1]

(ب) الثانية تحدده بأنه نزل فى ليلة مباركة :

« إِنَّآ أَنزَلْنَـٰهُ فِى لَيْلَةٍ مُّبَـٰرَكَةٍ »[2]

(جـ) الثالثة تحدده بأنه نزل فى ليلة القدر :

« إِنَّآ أَنزَلْنَـٰهُ فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ ﴿١﴾ »[3]

والآية الأولى تحدد الوقت فعلا وهو شهر رمضان . والآية الثانية . والاية الثالثة . تحددان أنه نزل فى ليلة مع وصف هذه الليلة بأنها مباركة . وبأنها ليلة القدر أى الشرف . . ولا تعارض بين الوصفين . فهى ليلة مباركة ذات قدر وشرف لنزول القرآن فيها . وقد نالت هذه الليلة صفة البركة أو المبارك فيها . والشرف والرفعة والعظمة لنزول القرآن فيها .

والأيام والليالى كلها سواء لا يتميز يوم عن يوم أو ليلة عن ليلة ، إلا بحدث يحدث فى هذا اليوم أو تلك الليلة ، فيبرز اليوم أو تبرز الليلة فى التاريخ ، ويأخذ لدى الناس أهمية هذا الحدث فى حياتهم ، حتى لنجد لكل أمة أياما فى تاريخها تعتد بها ، وتهتم بمجيئها ، وتتذكر بالسرور والاحتفال ، أو بالأسى والهم ، ما وقع فى هذا اليوم ، وإن كان الغالب على الأمم احتفاءها بالأيام السارة فى تاريخها ، التى لها أثر فعال فى مجرى حياتها .

---

(١) سورة البقرة . الآية : ١٨٥ .

(٢) سورة الدخان . الآية : ٣ .

(٣) سورة القدر . الآية : ١ .

ولا شك أن عقيدة المسلمين وحياتهم ترتبط بالقرآن كل الارتباط ، بل إن القرآن أثر على حياة البشرية كلها ثم هو عند الله كذلك يحمل شريعته التى ارتضاها لخلقه ، وهدايته التى يحبها لهم ، وهو بذلك نعمته الكبرى على البشرية ، آخر كتاب وهداية تنزل من السماء ، مصدقا لما سبقه من الكتب المنزلة ، شاملا لكل ما جاء فيها من خير يريده الله لخلقه ، فهو عند الله عظيم ، وعند الناس عظيم ، لا يدانى عظمته شيء . .

ومن هنا استمد الوقت الذى نزل فيه عظمة من عظمته ، وشرفا من شرفه ، فكانت الليلة ليلة مباركة ، وليلة ذات قدر وشرف :

« وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ ﴿٢﴾ لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ ﴿٣﴾ »

بل من آلاف ومئات الملايين من الشهور والسنين ، حين تخلو من شرف نزول كتاب فيها كالقرآن . .

ولعله يصبح من السهل علينا أن ندرك ، أن القرآن نزل فى ليلة من ليالى شهر رمضان ، جمعا بين الآيات الثلاث . .

لكن ذلك يفتح علينا بابا لسؤال آخر ، فإن من المعروف المقرر أن أول آية نزلت على الرسول ﷺ وهى قوله تعالى : (اقرأ باسْمِ رَبِّكَ . .) نزلت وهو فى سن الأربعين ، ثم استمر القرآن الكريم ينزل على دفعات وأقساط مدّة بعثته حتى توفى وهو فى سن الثالثة والستين ، يعنى ذلك الواقع أنه لم ينزل فى ليلة من ليالى شهر رمضان ، بل فى هذه السنين التى تزيد على عشرين سنة . .

فكيف إذن نوفق بين الواقع الذى لا شك فيه ، ومنطوق القرآن وتحديده الذى لاشك فيه كذلك ؟ . .

ولا نظن أننا الذين تساءلنا هذا التساؤل وحدنا ؛ لأن الأمر ظاهر وواضح فى إثارته للتساؤل ، ولذلك رأينا أحد المسلمين السابقين يتجه لعبد الله بن عباس رضى الله عنهما ، ويلقى إليه بهذا التساؤل ويتلقى الجواب عنه :

« فقد أخرج البيهقى فى الأسماء والصفات وابن مردويه ، عن ابن عباس أنه سأله عطية بن الأسود فقال له : أوقع فى قلبى الشك قوله تعالى :

« شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ »

وقوله : « إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ ﴿١﴾ »

وهذا أنزل فى شوال وفى ذى القعدة . . وفى كذا وفى كذا من شهور السنة » يريد الرجل أن يقول إن فى هذا تناقضا ، وكيف يخبر القرآن بخبر يصادمه الواقع ؟ . .

وكان رد ابن عباس عليه لحل هذا الإشكال فى نفسه « إنه نزل فى رمضان فى ليلة القدر جملة واحدة ، ثم أنزل على مواقع النجوم (أى مفرقا منفصلا بعضه عن بعض كمواقع النجوم المتفرقة فى السماء) رسلا – أى متتابعا – فى الشهور والأيام » . .

وأخرج الحاكم وابن أبى شيبة عن ابن عباس أيضاً هذا الحديث بأسانيد صحيحة ، كما أخرجه الطبرانى عن ابن عباس كذلك مع زيادات وتفصيلات ، تفيد أن نزوله جملة كان من اللوح المحفوظ إلى سماء الدنيا فى ليلة القدر . .

وتفيد هذه الأحاديث المتفقة فى موضوعها وألفاظها تقريبا[1] ، أن القرآن إنما يتحدث عن نزوله لا إلى الأرض على الرسول ﷺ ، وإنما يتحدث عن نزول آخر لم يحسه ولم يشعر به أحد ، لا الرسول ولا أحد من أهل الأرض ، وهو نزول أو تنزيل القرآن كله جملة واحدة من اللوح المحفوظ إلى سماء الدنيا فى ليلة محفوظة من ليالى شهر رمضان . .

والملاحظ فى هذه الأحاديث أن مصدرها واحد وهو ابن عباس ، وكان رده إلى الرسول غير مرفوع أو منسوب إلى الرسول ﷺ ، بل من معلوماته هو ، وكان من الممكن أن نقول : ذاك رأى له ، ولكن من المعروف لدى علماء الحديث أن

---

(١) أورد الإتقان للسيوطى عدة روايات لهذا الحديث فى « النوع السادس عشر . كيفية إنزاله » .

مثل هذا الخبر ، « وهو نزوله من اللوح المحفوظ إلى السماء الدنيا » ، من الأمور الغيبية التى لا يتجرأ صحابى جليل على التحدث فيها ، دون أن يكون سمع شيئا عنها من الرسول صاحب الاختصاص فى التحدث عن الأمور الغيبية ، حسب إمداد الله وإخباره إياه بها . .

والنتيجة ،أن ابن عباس لم يُفْتِ بهذا القول من عنده ، بل لابد أن يكون سمعه من الرسول ، ولو لم يصرح به ، وإلا فمن أين علم ابن عباس ذلك ؟ . .

إذن فلابأس من أن نريح أنفسنا من هذا التساؤل ، ونأخذ بقول ابن عباس فى التوفيق بين الآيات وبين الواقع وننتهى . . هذا هو الذى سار عليه كثير من العلماء والمشتغلين بعلوم التفسير تقريبا ، حتى حكى الإمام القرطبى صاحب التفسير المشهور باسمه الإجماع على هذا حين قال : « ولا خلاف فى أن القرآن أنزل من اللوح المحفوظ ليلة القدر جملة واحدة »[1] أى للسماء الدنيا . والسيوطى وهو يذكر الآراء فى ذلك ، وحين ذكر هذا الرأى قال : « وهو الأصح » . .

وقال ابن حجر فى شرح البخارى : « إنه الصحيح المعتمد » . .

لكن ادعاء القرطبى الإجماع ادعاء واسع تنقصه الدقة ، فإن السيوطى نفسه نقل آراء غير هذا الرأى عن كثير من العلماء . . فالإجماع إذن غير موجود وغير مسلم له به . .

ومعنى وجود آراء تخالف ماذكره ابن عباس ، أن القائلين بها لم يعتمدوا روايته ، ولم يأخذوا بها ، وأعطوا أنفسهم حرية البحث فى التوفيق بين الآيات وبين الواقع ، ولعلنا من خلال حالتهم هذه يمكننا أن نعطى أنفسنا حق اختيار القول الذى تميل إليه عقولنا من بين هذه الأقوال ، حتى ولوكان غير ما ذكروا عنه : أنه الأصح والمعتمد . .

فقد ذكر السيوطى فى الاتقان[2] وهو يرد الآراء فى هذا :

---

(١) ج ٢ ص ٢٩٧ طبعة دار الكتب المصرية .

(٢) فى « النوع السادس عشر فى كيفية إنزاله الجزء الأول » .

« القول الثالث[1] : أنه ابتدئ إنزاله فى ليلة القدر ، ثم نزل بعد ذلك منجما (أى مفرقا كالنجوم) فى أوقات مختلفة من سائر الأوقات » وبه قال الشعبى. اهـ.

ومؤدى هذا القول فى التوفيق بين الآيات وبين الواقع ، أن القرآن إنما أشار أو ذكر تاريخ بدء النزول فحسب ، وهو ليلة من ليالى شهر رمضان ، أما الواقع بعد ذلك فالجميع يعرفونه ، وهو نزوله مفرقا مدة البعثة كلها .

وبدء النزول حدث عظيم جدير بالاهتمام والتأريخ له ، وطبيعتنا نحن الذين نزل القرآن من أجل هدايتنا فى الحياة ، أقول طبيعتنا تسير فى التأريخ للأعمال العظيمة على حسب هذا أيضاً ، فنذكر بعناية تاريخ البدء فى المشروع ، ونسجله بالحفر على حجر أو رخام بما نطلق عليه « وضع الحجر الأساسى » . . ويدون اسم واضع الحجر الأساسى أو بادئ أوّل خطوة فى المشروع الكبير المهم . .

وبقدر صلة هذا المشروع أو الحدث المهم بحياة الناس ، وتوفير الخير لهم يكون الاحتفال به ، وبذكرى البدء فيه أيضاً . ويكون اهتمام الناس به ، وتذكرهم له ، فكلما كانت حياة الناس مرتبطة به وبآثاره كان تعظيمهم له وتعلّقهم بمن بدأه . .

فالذين شقوا الشوارع العظيمة أو الترع الواسعة ، والذين بدءوا صناعات لم تكن موجودة ، هؤلاء وأمثالهم يذكرهم الناس بالخير كلما استفادوا من عملهم وترحموا عليهم ودعوا لهم إن كانوا قد فارقوا الحياة . .

هكذا طبيعة الناس المستفيدين من القرآن . .

فهم حين يقرءون :

« شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ هُدًى لِّلنَّاسِ »

لا يحسون ولا يدركون إلا أنه نزل على الرسول ليبلغه للناس هداية لهم ،

---

(١) لم نشأ أن ننقل الرأى الثانى الذى يقول إنه نزل للسماء الدنيا فى عشرين ليلة قدر . أو خمس وعشرين . . . الخ . وذكر أن الإمام الرازى صاحب التفسير قال به . . . الخ ؛ لأنه فى رأينا بعيد عن النص : (فى ليلة القدر) ولم يزدعن الأول إلا أنه زاد الليالى . .

ولا يفهمون أن القرآن يتحدث عن حدث غيبى بعيد عنهم لا صلة له بحياتهم ، ولكنه هناك فى السماء . .

والقرآن حينما ينزل هداية للناس ، لا يمكن إلا أن يكون نزوله إليهم ، لتتحقق الهداية أو إمكانها على الأقل . .

أعنى أن القرآن حينما يتحدث عن فضل الله على الناس بنزول القرآن لتحقيق الخير لهم فى حياتهم الدنيا وفى الآخرة ، وليكون نزوله فارقا أو فرقانا بين عهدين : (وبيناتٍ من الهُدَى والفُرقان) يستبعد العقل أن يكون هذا النزول بعيدا عن الناس لا يحسونه ولا يشعرون به ؛ لأنه نزول من اللوح المحفوظ إلى السماء الدنيا لم يعرفه بعد الله إلا الملائكة . . وإلا فكيف يعرفون بهذا النزول السماوى – أنه هدى للناس وأنه يبين لهم الحق من الباطل . . . الخ ؟ . .

الحق ، أننا – بالرغم من الرواية المروية عن ابن عباس ، الذى لانملك إلا إجلاله الإجلال كله – ، يمكن أن نعطى عقولنا حق اختيار قول من الأقوال المنقولة ، التى خالف بها أصحابها ابن عباس فى توفيقه بين الآيات والواقع . .

ونحن بهذا لا نتعرض لنفى أن يكون هناك نزول من اللوح المحفوظ إلى السماء الدنيا ، فهذا شىء والتوفيق الذى رآه ابن عباس شىء آخر ، نحن فقط لا نأخذ بهذا التوفيق ، ونأخذ بقول آخر يتفق مع عقولنا ويوفق بين الآيات والواقع ، ونقول : إن الآيات تتحدث عن تاريخ البدء بنزول القرآن على محمد ﷺ ، لا عن نزوله إلى السماء الدنيا . .

ومن المعروف المسلم به أن الرسول ﷺ كان يتعبد بغار حراء . فى شهر رمضان من كل عام ، وان جبريل نزل عليه بأول آية من القرآن ، وهو موجود فى هذا الغار أثناء شهر رمضانٍ . .

ومادام هذا الشاهد موجودا ، والقرآن يتحدث عن نزوله فى شهر رمضان ، فلماذا لا نفسر الآية على ضوء الواقع ، ونعنى بإنزاله بدء الإنزال ؟ .

الحقيقة ، أن هذا الرأى هو أقرب الآراء للعقل والفهم . . وهو الذى ارتضاه

الإمام الشيخ محمد عبده فى تفسيره لسورة القدر ، ونحن ننقل هنا ما قاله فى هذا الصدد ، بشيء من التصرف والاختصار :

« قال الشعبى : المراد من أنزلناه ، وأنزل فيه القرآن : الابتداء بإنزاله ، خصوصًا والقرآن كله ، والجملة منه وإن قصرت ، كل ذلك يسمى قرآنا ويسمى كتابا ، فصح عود الضمير فى أنزلناه إلى بعض آيات القرآن ، وصح إطلاق القرآن فى قوله (أُنْزِلَ فيه القُرآن) على آيات منه » . .

ثم أخذ يؤيد رأيه هذا فقال : « وقد بين سبب الإنزال فى آية الدخان بقوله : (إنا كنا مُنْذِرين) أى أننا إذ خلقنا الإنسان محتاجا للتعليم والإرشاد بغريزته قد كتبنا على أنفسنا أن نتعهده بالإنذار على ألسنة الرسل فأنزلنا القرآن لإنذار الناس بما سيلاقونه جزاء أعمالهم ، وقال : (فيها يفرق كل أمر حكيم) أى يفصل فيها كل حكم من أحكام الدين ، ولا يقرر فيها من الأحكام إلا ما كان حكيما يقف بك عند الحق ، ويبعد بك عن الباطل ، ولا شك أن ابتداء نزول القرآن كان فرقا بين الحق والباطل ، كما كان القرآن مشتملاً على الحكمة ، ولا يظهر أنه فارق بين الحق والباطل مشتملٌ على الأحكام الحكيمة إلا إذا كان ظاهرا للناس ، يقرءونه ويفهمونه ، ويعرفون أنه رحمة ونذير ، ولا يكون كذلك إلا إذا نزل إليهم بالفعل كله أو بعضه . فلا يعقل أن يوصف القرآن بما وصف به ، وهو لم ينزل للناس ، وكيف توصف ليلة نزوله للسماء الدنيا بأن فيها يتقرر الفصل بين الحق والباطل ، والناس لم يلمسوا لها أى أثر عندهم ؟ » . .

ثم قال : « وكل تأويل يخرج عن ذلك فهو بعيد عن معنى النص ، بل لا يقبله إلا من يقول إن الألفاظ العربية لا تدل على معانيها » . .

وحين تحدث الشيخ عبده فى تفسير قوله تعالى : (شَهْرُ رَمضانَ الذى أُنزِلَ فيه القرآنُ) فيما نقله تفسير المنار قال :

« وأما معنى إنزال القرآن فى رمضان مع أن المعروف باليقين أنه نزل منجما متفرقا فى مدّة البعثة كلها ، فهو أن ابتداء نزوله كان فى رمضان ، وذلك فى ليلة

منه ، سميت ليلة القدر أى الشرف . . وهذا المعنى ظاهر لا إشكال فيه ، وقد ظن الذين تصدّوا للتفسير منذ عصر الرواية ، أن الآية مشكلة ، ورووا فى حل الإشكال أن القرآن نزل فى ليلة القدر من رمضان إلى سماء الدنيا من اللوح المحفوظ ، ثم نزل على النبى منجما ، وظاهر قولهم هذا : أنه لم ينزل على النبى فى رمضان منه شيء خلافا لظاهر الآيات ، مع أنه لا تظهر المنة علينا ولا الحكمة فى تعظيم شهر رمضان ، وجعله شهراً للصوم والتعبد ، على قولهم هذا ؛ لأن وجود القرآن فى سماء الدنيا كوجوده فى اللوح المحفوظ ، كوجوده فى أية سماء ، من حيث أنه لم يكن هداية لنا ، ولا أثر له علينا ، ولا تظهر لنا حينئذ فائدة الإنزال ولا فائدة لنا من الإخبار به ، إنما تظهر المنّة وتظهر فائدة الإنزال لوكان إنزالا على الرسول ، يبلغه لنا فنهتدى به ، ويكون له أثر فى حياتنا يمكن أن نذكره فنذكر الشهر الذى بدأ فيه هذا الخير ، وهذه الهداية ، فنعظمه بالصيام والعبادة » . .

ثم قال الشيخ توكيدا لرأيه ونقدا للروايات والمعتمدين عليها وحدها ، وبيانا لوجهة نظره فى عدم الأخذ بالرواية الخاصة هنا :

« وقد زادوا على هذا روايات فى كون جميع الكتب السماوية أنزلت فى رمضان ، كما قالوا : إن الأمم السابقة كلفت بصيام رمضان ، ولم يصح من هذه الروايات والأقوال شيء » ا . هـ . .

لعلنا بهذا كله نكون قد أوفينا هذا الموضوع حقه من البحث ، ووضعنا أمامك الآراء فيه ، كما وضعنا الرأى الذى اخترناه ، لتختار لنفسك ما تستريح إليه ، ويطمئن إليه قلبك ، ويتجاوب مع عقلك ، ولا تثريب عليك ولا علينا أن نأخذ برأى من هذه الآراء ، كما فعل السابقون على الأقل ، ومن الله الهداية . .

* * *

أول ما نزل من القرآن

لم يحدث فى التاريخ أن عنى أتباع دين بالكتاب المنزل على رسولهم كما عنى المسلمون بالقرآن من كل جانب من جوانبه ، حتى كان هو الذى قامت حوله ومن أجله كل العلوم الدينية والعربية والكونية وغيرها . . فكان حقا باعث النهضة العلمية بمفهومها الواسع لأتباعه . .

ولقد عنوا بالبحث عن كل شىء يتصل بالقرآن ، أول آية وأخر آية ، وفى أى مكان نزلت وبأى سبب . . . الخ . .

ومدة نزول القرآن الكريم على الرسول ثلاث وعشرون سنة ، من أول آية نزلت حتى آخر آية . .

وربما تجد أقوالا أخرى تحدد المدة بعشرين سنة ، والقائلون بهذا لم يأخذوا فى اعتبارهم بدء النزول ، وإنما حسبوا المدة من بعد فتور الوحى ، وهذه الفترة تقدر بنحو ثلاث سنين ؛ لأن المعروف أن جبريل بعد ما نزل على الرسول بأول آية انقطع عنه مدة تقرب من ثلاث سنوات ، اشتد شوق الرسول فيها إليه ، وتهيأت نفسه تماما لاستقبال الجديد ، فبدأ القرآن ينزل بعد ذلك متتابعا وعلى فترات قصيرة . . فأسقطوا من حسابهم المدة السابقة على هذا . .

لكن مادامت آية منه قد نزلت ، ولو انقطع النزول بعدها فترة ، فلابد أن نحسب المدة من أول نزول هذه الآية ، فتكون نحوا من ثلاث وعشرين سنة ؛ لأن الوحى نزل على الرسول وهو فى سن الأربعين ، وتوفى وهو فى الثالثة والستين ، وظل الوحى ينزل عليه حتى قبيل وفاته ، فتكون مدة الرسالة ونزول القرآن نحوا من ثلاث وعشرين سنة . .

أما أول ما نزل فهو قوله تعالى :

« ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ﴿١﴾ خَلَقَ ٱلْإِنسَـٰنَ مِنْ عَلَقٍ ﴿٢﴾

ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ﴿٣﴾ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ﴿٤﴾ عَلَّمَ ٱلْإِنسَـٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴿٥﴾ »

وأما بقية سورة العلق فقد نزل بعد ذلك . .

وقد علمنا ذلك عن طريق الحديث الصحيح الذى ذكرته كتب السنة ، ونذكره هنا كما رواه البخارى عن عائشة أم المؤمنين رضى الله عنها ، قالت : « أول ما بدئ به رسول الله ﷺ من الوحى الرؤيا الصالحة فى النوم ، فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح[1] ، ثم حبب إليه الخلاء ، وكان يخلو بغار حراء[2] فيتحنث فيه[3] (وهو التعبد) الليالى ذوات العدد قبل أن ينزع (يعود) إلى أهله ، ويتزود لذلك ، ثم يرجع إلى خديجة ، فيتزود لمثلها حتى جاءه الحق وهو فى غار حراء ، فجاءه الملك (جبريل) فقال : اقرأ . قلت : ما أنا بقارئ ، فأخذنى فغطنى (أى ضمنى ضمة شديدة) حتى بلغ منى الجهد ، ثم أرسلنى ، فقال : اقرأ . قلت : ما أنا بقارئ ، فأخذنى الثانية حتى بلغ منى الجهد ، ثم أرسلنى ، فقال : اقرأ ، قلت : ما أنا بقارئ ، فأخذنى فغطنى الثالثة ، ثم أرسلنى ، فقال :

« ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ﴿١﴾ خَلَقَ ٱلْإِنسَـٰنَ مِنْ عَلَقٍ ﴿٢﴾ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ﴿٣﴾ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ﴿٤﴾ عَلَّمَ ٱلْإِنسَـٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴿٥﴾ »

---

(١) أى يجدها بعد النوم فى واقعه كمارآها فى النوم ، والرؤيا الصالحة للانبياء مبشرات ومقدمات للرسالة ، ولم ينزل عن طريقها شىء من القرآن ، بدليل ما جاء بعد ذلك « ثم حبب إليه الخلاء » .

(٢) غار أوكهف فى أعلى جبل شمال شرق مكة يمر به الذاهبون إلى منى وعرفات . ويطلق عليه الآن جبل النور ، لنزول الوحى فيه . فى غار حراء أعلاه . وهو عال مرتفع يصعد إليه الصاعد بمشقة شديدة فى الصعود وتسلق الصخور والتعرض للوقوع . . . الخ . .

(٣) كان يتعبد على ما عرفه من بقايا دين أبيه الخليل إبراهيم مفكرا فى الكون والله الذى خلقه . .

فرجع بها رسول الله ﷺ يرجف فؤاده ، فدخل على خديجة فقال : زملونى زملونى . . الحديث » . .

فهذا الحديث الصريح الصحيح يبين لنا أول آية نزلت من القرآن . .

وفى رواية أخرى تقول : إن النبى ﷺ كان بحراء إذ أتى الملك بنمط من ديباج مكتوب فيه : (اقرأ باسم ربك . . الآيات) . وهذه الرواية صريحة فى أن جبريل عرض على الرسول أن يقرأ المكتوب فى الديباج (قطعة من الحرير) ومن هنا كان رد الرسول : ما أنا بقارئ – أى أننى لا أعرف القراءة والكتابة . .

وما فعله جبريل مع الرسول من الضم الشديد ثم تركه ولعدة مرات لا نفهم منه إلا أنه كان مقدمة لإيقاظه تماما وتعريفه ما هو مقبل عليه من تلقى الوحى والرسالة ، وما يترتب عليها ، كما نطق بذلك القرآن فى أوائل ما نزل عليه من سورة المزمل : (إنا سَنُلْقِى عليك قولاً ثَقِيلاً) ليتهيأ ويستعد للعهد الجديد المقبل عليه . .

ومن هذا الحديث نفهم أن نزول جبريل بالوحى على الرسول فى غار حراء كان لأول مرة ، بدليل ما اعترى الرسول من خوف ورجفة ورجوعه إلى بيته ، بعد ما حصل فى الكهف المظلم ، يقول : زملونى . . أى غطونى . . مثل أى خائف يلجأ للبعد حتى عن رؤية ما حوله ، ولوكان بإغماض العين حين لا يجد شيئا يلتف به . .

ولقد طمأنته خديجة الزوجة الوفية الرزينة بكلمات طيبة ، كان فى حاجة إليها وقت الخوف ، والرسول بشر ، والبشر منا يحتاج فى وقت الذعر إلى أية كلمة تسكن فؤاده ، وتبعث فيه ولو شيئا من السكينة . . ثم ذهبت به إلى ابن عمها ورقة بن نوفل وكان عربيا أصيلا على علم بالكتب السابقة وأحوال الأنبياء ، فطمأنها وطمأنه ، وقال : هذا هو الناموس (أى المَلَك) الذى كان ينزل على موسى وعيسى من الأنبياء قبله ، وأنه سيكون نبى هذه الأمة . .

فهذه الرواية قاطعة بأن هذه أول آية ولا سبيل للشك فيها ولا تأويلها . .

ولكنا وجدنا مع هذا روايات أخرى تقول : إن أول ما نزل : (يأيُّها المدثّرُ قُم فَأَنْذِرْ . . .) فقد جاء فى البخارى ومسلم عن أبى سلمة بن عبد الرحمن بن عوف (رضى الله عنهم) أنه قال : سألت جابر بن عبد الله : أى القرآن أنزل قبل ؟ فقال : (يأيُّها المدثّرُ) فقلت : أو : (اقرأ) . فقال جابر : أحدثكم ما حدثنا به رسول الله ﷺ قال : جاورت بحراء شهرا ، فلما قضيت جوارى نزلت فاستبطنت الوادى ، فنوديت ، فنظرت أمامى وخلفى وعن يمينى وعن شمالى . . إلى أن قال : فرفعت رأسى فإذا هو على العرش فى الهواء يعنى جبريل عليه السلام . . إلى أن قال : فأنزل الله عز وجل : (يأيُّها المدثّرُ) . .

وسياق هذه الرواية ورؤية جبريل ، والمكان الذى رآه فيه ، غير سياق الرواية السابقة وظروفها ووقائعها ، فلابد أن تكون واقعة أخرى لاحقة للأولى ، بعد انقطاع الوحى عليه مدة . .

وفى رواية أخرى لهذا الحديث : « فرفعت رأسى فإذا الملك الذى جاءنى بحراء » وهذه قاطعة بأن هذه هى المرة اللاحقة لحراء . .

ولسنا فى حاجة فعلا لروايات بعد ذلك ، وألفاظ رواية جابر بن عبد الله تبين بجلاء أن هذه غير تلك . .

لكن يبقى موقفنا من هذه الرواية الاخيرة وقول جابر فيها . .

ولنا أن نقول : إن جابر فهم من كلام الرسول هذا ، أن هذه : (يَأيُّها المدثّرُ) أول آية ، ولكن مادام عندنا رواية أخرى تبين أول آية ، فإننا لا نأخذ برواية جابر ونحملها على أن هذا فهمه ، وفهمه لا يلزمنا . .

على أن لنا أن نقول إن هنا أولية على الإطلاق وهى (اقرأ) وأولية نسبية أى بالنسبة لفتور الوحى ، فقد نزلت أول آية بعد انقطاع الوحى : (يأيُّها المدثّرُ . .) ، بل إن قوله (المدثّرُ) يفيد أنه يخاطب الرسول الذى لجأ إلى الدثار والغطاء ، بعد نزول الوحى أول مرة عليه بقوله تعالى (اقرأ) .

قال الإمام النووى فى شرحه لصحيح مسلم[1] : قوله إن أول ما نزل قوله تعالى : (يأيُّها المدثّرُ) ضعيف بل باطل والصواب أن أول آية نزلت على الإطلاق : (اقرأ باسم رَبِّكَ) . .

أما وقد عرفت بعد هذا كله الصواب ، فلا تلتفت لما يذكر من آراء غيره ، واحمل ما عدا ذلك على أنها أولية نسبية ، أى أول سورة نزلت بتمامها ؛ لأن المدثر نزلت كلها دفعة واحدة ، والعلق لم تنزل كلها كذلك ، أو أول سورة نزلت تكلف الرسول بإنذار قومه : (قُمْ فأَنْذِر) أى بدء عهد الرسالة الفعلية ، وهكذا . .

* * *

(١) ج ٢ ص ٢٠٧ طبعة محمود توفيق . .

آخر ما نزل من القرآن

لعل الأمر فى تحديد أول ما نزل من القرآن يختلف عن هذا بعض الشيء ، فقد كان اختلاف الرأى حول أول آية نزلت اختلافا محدوداً أمكن حسمه وحصره ، والوصول إلى الرأى الصحيح أو الأصح بسرعة ، ودون عنت فى التأويل ، بحيث لم يعد هذا الاختلاف إلا فى بطون الكتب ، أما العلماء بعامة فلا يذكرون إلا الرأى الأصح ، معتبرين أن هذا هو الرأى الوحيد . .

وعلى عكس هذا تحديد آخر ما نزل ، فإن الاختلاف حوله كثير ، وإن كنا إن شاء الله سنحسم هذا الخلاف ، ونخرج بالرأى الصحيح ، وإن كان مع الأسف غير مشهور ، حيث زاحمه رأى آخر اشتهر بين الناس ، حتى لدى كبار العلماء الذين يحتج برأيهم وأقوالهم ، نجدهم يدونون ذلك فى كتبهم ، ويلقونه فى محاضراتهم وأحاديثهم ، وهذا الرأى مع عدم صحته يكاد يغطى على كل ما عداه . .

فإذا سئلت الآن مثلا ، أو سألت نفسك ، عن آخر آية نزلت من القرآن ، فإنك ستجيب فى سرعة :

« ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا »(١)

ولو سألت غيرك لقال لك هذا القول ، وقد نزلت هذه الآية فى يوم الجمعة التاسع من ذى الحجة على الرسول ﷺ ، وهو بعرفة فى العام العاشر من الهجرة ، وهو يحج حجة الوداع . .

وقد روج هذا الرأى لدى العلماء أن الآية تتحدث عن إكمال الدين ، وإتمام

---

(١) سورة المائدة . الآية : ٣ .

النعمة على المسلمين ، ولا يكون هذا إلا وقد تم نزول القرآن ، ولم يبق منه شيء ؛ لأنه لو بقي منه شيء من الأحكام والتوجيهات ما صدق معنى إكمال الدين وإتمام النعمة . .

وهذه حجة وجيهة فعلا ، وكان يمكن الأخذ بها على إطلاقها ، لولا أننا وجدنا روايات صحيحة تفيد أن هناك آيات من القرآن الكريم نزلت بعد حجة الوداع ، وقبيل وفاة الرسول ﷺ بأيام .

فقد روى البخارى عن ابن عباس رضى الله عنهما : « أن آخر آية نزلت هو قول الله تعالى :

« يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَذَرُواْ مَا بَقِيَ مِنَ ٱلرِّبَوٰٓاْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٧٨﴾ » (١)

وتعددت الروايات بأن هذه آخر آية نزلت ، وبجانبها روايات أخرى تقول : إن آخر مانزل من القرآن كله :

« وَٱتَّقُواْ يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٢٨١﴾ » (٢)

وهى اية قريبة جدا من الآية السابقة ، فالسابقة رقم ٢٧٨ وهذه ٢٨١ .

وعن سعيد بن المسيب أن آخر آية نزلت هى آية الدين :

« يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيْنٍ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَٱكْتُبُوهُ . . . الآية »

وهى رقم ٢٨٢ من سورة البقرة أعنى عقب الآية السابقة مباشرة . .

يعنى أن هذه الآيات التى تعددت الروايات فى أن كلا منها آخر ما نزل ، آيات متتالية تبدأ بآية الربا وتنتهى بآية الدين ، ولهذا أمكن الجمع بينها بأن هذه

---

(١) سورة البقرة . الآية : ٢٧٨ .

(٢) سورة البقرة . الآية ٢٨١ .

الآيات كلها هى آخر ما نزل من القرآن ، وكل راو صادق من وجهة نظره فى أن مارواه هو آخر ما نزل ؛ لأنه من آخر مانزل فعلا ، فربما حفظ آية ، ولم يتنبه للآيات الباقية ، فقال بما علمه ، وما علمه جزء من الحقيقة ، فلا تضارب بين الروايات ، أوكما قال السيوطى فى الإتقان : « ولا منافاة عندى بين هذه الروايات ، لأن الظاهر أنها نزلت دفعة واحدة كترتيبها فى المصحف ؛ ولأنها فى قصة واحدة فأخبر كل عن بعض مانزل بأنه آخر مانزل وذلك صحيح » . .

وقد نزلت هذه الآيات وتوفى الرسول بعد نزولها بتسع ليال – أى فى ربيع الأول سنة ١١ من الهجرة ، أما آية : (اليوم أكملتُ لكم دينكم) فقد نزلت فى التاسع من ذى الحجة فى السنة العاشرة ، أى قبل نزول هذه الآيات بنحو ثلاثة شهور . .

وأعتقد أنه بعد تحديد تواريخ النزول بهذه الصورة أصبحت المسألة مسألة أرقام وتواريخ لا مجال فيها للظن . .

وبهذا يثبت ثبوتاً قاطعاً أن آخر ما نزل هو قوله تعالى :

« يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَذَرُواْ مَا بَقِىَ مِنَ ٱلرِّبَوٰٓاْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٧٨﴾

كما أفادت هذه الروايات الصحيحة . .

ومع صحة هذا الرأى بهذه الصورة فإنه رأى منزوٍ ، لم يأخذ حظّه من الشهرة ، بل غطى عليه الرأى الآخر غير الصحيح . .

لكن يبقى أمامنا توضيح معنى إكمال الدين وإتمام النعمة ، إذا نحن رفضنا أن نعتبر كمال الدين بنزول آخر الآيات وإتمام الاحكام ، أى أنه إذا لم يكن إكمال الدين وإتمام النعمة هو إنزال آخر آيات القرآن بهذه الآية التى تعلن هذا الإكمال ، فما يكون إذن ؟ فهل للآية معنى آخر غير ما ذكر ؟ .

لقد عرفت سابقا أن هذه الآية نزلت والرسول فى عرفات أثناء حجه ، والظروف التى أحاطت بحجه ﷺ بل وقبل حجه مما هيأ له الحج ، وهو مطمئن

النفس منشرح الصدر . هذه الظروف توضح لنا المراد بإكمال الدين وإتمام النعمة فى هذه الآية . .

نعرف أن مكة كانت خالصة للمشركين يتحكمون فيها ، حتى والرسول يقيم بينهم ، فلما هاجر لم يعد فيها مسلم ينغص على المشركين حياتهم ، كما كان المسلمون يفعلون مع الرسول قبل الهجرة . . معنى هذا أن قوة الشرك فيها انفردت بالسيطرة والسلطان ، وخلالها الجو تماما بعد الهجرة . . وظل الرسول ﷺ سنوات بعد الهجرة هو وأصحابه المهاجرون محرومين من الذهاب لبلدهم ووطنهم ، حتى العام السابع للهجرة ، فدخلها الرسول ومن معه من صحابته بعد معاهدة الحديبية فى السنة السادسة . . دخلوها معتمرين ولأيام وبشروط وعادوا بعدها للمدينة . .

حتى كانت السنة الثامنة ففتح الله على الرسول والمؤمنين مكة ، وطهر البيت الحرام من الأصنام ، وأصبحت السيطرة فيها والكلمة للمسلمين . . لكن ذلك لم يكن يعنى منع المشركين من الطواف بالبيت ومن أداء الحج مع شركهم ، فكانوا يطوفون مع المسلمين ويحجون مع المسلمين ، ويرتفع شعار الشرك بجانب شعار التوحيد . .

فى العام التالى للفتح . العام التاسع للهجرة . تجهز المسلمون فى المدينة وما حولها للحج . ولكن الرسول عليه الصلاة لم يذهب على رأسهم بل جعل أبا بكر رضى الله عنه أميراً للحج . . ولعل ذلك ليتحاشى الرسول رؤية أو سماع ما يكرهه من شعارات الشرك . فى بلد سيطر عليه . . وحج أبو بكر بالمسلمين . ومعهم وبجوارهم المشركون يحجون أيضاً . ويؤدون مناسك حجهم على تقاليد الشرك . والطواف بالكعبة عرايا . والابتهال للأصنام إلى غير ذلك من الشعارات والأعمال التى لا يقرها الإسلام . .

ولا شك أن فى ذلك أذى كثيرا لنفسية المؤمنين وللرسول ، شاء الله أن يتحملوه لفترة عقب الفتح ، لكن هل يستمر ذلك ؟ . . وتبقى مكة والبيت الحرام ومناسك الحج شركة بين التوحيد والشرك ؟

هذا هو الذى حسم الله أمره ، بما نزل من القرآن من سورة التوبة :

« بَرَآءَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١﴾ »

وفيها : « وَأَذَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلنَّاسِ يَوْمَ ٱلْحَجِّ ٱلْأَكْبَرِ أَنَّ ٱللَّهَ بَرِىٓءٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُۥ »

وفيها : « يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّمَا ٱلْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُوا۟ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَٰذَا »

وقد قال المفسرون إن هذه الآيات نزلت بعد مسيرة أبى بكر للحج على رأس المسلمين ، فرأى رسول الله أن يرسل عليا ليدرك أبا بكر يعلمه بها ، ويأمر الرسول بقراءتها على الناس ، وفيهم المشركون ، لأنهم المعنيون بها ، وكذلك زوده بتعاليمه فى هذا الصدد : « ألا يحجن بعد هذا العام مشرك ، ولا يطوفن بالبيت عريان » . .

وبلغ على وأبو بكر رسالة الرسول ، وقرأ على كرم الله وجهه الآيات التى أمر بقراءتها ، وبلغ ما أمره الرسول بتبليغه . . وكان معنى هذا كله أن هذا العام أعنى العام التاسع ، هو آخر عام يحج فيه المشركون ، وألاّ مكان لهم بعد ذلك فى الحج ، كذلك لامكان لهم حول البيت ، فقد أصبح الحج خاصا بالمسلمين ، كذلك أصبح البيت الحرام خاصا بهم لا يطوف به إلا الموحدون المسلمون . .

ومعنى هذا أن أى ظل من الشرك والمشركين لم يعد له وجود فى الحج ، ولا حول الكعبة فى الطواف ، فقد انحسر إذن ظل الشرك إلى الأبد فى هذا المكان الطاهر والشعائر الطاهرة ، وأصبح الذين كانوا يسيطرون على كل شىء فى مكة ، الذين كانوا يخنقون كل صوت إلا صوتهم ، ويطاردون ويعذبون كل من ليس على شركهم ، أصبح هؤلاء أذلاء ، محرومين من مباشرة شعائر حجهم ، ومن الطواف حول البيت ، كما كانوا يحرمون المسلمين ، وشربوا من الكأس التى سقوا بها المسلمين . . وأصبح هؤلاء الذين كانوا يعذبون من أجل دعوة الحق ، الذين طوردوا حتى ابتعدوا عن مكان الظلم ، الذين حيل بينهم وبين وطنهم ، وبين

مهوى أفئدتهم البيت الحرام . . أصبح هؤلاء هم السادة وهم القادة ، جو مكة كله لهم ، شعائر الحج كلها لهم ، البيت الحرام لهم . . لا مكان ولا مجال لمشرك بجانبهم ، الكلمة كلمتهم ، والسيطرة التامة فى أيديهم . . سبحان مغير الأحوال .

أليست هذه عزة ساقها الله للمسلمين الصابرين المجاهدين ؟ أليس تطهير البيت الحرام من المشركين كمالا للدين وإتماما لنعمة الله على المسلمين ؟ . .

لقد كان مجرد ظهور المشرك بجانب المسلم ، وارتفاع شعائر الشرك مع شعائر الإسلام ، كان مجرد هذا مؤذيا لشعور المسلمين ، ناطقا بأن هناك سلطانًا للشرك بجانب سلطان الإسلام ، فإذا زال هذا واختفى ، ألا يعنى أن الله قد أكمل على المسلمين أمر دينهم ، وأعلى شأنه وشأنهم ، وجعل له ولهم الغلبة التامة ؟

ألا يعنى أن الله بعد أن أنعم على المسلمين بفتح مكة ، أتم عليهم نعمته بزوال كل أثر للشرك فيها ؟ . .

أدعوك لتنفذ بحسك وخيالك ونفسيتك الحساسة إلى بقايا المشركين حين سمعوا هذا كيف كانت حالهم ، وما حجم الخيبة والذلة التى نزلت بهم ؟

وأدعوك كذلك لتنفذ لنفوس المسلمين حين سمعوا هذا وما شعروا به من عزة لا تطاول ، وما أحسوه من رد اعتبار لهم ولمبادئهم وعقيدتهم التى طوردت وحوربت بشراسة للقضاء عليها . .

لكن شعور المسلمين هذا لا يبلغ مداه إلا حين يرون الواقع ويلمسونه ، حين يحجون وحدهم ولا يرون مشركا بجانبهم ، حين يطوفون بالبيت وحدهم ولا أثر لمشرك حولهم ، حين يسمعون فعلا شعار الإسلام وحده : « لبيك اللهم لبيك . إن الحمد والنعمة لك والملك ، لا شريك لك لبيك » .

لقد كان ذلك كله تمهيدا لحج رسول الله ﷺ حتى لا يرى شيئا يؤذى شعوره . .

وسار الرسول على رأس الآلاف من المسلمين وحدهم لأداء فريضة الحج ومناسكه . . وطاف بالبيت مع أصحابه لم يروا مشركا ولم يسمعوا كلمة شرك ،

وسار على رأس المسلمين إلى عرفات ، ونظر ورأى أن هذه الساحة الواسعة أصبحت للمسلمين وحدهم ، وأن الجو أصبح ملكا لأصواتهم ، أصوات التوحيد ، تملؤه وتردد الجبال حولهم والصحراء صداه . . أية نعمة ، وأى فضل ، وأية فرحة تغمر الرسول والمؤمنين معه ؟

هل تتصور معى هذا الشريط كله ، هل تتصور هذا المشوار الطويل الملىء بالعرق والدموع والدم والآلام ؟ كيف كانت نهايته ؟ كيف كانت عقبى الصابرين المتمسكين بالحق ، المجاهدين المضحين دونه ؟

هنا وفى هذا اليوم وفى هذا المكان ، ساحة عرفات ، تنزل الآية الكريمة تسجل هذا الواقع الحلو :

« ٱلْيَوْمَ يَئِسَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن دِينِكُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَٱخْشَوْنِ ۚ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى ۚ وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا ۚ »

نعم ، اليوم فى عرفات يظهر الدين ، وتتم نعمة الله عليكم . . يظهر الإسلام ظهورا واضحا على الشرك ، وتكمل سيطرته ، ويتم الله نعمته على رسوله والمؤمنين ، إنها وثيقة النصر الإلهية ، تسجله ، وتعلنه بعد طول كفاح وجهاد ، أية فرحة – إذن – تغمر الرسول والمؤمنين ؟ ألا يستحق هذا اليوم الذى أعلن الله فيه هذه الوثيقة ، أن نتذكره دائما ونذكر معه كلما جاء وعاد فضل الله علينا نحن المسلمين ، وعلى رسولنا المجاهد الأمين ، وصحابته المخلصين ؟ . .

لقد أحس يهودى من المقيمين بالمدينة مسالمين هذا المعنى فقال لعمر بن الخطاب رضى الله عنه : « إن لديكم آية لو علينا معشر اليهود نزلت لاتخذنا يوم نزولها عيدا (اليوم أكملت لكم دينكمُ . . . الآية) » ، ففطن عمر إلى ما يريده اليهودى فقال : نعم . إننا نعرف يوم نزولها ، نزلت فى عرفة ، وقت العصر على الرسول فى حجة الوداع ، وثانى يوم لنزولها هو عيدنا ، عيد الأضحى . . .

ذلك – إذن – هو المراد بإكمال الدين وإتمام النعمة ، وقبله يعلن الله :

(اليوم يئسَ الذين كفَروا من دِينكم) نعم يئس المشركون تماما من التغلب على الإسلام أو النيل منه ، وهل بعد هذه القوة وهذه السيطرة أمل لهم ؟

فيأس الذين كفروا من الدين والنيل منه ، يوضح توضيحا أكثر المراد بإكمال الدين وإتمام النعمة ، وأن معناهما لا يتصل بمسألة الفروض والأحكام وانتهاء نزولها . . بل يتصل بمعنى آخر هو القوة والعزة التى زرعت فى قلوب الذين كفروا اليأس التام . .

لقد عاش المشركون ما عاشوا ، وحاربوا الرسول ما حاربوا ، لم يهمهم فى شيء أن تنزل الفرائض أو لا تنزل ، تتم أو لا تتم ، إنما كان يهمهم شيء واحد ، هو أن يكون محمد ضعيفا مهزوما ، وأن تكون الغلبة لهم للقضاء عليه وعلى دينه ، أما وقد بلغت قوة الإسلام ما بلغت ، وسيطرت هذه السيطرة ، هنا يكون اليأس فى قلوب الكفار ، وتكون الفرحة والنشوة فى قلوب المسلمين . .

إن هذا المعنى العظيم هو الذى يجب أن نحرص عليه جميعا فى فهم الآية ، فهو المعنى الصحيح المستقيم المناسب للجو الذى نزلت فيه وللماضى الذى سبق نزولها . .

هذا فوق الروايات الصحيحة التى سبق أن تحدثنا عنها . ومن الله الصواب . .

وننتهى من الحديث حول هذه الآية : (اليومَ أكملتُ لكم دينكم) لنتابع الحديث عن أقوال أخرى تذكر آيات أخرى بأنها آخر ما نزل نذكرها لك هنا بعد ما عرفت الصواب ، لتتقى الوقوع فى غيره ، ومن باب العلم بما يقال .

قالت رواية رواها البخارى : إن آخر آية نزلت هى :

« يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ ٱللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِى ٱلْكَلَٰلَةِ »

آخر آية من سورة النساء . .

وهذا ليس بصحيح ، والآخرية هنا آخرية نسبية ، أى أنها آخر آية نزلت فى موضوع المواريث ، وينتهى الإشكال .

* قالت رواية ثانية : إن سورة النصر آخر ما نزل : (إذا جاءَ نصْرُ الله والفتْح . .) وهى حقيقة تدل على بلوغ أمر الرسول الكمال والنصر والفتح ، وبعد الكمال يجيء النقصان ، ولذلك بكى أبو بكر وأصحاب الحس المرهف من صحابة الرسول وقال عمر : « الكمال دليل الزوال » وأحسوا أن نهاية رسول الله قد قربت . .

وجمعا بين الروايات الصحيحة نقول : إنها آخر سورة نزلت بتمامها لا آخر آية وينتهى الأمر . .

* ورواية ثالثة تقول : آخر ما نزل :

« فَٱسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّى لَآ أُضِيعُ عَمَلَ عَٰمِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ بَعْضُكُم مِّنۢ بَعْضٍ . . الآية »[1]

وجمعا بين الروايات نقول : إنها آخر آية نزلت وفيها ذكر للنساء والرجال معا ، وينتهى الأمر . .

على أننى من باب الإنصاف أقول : إن الرأى الذى يقول إن آخر الآيات نزولا هى :

« يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَذَرُواْ مَا بَقِىَ مِنَ ٱلرِّبَوٰٓاْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٧٨﴾ »

لم يسلم كذلك من نقد ذاتى موضوعى ، فهناك من يذكر أن موضوع الربا هذا الذى تشير إليه الآية كان معروفا لدى الرسول قبل نزولها وقبل وفاة الرسول بمدة ، فإنه ﷺ أشار إلى الربا فى خطبة الوداع أثناء حجه بأن كل ربا فى الجاهلية موضوع ، وربا العباس موضوع ، أى ملغى ، ليس لصاحب الدين أن يتقاضاه . . وهذا يتفق فى معناه مع ما تشير إليه الآية :

« يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَذَرُواْ مَا بَقِىَ مِنَ ٱلرِّبَوٰٓاْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُواْ فَأْذَنُواْ بِحَرْبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَإِن تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَٰلِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ »

(١) سورة آل عمران ، الآية : ١٩٥ .

والقائلون بهذا النقد يقولون : إن الرسول لم يحكم بأن كل ربا موضوع إلاّ بناءً على وحى من الله أفاد هذا الحكم . . وهو هذه الآيات بنصها . .

ويلاحظ أن الآية السابقة على هذه الآية ذكرت تحريم الربا :

(وأحلَّ اللهُ البيعَ وحرَّمَ الرِّبَا)

وبعدها مباشرة :

(يَأَيُّها الذِينَ امَنُواْ اتَّقُواْ اللهَ وَذَرُواْ مَا بَقِىَ مِنَ الربا)

إلى قوله : « وإِن تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَالِكُمْ »

فالآية الأولى : (وأحلَّ اللهُ البيعَ وحرَّمَ الرِّبَا . .) حكمت بتحريم التعامل بالربا ، والآيات التى بعدها تعرضت للتعامل الربوى ومن كان له ربا قبل نزول التحريم ، فحكمت بعدم أخذه ، والاقتصار فقط على رأس المال ، ومن هنا يبدو الارتباط بين هذه الآيات ، وإشارة الرسول وحكمه فى حجة الوداع بإلغاء ثمرة الربا : (وربا العباس موضوع) يظهر منه أن هذه الآيات هى التى حكم الرسول على أساسها فلا تكون آخر القرآن نزولا . .

لكن يبقى معنا قول من هذه الأقوال ، وهو أن آخر الآيات نزولا :

« وَٱتَّقُواْ يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٢٨١﴾ »

هذا القول لم يمسه أحد بنقد ، وبذلك يمكن اعتماده .

على أنه من الجدير بالذكر أن هذه الأقوال كلها منسوبة لاجتهاد الصحابة وروايتهم ، لم يسند منها قول للرسول ، وكل صحابى قال بما وصل إلى علمه أو بما فهمه ، ولكن مادام القائل بأن آية : (واتقوا يومًا تُرْجَعونَ فيه إلى الله) سانده تحديد تاريخى وهو أن الرسول توفى بعدها بتسع ليال ، فإن هذا يرجح لدينا هذا القول ترجيحًا قويا .

* * *

المكى والمدنى

عنى الباحثون فى علوم القرآن بتمييز الآيات والسور التى نزلت بمكة . أو نزلت بالمدينة ، أو أثناء السفر ، وما نزل صيفا ، وما نزل شتاء ، وما نزل ليلا ، وما نزل نهارا ، وقد عقد السيوطى فى كتابه الإتقان فصولا فى معرفة الحضرى والسفرى ، والنهارى والليلى ، والصيفى والشتائى . . . الخ . ، وضرب أمثلة لكل نوع . . وهذا يدلنا على مبلغ العناية والضبط والتدقيق فى كل ما يتصل بالقرآن الكريم . .

لكن الذى يهمنا الحديث عنه هنا ومعرفته هو : المكى والمدنى ؛ لأن هذا هو الأهم ، وهو الأعم أيضاً ، إذ لا يخلو النازل صيفا أو شتاء ، أو ليلا أو نهارا ، من أن يكون : إما مكيا أو مدنيا ؛ ولأن لمعرفة المكى من المدنى دخلا فى التشريع بخلاف النهارى أو الليلى . . . الخ . لذلك ، كانت معرفته أهم وأعم . .

ومن المعروف أن الرسول ﷺ ، قضى شطرا من حياته بعد الرسالة فى مكة ، وشطرا فى المدينة ، ولم يكن ملتزما لهما ، لا يخرج منهما ، بل كان يخرج من مكة إلى الطائف ومن المدينة إلى أماكن الحروب كما ترك المدينة للعمرة ثم للحج . . الخ . وكان ينزل عليه القرآن أينما أقام أو تنقل . .

وقد أقام الرسول ﷺ بعد بعثته فى مكة وهو فى سن الأربعين ، حتى سن الثالثة والخمسين ، أعنى قضى فيها من سنى بعثته نحو ثلاثة عشر عاما ، ثم هاجر للمدينة ، وتوفى وهو فى الثالثة والستين ، أى أقام فيها نحو عشر سنوات . . وهنا نزل قرآن . . وهنا نزل قرآن . .

ثم إنك حين تقرأ فى المصحف ، تجد عند بدء كل سورة تعريفا لها بأنها مكية أو مدنية كلها ، أو إلاّ كذا وكذا من الآيات . فكيف عرف ذلك ؟ هل هو مما روى عن الرسول ، أو أن ذلك عن طريق رواية الصحابة ومن جاء بعدهم ؟ . .

لم يكن تحديد أن هذه مكية وهذه مدنية من وظيفة الرسول ومهامه حتى يبينه ، ولكن التعرض لذلك جاء حين البحث حول القرآن ، ومعرفة مكيه ومدنيه ، وناسخه ومنسوخه . . . الخ ، فهى بحوث أثيرت بعد الرسول ، واعتمدت على روايات وشواهد أعانت على هذا التحديد . .

وحينما بدأ العلماء فى وضع ضوابط للمكى والمدنى ، كانت لهم وجهتا نظر :

(ا) وجهة تأخذ المكان وحدة للضبط . . فترى أن ما نزل بمكة مكى ، ولوكان بعد الهجرة ، مثل (اليوم أكملت لكم دينكم) فقد نزلت فى حجة الوداع ، فى عرفة . . وما نزل بالمدينة مدنى .

ولكن هناك آيات لم تنزل فى مكة ، ولا فى المدينة ، بل نزلت فى الأسفار ، مثل قوله تعالى :

« لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا وَسَفَرًا قَاصِدًا لَّاتَّبَعُوكَ . . . الآية »[1]

فقد نزلت وهو مسافر بغزوة تبوك . فما حكمها ؟ ومثله ماروى فى أن قوله تعالى :

« إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَادُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ . . . الآية »[2]

نزلت تطمينًا لقلبه وهو مهاجر للمدينة ، وقد استبد به الحنين إلى وطنه وأخذه الحزن وهو مضطر لمغادرته . فما حكمها ؟ فهذا الضابط إذن سيضطرنا أن نعمل له ملاحق . . فى أمر الآيات النازلة خارج مكة ، أو المدينة وضواحيها ، فهو إذن ضابط غير جامع كما يقولون – أى غير جامع لكل آيات القرآن ، إذ يبقى من الآيات مانزل خارجها . .

---

(١) سورة التوبة . الآية : ٤٢ .

(٢) سورة القصص . الآية : ٨٥ .

(ب) أما الوجهة الثانية ، فتتخذ الزمان وحدة للضبط ، ولم تجد زمانا أنسب للتمييز بين المكى والمدنى إلا الهجرة . . فما نزل قبلها ولو خارج مكة فهو مكى ، وما نزل بعدها حتى ولو كان فى مكة نفسها فهو مدنى ، وهذا التحديد أضبط وأسهل ، فهو لا يضطرنا لملاحق تقول إن هذا فى السفر فى كذا أوكذا . .

وفوق هذا فإن مما لاشك فيه أن العهد المكى غير العهد المدنى من ناحية طبيعة المجتمع المشرك المحارب بمكة ، وطبيعة المجتمع المسلم المستقر بالمدينة ، ولكل طبيعة حكمها فيما ينزل من القرآن ليعالجها ، ويرد على ما أثير فيها . . فمكة كان فيها مشركون ، والمدينة فيها منافقون ويهود ، مكة تتناقش حول التوحيد واليوم الآخر ، والمدينة جاوزت هذا تقريبا وأصبح فيها مجتمع مسلم له متطلبات أخرى غير المجتمع المكى ، فهو يحتاج إلى أمور تفصيلية عن أحكام الحياة والعبادات وما أثاره اليهود من مشاكل وكذلك المنافقون ، فكل مجتمع له طبيعته التى نزل القرآن يعالجها ، ويتعرض لما يدور فى هذا المجتمع . .

ومن الضرورى لنا أن نعرف ما نزل قبل الهجرة وما نزل بعدها ، لاسيما لرجال التاريخ والتشريع . .

لذلك ، أميل إلى الأخذ بوجهة النظر هذه فى تحديد المكى والمدنى ، لأنه لاتخرج عنه آية من الآيات . . إذ لا تخلو الآية من أن يكون نزولها قبل الهجرة أو بعدها ، أما الآية الوحيدة التى نزلت على الرسول بعد أن غادر مكة فى طريقه للمدينة – كما يروى البخارى – وذلك لتطمينه وتبديد همه وحزنه ، بزرع أمل حلو فى نفسه :

« إِنَّ ٱلَّذِى فَرَضَ عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لَرَآدُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ »

فهذه تدخل فى المدنى ؛ لأنها نزلت بعد أن غادر مكة نهائيا ، وابتعد عنها ، فهى للمدنى أحق وأليق . .

ووجهة النظر هذه هى التى قام عليها تحديد المكى والمدنى من القرآن ، كما نراه فى المصاحف ، وفى البحوث التى قامت حول القرآن . .

لكن كيف عرفوا أن هذا نزل قبل الهجرة وهذا نزل بعدها : ؟

معرفة هذا وذاك إنما قامت على الرواية فى الوقت الذى بدأت فيه العناية برواية الأحاديث وتدوينها ، والعناية بالقرآن ورواية كل أمر يتصل به . . مثله فى ذلك مثل معرفة أسباب النزول ، معرفة أول أوآخر ما نزل . . . إلى غير ذلك من البحوث . .

فلم يؤثر عن الرسول ﷺ أن قال لأصحابه يعلمهم : هذه مكية ، وهذه مدنية ، ولم يعن الصحابة فى عهد الخلفاء بتدوين ذلك ، بل كانت لهم معرفة ، ربما تحدثوا بها لمناسبات ، وعنهم رويت فيما بعد . .

وبجانب الرواية كانت هناك ضوابط وشواهد تعين على معرفة المكى والمدنى سنتحدث عنها فيما بعد . .

ومن هذا وذاك تمكنوا من تمييز المكى والمدنى . . واختلفوا فى بعض الآيات القليلة ، وهذا أمر طبيعى مادام ذلك لم يؤثر فيه عن الرسول نص مروى قاطع ، وإنما الأمر كان للرواية عن الصحابة أو لشواهد أخرى . .

ولقد اجتهدوا وتعبوا وبذلوا غاية جهدهم ليتركوا لمن بعدهم هذا الميراث الضخم ، جزاهم الله خيرا ، فقد أصبح من السهل علينا أن نعرف المكى والمدنى ، وعنى مؤلفون بجمع المكى كله على حدة وترتيبه حسب نزوله ، والمدنى كذلك ، ثم ما اختلف فيه هل هو مكى أو مدنى[1] ؟ . .

وفى كتاب البرهان فى علوم القرآن للزركشى كلام عن هذا الموضوع ، أحب لزيادة الفائدة أن أنقله هنا . . قال نقلاً عن القاضى أبى بكر فى الانتصار .

---

(١) راجع البرهان فى علوم القرآن للزركشى ج ٢ ص ١٩٣ وما بعدها بتحقيق الأستاذ : محمد أبو الفضل إبراهيم . .

« إنما يرجع هذا (أى معرفة المكى والمدنى) لحفظ الصحابة وتابعيهم ، كما أنه لابد – فى العادة – من معرفة أتباع العالم والخطيب ، وأهل الحرص على حفظ كلامه ، ومعرفة كتبه ومصنفاته ، من أن يعرفوا ما صنفه أولا وأخيرا ، وحال القرآن فى ذلك أمثل ، والحرص عليه أشد ، غير أنه لم يكن من النبى ﷺ فى ذلك قول ، ولا ورد عنه أن قال : اعلموا أن قدر ما نزل بمكة كذا ، والمدينة كذا ، وفصله لهم ، ولوكان ذلك منه لظهر وانتشر ، وإنما لم يفعله لأنه لم يؤمر به ، ولم يجعل الله ذلك من فرائض الأمة ، وإن وجب فى بعضه على أهل العلم معرفة تاريخ الناسخ والمنسوخ ، ليعرف الحكم الذى تضمنهما ، فقد يعرف ذلك بغير نص الرسول بعينه ، وقوله : هذا هو الأول المكى ، وهذا هو الآخر المدنى . . وكذلك الصحابة والتابعون ومن بعدهم ، لما لم يعتبروا أن من فرائض الدين تفصيل جميع المكى والمدنى ، لم تتوافر الدواعى على إخبارهم به ، ومواصلة ذكره على أسماعهم ، وإذا كان كذلك ساغ أن يختلف فى بعض القرآن : هل هو مكى أومدنى ، وأن يعملوا فى القول بذلك ضربا من الاجتهاد والرأى ، وحينئذ فلم يلزم النقل عنهم ذكر المكى والمدنى ، ولم يجب على من دخل فى الإسلام بعد الهجرة أن يعرف كل آية نزلت قبل إسلامه : مكية أومدنية ، فيجوز أن يقف فى ذلك أو يغلب على ظنه أحد الأمرين ، وإذا كان كذلك بطل ما توهموه من وجوب نقل هذا أوشهرته فى الناس ، ولزوم العلم به لهم ، ووجوب ارتفاع الخلاف فيه »[1] . .

يريد الزركشى بهذا الكلام أن تمييز المكى والمدنى لم يبينه الرسول ؛ لأنه لم يؤمر ببيانه ، ولم يشغل أمره الصحابة كذلك لأنه ليس من فرائض الدين التى يجب العناية بها . ومن هنا ، لم يحدد هذا ولم يضبط تماما فتولد من هذا بعض الاختلاف فى الروايات عن المكى والمدنى .

ومما لابد من معرفته مع هذا أن السور كلها لم تنزل دفعة واحدة ، كل دفعة سورة مثلا ، ولاسيما السور الكبيرة ، اللهم إلا سورة الأنعام التى روى عنها أنها

(١) البرهان للزركشى ص ١٩١ ج ١ تحقيق الأستاذ محمد أبو الفضل إبراهيم . .

نزلت كلها دفعة واحدة بتمامها . . فكثير من السور إذن أوكلها إلا القليل ولاسيما من القصار ، نزلت آياتها مفرقة حسب الأحداث والمناسبات ، وكان الرسول ﷺ يرشد أصحابه – بتعليم من الله – إلى مكان هذه الآية أو الآيات من سورة كذا ، فيقول مثلا : هذه الآية ضعوها قبل آية كذا أو بعدها من سورة كذا . .

لذلك ، لا يمكن القول بأن ترتيب الآيات المعروف الآن فى كل سورة إنما قام على أساس تاريخ نزولها . . . فى بعض السور المكية نجد أنهم يذكرون أن فيها آية كذا أوكذا مدنية وبالعكس . .

ومما ذكره الباحثون فى تاريخ النزول ، أن ما نزل بمكة ، أكثر مما نزل بالمدينة ، وتجاوزوا هذا إلى تحديد المكى بتسعة عشر جزءا من ثلاثين جزءا والباقى وهو أحد عشر جزءا نزل بالمدينة . .

* * *

طرق أخرى غير الرواية لمعرفة المكى والمدنى

من المعروف أو مما يجب أن يعرف أن القرآن الكريم ، وهو كلام رب العالمين ، إنما أراد الله به علاج نفسية البشر ، وإقناعهم بالمبادئ التى يجب أن يؤمنوا بها ويعملوا بمقتضاها ، وأن أول مراتب البلاغة هو مراعاة مقتضى حال المخاطب ، والمخاطبون أولا بالقرآن فى مكة كانوا غير المخاطبين به أولا فى المدينة ، والظروف هنا ، غير الظروف هناك . .

لذلك ، كان مما تقتضيه حكمة الله البالغة – وهو منزل الكتاب – أن يكون للآيات التى تخاطب المكيين المشركين وتنزل فى شأنهم غالبا طابع مغاير لطابع الآيات التى نزلت تخاطب المسلمين ، ومن حولهم ويعيش معهم من اليهود والمنافقين . .

ومن هنا كان المفتاح الذى دخل به العلماء لوضع ضوابط وشواهد يمكن ولو غالبا على أساسها – وبدون رواية – معرفة المكى والمدنى . .

فما هذه الضوابط أو الخصائص ؟

خصائص المكى :

من المعلوم أن المكى نزل فى النصف الأول تقريبا من عهد الرسالة ، والقوم كلهم مشركون مغالون فى عبادة الأصنام ، وفى التمسك بتقاليدهم وأوضاعهم التى بنوا عليها حياتهم ، والناس عبيد ما ألفوا . . ومن الصعب عليهم التغيير ، لاسيما الذين استفادوا من الوضع التقليدى السائر ، وقد نزل القرآن بمبادئ وأخلاقيات . . لا تقبلها الأوضاع السائدة ، ولابد لهذه العقول التى تحجرت على أوضاع وتقاليد موروثة ، كما لابد لهذه الطبائع التى ركنت للوضع القائم واستمتعت بالعيش فى ظله ، لابد لهذا وذاك من هزة عنيفة ، ومن جهاد

وجهد ، ومن صبر وطول أناة ، وحساب للزمن الذى لابد أن يمر قبل أن تتحرك هذه الجبال . .

ولهذا كله كان من الطبيعى أن يتجه القرآن أولا لوضع الحجر الأساسى لهيكله الكبير ، أونقول لوضع القواعد الأساسية والمبادئ المهمة لهذا الدين وهذه الرسالة ، لابد أن يتجه إلى العقيدة أولا كمركز انطلاق إلى غيرها . .

والعقيدة التى يدعو إليها الإسلام هى الإيمان بالله وعدم الإشراك به ، والإيمان بالرسل السابقين والكتب المنزلة عليهم والإيمان بأن هناك يوما آخر بعد الموت ، يبعث فيه الناس من قبورهم ليحاسبوا على أعمالهم ، والإيمان بالملائكة . . لذلك ، بدأ القرآن وبدأت دعوة الرسول بالدعوة للتوحيد ثم اقتضت هذه الدعوة أن يتحدث القرآن ، ويتحدث الرسول عن آلهة المكيين ووصفها بما هى أهل له ، وبالتالى تسفيه عقول الآدميين الذين يخضعون لها ، وهى من الحجارة أو من غيرها لا تعقل ولاتسمع ، ولا تستطيع حتى دفاعا عن نفسها . . . الخ . .

واقتضى هذا أيضاً أن يخوفهم الله ورسوله من العقاب ، ويعدهم بالثواب ، فى يوم يرجعون فيه إلى ربهم ويحاسبهم على أعمالهم . . فقامت المناقشات الحادة ، والساخرة أحيانا حول إحياء الناس ، بعد ما تفتتت أجسامهم وتبعثرت ذراتهم . . ونزلت الآيات الكثيرة التى تبرهن على وجود الخالق الواحد ، الذى لا شريك له ، وعلى ضرورة البعث وقدرة الله عليه . . وضرب الأمثال وتقديم الأدلة من مظاهر الكون أمامهم لمحاولة إقناعهم . .

وبجوار هذا ، اهتم القرآن بالدعوة إلى أمهات الفضائل والأخلاق العامة ، التى يحتاج إليها كل مجتمع ، مع الحملة على ما يخرج عنها من تصرفات . .

وكان هذا كله أمرا ضروريا فى بدء الدعوة ، لوضع الأسس العامة لها وترسيخها فى النفوس ، إذ لم يكن من المناسب لمقتضى حال المجتمع المكى ، أن يحدثه عن تفصيلات الأحكام التى يريدها الإسلام قبل دعوتهم لاعتناق الإسلام ، وتقديم البراهين الكافية لذلك . .

فحينما تقرأ فى القرآن مناقشة أو دعوة بالدليل حول توحيد الله وترك الإشراك به ، وهجوما على الأصنام وعابديها ، تدرك أن هذه الآيات مكية . .

فحينما تقرأ : « وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ . . . الآية »(١)

وحين تقرأ :

« أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٦٢﴾ »(٢)

وحين تقرأ : وَإِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَحْدَهُ ٱشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ وَإِذَا ذُكِرَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦٓ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٤٥﴾ »(٣)

وحين تسمع القارئ يتلو :

« أَجَعَلَ ٱلْءَالِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عُجَابٌ ﴿٥﴾ »(٤)

وحين تسمع القرآن يقول :

« وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِىَ خَلْقَهُۥ قَالَ مَن يُحْىِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِىَ رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾ »(٥)

وحين تسمع :

« وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِٱلْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٥٨﴾ »(٦)

حين تقرأ أو تسمع هذا وأمثاله ، يمكنك أن تقطع بأن هذه الآيات مكية ، لأن القوم بالمدينة كانوا مؤمنين ، ولا حاجة إلى من يناقشهم أو يدعوهم للتوحيد ، وللإيمان بالبعث . .

---

(١) سورة يونس . الآية : ١٨ .
(٢) سورة النمل . الآية : ٦٢ .
(٣) سورة الزمر . الآية : ٤٥ .
(٤) سورة ص . الآية : ٥ .
(٥) سورة يس . الآية : ٧٨ .
(٦) سورة النحل . الآية : ٥٨ .

ومن المعروف تاريخيا أن الرسول ﷺ وصحابته رضوان الله عليهم قد عانوا من المشركين كثيرا من ألوان الأذى والاضطهاد ، الذى كان يصب عليهم من العتاة المشركين الذين كانت لهم الغلبة والقوة فى مكة ، وكان الرسول ومن معه من المؤمنين القليلين وفيهم من الضعاف والعبيد العدد الكبير ، يمثلون فى نظر الكثرة المشركة أفرادًا ثائرين على أوضاع المجتمع ، ولابد من أخذهم بالشدة ، ماداموا لم يستجيبوا للكلمة اللينة .

ولهذا تفنن المشركون العتاة المالكون لزمام الأمر فى مكة ، تفننوا فى إيذاء المسلمين وتعذيبهم ، كما أخذوا ينالون من الرسول بالسخرية والاتهامات وأنواع من الإيذاء كذلك . . ولم يكن لدى الرسول والمؤمنين من القوة ما يدافعون به عن أنفسهم ، ويردون السيئة بمثلها . . فكان الصفح مع الصبر والثبات واحتساب ذلك كله عند الله هو السبيل الوحيد ، إذ لو اتبعوا طريق القوة لتعرضوا للفناء . .

ولكن الصبر والثبات يحتاجان لزاد قوى ، مع الوعد بالجنة ، والنفوس تجد غذاءها عادة من هذا الزاد فى القصص التى تعينها على التأسى والاقتداء والتصبر ، إن لم تجد مجالا للصبر الحقيقى .

ومن منا لا يجد الراحة النفسية – وهو يعانى من أزمة أو مصيبة – فى واقعة أو قصة تخفف عنه ما يعانيه ؟ . . من منا لا يتطلع أن يكون كبطل هذه القصة الذى كافح وصمد حتى أكرمه الله بصبره وثباته ؟ . .

لذلك ، كانت حالة الرسول وصحابته تستدعى أن يزودهم الله بأمثلة مشابهة لحالتهم من أناس سبقوهم ثبتوا على الحق ، وتلقوا فى سبيل ثباتهم الضربات حتى الموت فلم يضعفوا ، وجزاهم الله خيرا على ثباتهم ، بينما أهلك المعارضين لهم ، وهل نجد ثروة غنية فى هذه الناحية كما نجدها فى سيرة الرسل السابقين ومن آمنوا بهم ، وصبروا معهم ، وثبتوا أمام موجات التعذيب من الكفار برسولهم ، فأكرمهم الله وأخزى أعداءهم ؟ . .

ومن أجل هذا نزلت الآيات الكثيرة فى مكة تحكى قصص المرسلين السابقين

مع أقوامهم ، وقصص المؤمنين بهم والمكذبين لهم ، ومصير هؤلاء وهؤلاء ، ونزلت الآيات صريحة تقول للرسول :

« وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ ﴿٤﴾ »[1]

« وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ وَبِالزُّبُرِ وَبِالْكِتَابِ الْمُنِيرِ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ أَخَذْتُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿٢٦﴾ »[2]

وأمثال هذا كثير فى القرآن .

ثم يتجه بالأمر الصريح للرسول :

« فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُوا الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ »[3]

ويدعوه للاقتداء بإخوانه الرسل السابقين بعد ما قص عليه أخبارهم . .

سلاح ذو حدين

وهذه القصص الكثيرة التى كرر القرآن بعضها فى أسلوب يغاير بعض الشىء أسلوبها فى سورة أخرى ، إنما هى سلاح ذو حدين :

(ا) حد يستفيد منه الرسول والمؤمنون زادا من الصبر والثبات والتعلق بالله اقتداء بالرسل والمؤمنين بهم . .

---

(١) سورة فاطر ، الآية : ٤ (٢) سورة فاطر ، الآيتان : ٢٥ ، ٢٦ .

(٣) سورة الأحقاف . الآية : ٣٥ . وأولو العزم أصحاب الصبر والجلد على تبليغ الرسالة وتحمل الأذى وهل هم كل الرسل الذين أمروا بتبليغ رسالة نزلت عليهم باعتبار أن كلمة « من » للبيان لا للتبعيض ؟ قول . أو أنهم رسل أربعة تحملوا أكثر من غيرهم وهم . نوح ، وإبراهيم ، وموسى ، وعيسى . . وتكون « من » للتبعيض ؟ قول آخر .

(ب) وحد آخر يحمل التهديد والوعيد بالهلاك والخزى والهزيمة للمشركين الذين يصرون على موقفهم كما حدث لأمثالهم وقد جاء ذلك صراحة فى قول الله تعالى :

« وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَ ۚ وَجَآءَكَ فِى هَٰذِهِ ٱلْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٢٠﴾ »(١)

وفى الجانب الذى يخص المشركين جاء قوله تعالى :

« أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ دَمَّرَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ ۖ وَلِلْكَٰفِرِينَ أَمْثَٰلُهَا ﴿١٠﴾ »(٢)

وقوله « قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٦٩﴾ »(٣)

وقوله :

« أَوَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَكَانُوٓا۟ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً ۚ »(٤)

وكثير من الآيات مشابهة لهذه الآيات تلفت نظرهم إلى تأمل مصير المكذبين لرسلهم من الأمم السابقة ، وذلك بالسير فى الأرض ، ومعرفة عاقبة المكذبين مما يمكنهم معرفته على الطبيعة بالمرور على آثارهم التى لا تزال شاهدة على ما أصابهم ، مثل قرى قوم لوط التى جعل عاليها سافلها :

« إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ ﴿٧٥﴾ (أى المتفرسين الفاحصين) وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٍ مُّقِيمٍ ﴿٧٦﴾ »(٥)

---

(١) سورة هود ، الآية : ١٢٠ .
(٢) سورة محمد ، الآية : ١٠ .
(٣) سورة النمل ، الآية : ٦٩ .
(٤) سورة فاطر ، الآية : ٤٤ .
(٥) سورة الحجر ، الآيتان : ٧٥ ، ٧٦ .

أى على طريق تمرون عليه وتعرفونه ، كما قال فى سورة الصافات

« وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ ﴿١٣٧﴾ وَبِاللَّيْلِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٣٨﴾ »[1]

حيث يمرون عليها فى أسفارهم . .

وهكذا ، يسوق الله الكثير من قصص السابقين ويعرض ما قاساه الرسل والمؤمنون فى سبيل عقيدتهم وما بذلوه من صبر وتضحية ، ليتعظ بذلك ويعتبر به الرسول والمؤمنون ويتأسوا به . .

ويعرض ، ما تفنن فيه المشركون المعارضون لرسلهم من وسائل الإيذاء والإعنات والاتهامات وما أصابهم بسبب إصرارهم على موقفهم من العذاب الأليم : الخسف والتدمير وغير ذلك مما عرضته هذه القصص ، غير ما ينتظرهم فى الآخرة من العذاب الأليم ، ليرهب بذلك هؤلاء المعاندين ، ويكسر من حدة عنادهم ، فى الوقت الذى يسلّى فيه المؤمنين بما آل ويئول إليه حال معارضيهم المتكبرين عليهم . . ولذلك ، يقول الله تعالى :

« لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ »[2]

فى قصص المرسلين وأقوامهم عبرة وعظة لا يستفيد بها إلا أصحاب العقول والقلوب الكبيرة (أولو الألباب) . .

كل هذا علامة وسمة مميزة للآيات المكية . .

لكن هناك مع ذلك قصص قصيرة لأنبياء من بنى إسرائيل ومعارضيهم مثل طالوت وجالوت اقتضى عرضها حث المسلمين على القتال والصبر والثبات

---

(١) سورة الصافات ، الآيتان : ١٣٧ ، ١٣٨ . وذلك فى طريقهم للشام حيث يرون آثار قرى لوط ، وآثار مدين .

(٢) سورة يوسف ، الآية : ١١١ .

عليه . . لما فيها من عبرة عن الجبناء المتقاعسين عن القتال ، وعن المخلصين الشجعان ، وذلك لتحريض المؤمنين على الوقوف مع رسولهم فى مجابهة عدوهم . .

هذه القصص التى عرضت مثل هذا : مدنية لأن القتال شرع فى المدينة . لكن القصص الكثيرة الطويلة والقصيرة التى ساقها الله لهدف بيان عاقبة المؤمنين ، وعاقبة المكذبين ، إنما نزلت فى مكة . . وهى علامة مميزة للقرآن المكى . .

وقد عرفت أن القوم فى مكة أهل عناد وشراسة ، وطغيان واعتداد بقوتهم ، والرسول والمؤمنون لا يستطيعون رد هذا الطغيان وإيقافهم عند حدهم ، والموقف بينهما غير متكافئ ، أصحاب دعوة الحق لاقوة لهم تحميهم إلا اعتصامهم بالله ودفاعه سبحانه عنهم ، وأصحاب الباطل أصحاب قوة مطلقة لا يقف الرسول فى وجهها ، فكان الله سبحانه هو الذى يتولى الدفاع عنه بالكلمة الحاسمة ينزل بها القرآن يهز نفوس هؤلاء ، ويزجرهم ويتوعدهم بالأسلوب القوى الهادر الذى يناسب حالهم ، وبآيات كثيرا ما تكون قصيرة موجزة ، لكنها قارعة ، قاصمة ، شديدة فى كلماتها ووقعها . .

وهل يكون من المناسب مع عدد لدود معاند متكبر ، يرسل الكلام كما يرسل قوته على عواهنه دون تحفظ ، هل يكون من المناسب مع مثل هذا ، الحديث معه بأسلوب لين هادئ ، بعد أن ضاعت معه أساليب المنطق الهادئة ؟ . .

لا . . فكلما كان الموقف يحتاج إلى حسم وشدة وتخويف وتهديد وزجر ، كانت الفقرات القصيرة والكلمات المعبرة الشديدة الوقع أشد مناسبة . . لهذا الموقف . .

وهكذا كان القرآن وهو فى الذروة العليا من الفصاحة والبلاغة ومراعاة مقتضى الحال . . فإذا وجدت آيات أو سورا قصيرة ، وأسلوبا يزمجر ويهدر ويقسو ويشتد ، يرد هجوما على رسول الله ويهدد المعتدين ، فاعلم أن هذه آيات مكية . .

اتهم المشركون رسول الله بأن صار أبتر لا ولد له بعد أن توفى أبناؤه الذكور واتخذوا من ذلك وسيلة إغاظة للرسول فنزل : (إنا أعطيناكَ الكَوْثَر (وهو أسمى من الذرية) . فصل لربك وانْحَرْ . إن شَانِئكَ هو الأبْتَر) المقطوع من الخير ، والمهم للانسان أن يكون له رصيد من الخير لا من الأبناء . . فهؤلاء شتموا الرسول فتولى الله الرد عليهم بهذا الأسلوب الهادر القوى ، وشتم أبو لهب رسول الله ، عند ما جمع أقاربه ليدعوهم لتوحيد الله ، وقال له بعد أن سمع منه ، مستهتزئا مستنكرا : تبا لك (أى هلاكًا لك) ألهذا جمعتنا ؟ وانصرف من المجلس . . فلم يتركه الله يهنأ بما قال ، بل تابعه ورد عن رسوله هذا التهجم القبيح وأنزل على رسوله :

« تَبَّتْ يَدَآ أَبِى لَهَبٍ وَتَبَّ ﴿١﴾ مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُۥ وَمَا كَسَبَ ﴿٢﴾
سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ﴿٣﴾ وَٱمْرَأَتُهُۥ حَمَّالَةَ ٱلْحَطَبِ ﴿٤﴾
فِى جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ ﴿٥﴾ »[1]

وكان ذلك تسجيلا للعنة أبدية على أبى لهب وامرأته ، فى الوقت الذى كان إخبارا بغيب تحقق ، ولم ينعما بالإسلام كما أسلم غيرهما .

واقرأ « ذَرْنِى وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا ﴿١١﴾ وَجَعَلْتُ لَهُۥ مَالًا مَّمْدُودًا ﴿١٢﴾
وَبَنِينَ شُهُودًا ﴿١٣﴾ وَمَهَّدتُّ لَهُۥ تَمْهِيدًا ﴿١٤﴾ ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ ﴿١٥﴾ كَلَّآ
إِنَّهُۥ كَانَ لِـَٔايَـٰتِنَا عَنِيدًا ﴿١٦﴾ سَأُرْهِقُهُۥ صَعُودًا ﴿١٧﴾ إِنَّهُۥ فَكَّرَ وَقَدَّرَ ﴿١٨﴾
فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴿١٩﴾ ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴿٢٠﴾ ثُمَّ نَظَرَ ﴿٢١﴾ ثُمَّ عَبَسَ

---

(١) التب والتتبيب والتباب : الخسران والهلاك . (فازادوهم غير تتبيب) غير خسران وهلاك . . وقد شمل الوعيد امرأته أيضاً ، لأنها كانت تشارك زوجها فى إيذاء الرسول والتشنيع عليه وإيقاد نار الفتنة مما جعل القرآن يكنى عن ذلك بأنها حالة الحطب ، تتقن الكيد للرسول كما يتقن الحبل المفتول من الليف . . أو المراد ذكر حالة تعذيبها فى الآخرة بوضع الأغلال فى جيدها وهو عنقها . . أو أن الأمر على ظاهره إذ كانت تحمل الشوك وتضعه على باب الرسول وفى طريقه . فأنذرها الله بالعذاب فى الآخرة كما أنذر زوجها . .

وَبَسَرَ ﴿٢٢﴾ ثُمَّ أَدْبَرَ وَٱسْتَكْبَرَ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ ﴿٢٤﴾ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا قَوْلُ ٱلْبَشَرِ ﴿٢٥﴾ سَأُصْلِيهِ سَقَرَ ﴿٢٦﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا سَقَرُ ﴿٢٧﴾ لَا تُبْقِي وَلَا تَذَرُ ﴿٢٨﴾ لَوَّاحَةٌ لِّلْبَشَرِ ﴿٢٩﴾ »[1]

اقرأ هذه الآيات القصيرة بما فيها من تصوير ، وأسلوب مزمجر شديد ، اقتضاه موقف الوليد بن المغيرة من الرسول ومن القرآن وقد وهبه الله المال والبنين والعقل والزعامة فى قومه ، فاستعمل كل ذلك لتحطيم الدعوة المحمدية ، فكان لابد من مقابلة موقفه بهذه الشدة وهذا التصوير . .

واقرأ كلام الله عن المترفين الذين أعماهم ترفهم عن متابعة الرسول :

« وَذَرْنِي وَٱلْمُكَذِّبِينَ أُولِي ٱلنَّعْمَةِ وَمَهِّلْهُمْ قَلِيلًا ﴿١١﴾ إِنَّ لَدَيْنَآ أَنكَالًا وَجَحِيمًا ﴿١٢﴾ وَطَعَامًا ذَا غُصَّةٍ وَعَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٣﴾ يَوْمَ تَرْجُفُ ٱلْأَرْضُ وَٱلْجِبَالُ وَكَانَتِ ٱلْجِبَالُ كَثِيبًا مَّهِيلًا ﴿١٤﴾ »[2]

وياويل من يقول الله عنه : ذرنى وإياه . . ياويله . .

واقرأ « وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ ﴿١٠﴾ هَمَّازٍ مَّشَّآءٍۭ بِنَمِيمٍ ﴿١١﴾ مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ ﴿١٢﴾ عُتُلٍّۭ بَعْدَ ذَٰلِكَ زَنِيمٍ ﴿١٣﴾ أَن كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ ﴿١٤﴾ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا قَالَ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٥﴾ سَنَسِمُهُۥ عَلَى ٱلْخُرْطُومِ ﴿١٦﴾ »[3]

وهى فى شأن الوليد بن المغيرة أيضاً . وتأمل الألفاظ الشديدة التى دمغه الله فيها بهذه الأوصاف القبيحة المزرية بكل إنسان . . لماذا كل هذه الشدة ؟ لمقابلة

---

(١) سورة المدثر ، الآيات من : ١١ – ٢٩ .

(٢) سورة المزمل ، الآيات من : ١١ – ١٤ .

(٣) سورة ن ، الآيات من : ١٠ – ١٦ .

شدة المغيرة وقسوته وتفننه فى إيذاء الرسول والمؤمنين ، ومحاولته بقوته وزعامته وجبروته القضاء على الدعوة . . موقف مناسب لموقف . . وهذه هى البلاغة . . مراعاة مقتضى الحال . . تعلمناها من القرآن . . فما كان يجدى مع هذا مطلقا الكلام اللين ، والأسلوب الهادئ المنطقى . .

وهذا الذى عرضناه عليك إنما هو نموذج تجد مثله كثيرا فى القرآن الكريم فتعرف أنه مكى غالبا . السور القصيرة ، الآيات القصيرة فى السور الطويلة ذات الطابع القوى الشديد فى الأسلوب والكلمات ، ظاهرة من ظواهر القرآن المكى . .

* * *

ومع هذا كله . . توصل الدارسون للقرآن الكريم إلى ضوابط أخرى يمكنك بها معرفة المكى وهى ضوابط مختصرة ولا تحتاج إلاّ لنظرة خاطفة . .

١ – فحين تجد لفظ « كلا » فى سورة من سور القرآن فاعلم أنها مكية ؛ لأن « كلا » لفظ فيه شدة فى الرد ويناسب المعاندين المكيين ، ولذلك نجد لفظ « كلا » قد جاء فى القرآن ثلاثا وثلاثين مرة فى خمس عشرة سورة كلها فى النصف الأخير من القرآن الكريم ، وليس فى النصف الأول منها شىء ، وحكمة ذلك كما جاء فى كتاب « البرهان »[1] : « ان النصف الثانى نزل أكثره بمكة ، وأكثرها جبابرة فتكررت هذه الكلمة على وجه التهديد والتعنيف لهم والإنكار عليهم بخلاف النصف الأول ، وما نزل منه فى اليهود لم يحتج إلى إيرادها فيه لذلهم وضعفهم » . .

وعلى عادة العلماء السابقين – جزاهم الله خيرا – فى ضبط المعلومات بطريقة النظم كما فى ألفية ابن مالك فى النحو قال المرحوم عبد العزيز الدميرى المشهور بالديرينى[2] فى أرجوزته الطويلة فى علم التفسير :

وما نزلت كلا بيثرب فاعلمن ولم تأت فى القرآن فى نصفه الأعلى

(١) ص ٣٦٩ الجزء الأول تحقيق الأستاذ محمد أبو الفضل إبراهيم : والزركشى هو الإمام بدر الدين المتوفى ٧٩٤هـ .

(٢) المصدر السابق وهو من علماء مصر شافعى المذهب .

٢ – من الضوابط المختصرة أيضاً ، كل سورة تتعرض لقصة آدم وإبليس مكية إلا سورة البقرة . .

٣ – كل سورة مفتتحة بحروف الهجاء مثل : آلم ، آلر ، حم . ن . ق . ص . . . الخ . . مكية إلا سورة البقرة وآل عمران وقيل الرعد أيضًا . .

٤ – كل سورة فيها آية سجدة ، مثل « فَٱسْجُدُوا۟ لِلَّهِ وَٱعْبُدُوا۟ ﴿٦٢﴾ »[1] ومعنى أن فيها آية سجدة : أى آية ورد عن الرسول ﷺ أنه سجد عند قراءتها لا كل آية فيها كلمة السجود أو ما اشتق منها ماضيا أو مضارعا ، وقد أجمعت الأمة على أن السجود مشروع عند قراءة آيات مخصوصة من القرآن الكريم ، وعدوا هذه المواضع بأربعة عشر موضعا يقتضى الحال أن نذكرها هنا ليعرف القارئ منها السورة المكية :

١ – « إِنَّ ٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَيُسَبِّحُونَهُۥ وَلَهُۥ يَسْجُدُونَ ﴿٢٠٦﴾ »[2]

٢ – « وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ »[3]

٣ – « وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ »[4]

٤ – « يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا ﴿١٠٧﴾ »[5]

---

(١) سورة النجم ، الآية : ٦٢ .
(٢) سورة الأعراف ، الآية : ٢٠٦ .
(٣) سورة الرعد ، الآية : ١٥ .
(٤) سورة النحل ، الآية : ٤٩ .
(٥) سورة الإسراء ، الآية : ١٠٧ .

٥ - « أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَسْجُدُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ »[١]

٦ - « يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱرْكَعُوا۟ وَٱسْجُدُوا۟ وَٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمْ »[٢]

٧ - « وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱسْجُدُوا۟ لِلرَّحْمَٰنِ »[٣]

٨ - « أَلَّا يَسْجُدُوا۟ لِلَّهِ ٱلَّذِى يُخْرِجُ ٱلْخَبْءَ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ »[٤]

٩ - « إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا۟ بِهَا خَرُّوا۟ سُجَّدًا »[٥]

١٠ - « لَا تَسْجُدُوا۟ لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَٱسْجُدُوا۟ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَهُنَّ »[٦]

١١ - « فَٱسْجُدُوا۟ لِلَّهِ وَٱعْبُدُوا۟ ﴿٦٢﴾ »[٧]

١٢ - « وَإِذَا قُرِئَ عَلَيْهِمُ ٱلْقُرْءَانُ لَا يَسْجُدُونَ ﴿٢١﴾ »[٨]

١٣ - « وَظَنَّ دَاوُۥدُ أَنَّمَا فَتَنَّٰهُ فَٱسْتَغْفَرَ رَبَّهُۥ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ ﴿٢٤﴾ »[٩]

---

(١) سورة الحج . الآية : ١٨ (٢) سورة الحج . الآية : ٧٧ .

(٣) سورة الفرقان . الآية : ٦٠ (٤) سورة النمل . الآية : ٢٥ .

(٥) سورة السجدة . الآية : ١٥ . (٦) سورة فصلت . الآية : ٣٧ .

(٧) سورة النجم . الآية : ٦٢ . (٨) سورة الانشقاق . الآية : ٢١ .

(٩) سورة ص . الآية : ٢٤ .

١٤- « كَلَّا لَا تُطِعْهُ وَاسْجُدْ وَاقْتَرِب ﴿١٩﴾ »[1]

هذه هى المواضع التى شرع عند قراءتها أو سماعها السجود بشروط مذكورة فى كتب الفقه على خلاف يسير بين الأئمة فى اعتماد بعضها . . وهى التى تبين أن السورة التى ذكرت هذه الآية فيها مكية إلا إذا نص على أن فيها آيات مدنية . . لكن هنا موضع أحب أن أنبه إليه ، فقد اعتبر من آيات السجدة آيتان من سورة الحج ، وعند النظر فى المصحف عند أول السورة نجد أنه ذكر أنها مدنية . . فاقتضى الأمر أن أرجع لكتب التفسير ، فوجدت القرطبى فى تفسيره يبدأ الكلام عنها بأنها مكية . . ثم يذكر الخلاف فيها ثم ينتهى إلى القول بأن الأصح أنها سورة اختلط فيها المكى بالمدنى . . . الخ . . ففى أولها (يأيها الناس) ، وهذا غالبا طابع المكى ، وفيها المناقشة حول البعث والتدليل عليه ، وهذا طابع المكى ، وفيها آيتان للسجود وهذا طابع المكى ، وفيها الإذن بالقتال لأول مرة : (أُذِنَ للذين يُقَاتلون بأنهم ظُلِمُوا) وهذه مدنية قطعا ؛ لأن الإذن بالقتال للمؤمنين لم يشرع إلا فى المدينة بعد ما اشتد ساعد المسلمين ، ولذلك فإنى أرجح مارجحه القرطبى وآخذ به . .

على أنه لابد من الإشارة إلى أن الحكم بأن كل سورة مذكور فيها آية سجدة سورة مكية هو حكم عام يحتاج إلى إضافة قيد وهو : إلا إذا نص على أن فيها آيات مدنية . . كما جرى على ذلك الدارسون لعلوم القرآن والتفسير ، وذلك ليكون الحكم دقيقا . .

وربما سمعت أو قرأت بعض الأحكام العامة فى هذا الصدد مثل : كل سورة فيها آية (يأيها النَّاس . .) مكية . . وكل سورة فيها : (يأيها الذين آمنوا . .) مدنية أو خطاب لأهل المدينة . .

ولكنى أقول لك إن هذا حكم غالبى يحتاج إلى تقييد ، وتنقصه الدقة . . ففى القرآن آية مثل :

---

(١) سورة العلق ، الآية : ١٩ .

« يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱرْكَعُوا۟ وَٱسْجُدُوا۟ وَٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمْ وَٱفْعَلُوا۟ ٱلْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٧٧﴾ »

قيل إنها مكية ، أعنى لم يحصل إجماع عليها بأنها مدنية . .

وفى القرآن نداء يأيها الناس ، فى سور مقطوع بأنها مدنية مثل :

« يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٢١﴾ »[1] .

وتوجيهها أنها نداء عام للناس جميعا لكى يعبدوا الله ويوحدوه ؛ لأن الناس جميعا مكلفون بالتوحيد . . فالنداء للمخلوقين جميعا وهذا نداء يوجه فى مكة ويوجه فى المدينة . . ومثله أول سورة النساء :

« يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا »[2] .

ومثله أيضاً :

« يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ »[3]

وهى سورة مدنية . والخطاب أو النداء فى هذه الآيات للمخلوقين جميعا لا للمؤمنين وحدهم ؛ لأنه يدعوهم لعبادة الله وتوحيده

وقد قمت بعملية إحصاء للآيات المبدوءة بهذا النداء « يأيها الناس » فى القرآن

---

(١) سورة البقرة ، الآية : ٢١ .

(٢) الآية : ١ .

(٣) سورة الحجرات ، الآية ١٣ .

كله ، فوجدتها ثمانية عشر آية فيها ست ايات مدنية بلا خلاف[1] . وفى سورة الحج خمس آيات وهذه مختلطة بين المكى والمدنى وثمانى آيات مكية بلا خلاف . .

ومن هذا تعلم أن هذه القاعدة أو هذا الضابط الذى وضعه العلماء ، ضابط تنقصه الدقة ويحتاج إلى نظرة موضوعية فى الآية نفسها وفى السورة ، ولا يمكن الاعتماد عليه اعتمادا مطلقا . . فهناك آيات تلفت نظر الجنس البشرى كله لأشياء ذات صبغة عامة ، وليس من المناسب أن تخص المؤمنين بالنداء فيها بل ينادى الناس جميعا ، وذلك مثل قوله تعالى :

« يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ »

« يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ »

« يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ »

. . . الخ . . فهل كان يناسب أن يضع (يأيها الذين آمنوا) بدلا من (يأيها الناس) فكل آية بنداء لها موضوع خاص . . فإذا كان عاما لايخص المؤمنين وحدهم فالمناسب (يأيها الناس) . . وإذا كان للكفار مناسبا فالمناسب (يأيها الناس) وأحيانا يناديهم بوصفهم (قل يأيها الكافرون لا أعبد ما تعبدون . .) وإذا كان لأمر يتصل بالمؤمنين فالمناسب (يأيها الذين آمنوا) كأن يطالبهم بفرائض وآداب تقوم على أساس إيمانهم ، مثل : (يأيها الذين آمنوا لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبى) . .

---

(١) الآيات ٢١ ، ١٦٨ من البقرة ، والأولى من النساء ، ١٧٠ ، ١٧٤ من النساء و١٣ من الحجرات .

وإلى هنا نكون قد تكلمنا عن خصائص المكى من الآيات . . وننتقل بعد ذلك إلى :

خصائص ومميزات المدنى :

ولعلك بعد أن تعرف خصائص المكى يكون من السهل معرفة خصائص المدنى ، فأنت تستطيع بشىء من النظر فى خصائص المكى الذى قام على مراعاة أحوالهم ونفسياتهم أن تعرف أن القرآن المدنى قام على مراعاة أحوال ونفسيات المؤمنين فى المدينة ، فهو فى المدينة ينزل لقوم مؤمنين ملتزمين بالعقائد والمبادئ الاسلامية ، فلا داعى – إذن – للتحدث معهم لإقناعهم بهذه المبادئ ، فإذا كان هناك حديث عنها فللتثبيت ، وإنما ينزل القرآن على أساس أنه يخاطب جماعة المؤمنين فيبنى على ذلك مطالبتهم بما يقتضيه هذا الإيمان من عبادات وأخلاق يلتزم بها المجتمع المؤمن ، وما يلزمه من تشريعات وتنظيمات . .

وإذا كان المجتمع المكى فيه المسلمون والمشركون وكانت القوة فيه للمشركين فإن المجتمع فى المدينة كان للمؤمنين يخالطهم اليهود ، كما تخالطهم فئة اقتضى الوضع القوى للمؤمنين وجودها وهى فئة المنافقين الذين لم يتقبلوا الاسلام بإخلاص كما لم يستطيعوا الوقوف فى وجهه ، فآثروا السير مع الركب القوى ظاهرا ، ملتحفين الاسلام مستبطنين الكفر ، متربصين الدوائر بالمسلمين . . ولم تكن من طبيعة الأمور فى مكة وجود هذه الفئة إذ لم يكن الإسلام قويا ليسير بعض ذوى الأغراض فى ركبه . .

أما اليهود فى المدينة فقد عقد الرسول معهم عهدًا للتعايش السلمى فى المدينة ، وقد هادنوا الرسول والمسلمين وفى ظنهم أنه لن يكون له شأن ، وأن المكيين لن يتركوه ، وبالتالى لن تكون له سطوة يخشونها فى المدينة فليتركوه إلى أعدائه ، ويستريحوا من منازلته . .

لكنهم حين رأوا أمره يقوى ، وسلطانه يشتد ، بدأ حقدهم يظهر ، فى شكل مؤامرات يدبرونها ، وإشاعات يطلقونها ، وتشكيكات يرددونها ، وفتن بين

المؤمنين من الاوس والخزرج يحيكونها ، وأسئلة للرسول يقصدون تعجيزه بها ، وإظهاره بمظهر الضعيف المدعى للنبوة . . وأخيرا إلى عداء سافر ، وانضمام لأعداء الرسول فى مكة وتكتيل الأعداء عليه . .

فكان من الضرورى أن يتصدى القرآن لهذا كله ، ويتحدث عنه ، ويستعرض نفسيات هؤلاء وشيئا من تاريخ أجدادهم مع أنبيائهم ، وكيف طبعوا على التمرد ، برغم إكرام الله لهم . .

ولهذا ، تجد القسم المدنى من القرآن يختص بالحديث عن هؤلاء اليهود : ماضيهم وحاضرهم . . ويتحدث عن أسلافهم الماضين فى شخص الحاضرين باعتبار أن طبائعهم من التمرد والحقد . . موروثة . .

فهم

« ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ عَهِدَ إِلَيْنَآ أَلَّا نُؤْمِنَ لِرَسُولٍ حَتَّىٰ يَأْتِيَنَا بِقُرْبَانٍ تَأْكُلُهُ ٱلنَّارُ قُلْ قَدْ جَآءَكُمْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِى (أى جاء أسلافكم) بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَبِٱلَّذِى قُلْتُمْ فَلِمَ قَتَلْتُمُوهُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٨٣﴾ »

والحاضرون لم يقتلوا وإنما الذى قتل هم الأسلاف الذين يعتز بهم الحاضرون ولذلك كان الخطاب لهم . .

وهم الذين قال رؤساؤهم لشعبهم وعامتهم : (لاتُؤمِنُوا إلاَّ لِمن تَبِعَ دينكم) احتكارًا للنبوة والرسالة فى جنسهم ، فقال الله لرسوله ليرد عليهم : (قل إنَّ الهُدَى هُدَى اللهَ) . .

ولو قرأت الجزء الأول من سورة البقرة لوجدت أن أكثره على اليهود ثم يأتى الحديث عنهم بعد ذلك فى مناسبات ؛ إما للرد عليهم ، وإما لفضح مؤامراتهم ، وإما لتقرير أحوالهم وما نزل بهم ، وكل ذلك فى القسم المدنى ، وهذا بالطبع غير

قصة موسى من حيث نشأته وموقفه مع فرعون ، ومع قومه وخروجه من مصر . . . الخ .

فتلك قصة سيقت لتثبيت الرسول وتخويف مخالفيه كماسبق أن قررنا فى خصائص المكى . .

وفى المدينة تكون المجتمع المسلم ، وهذا المجتمع فى حاجة إلى تنظيم أموره ، والاستقرار قد تم فى المدينة وفرائض الإسلام كلها وآدابه لم تتم نزولا ، لعدم ملاءمة الجو المكى لها ، لكن الجو أصبح ملائما ، فلتنزل – إذن – التشريعات الإسلامية فى العبادات من الصوم والزكاة والحج ، ولتنزل الآداب العامة التى يجب أن يتحلى بها المجتمع المسلم ، ولتنزل التنظيمات للفرد وللأسرة وللمجتمع ، فالمسلمون فى حاجة إلى هذا كله ، ولكن بالتدريج . .

وهم قد قوى شأنهم وأصبحوا على قدر من القوة يدافعون بها عن أنفسهم ، ويردون كيد أعدائهم ، فلتنزل الآيات تأذن لهم بالقتال ، بل وتحضهم عليه وتبين لهم آدابه ، وكيف يعاملون العدو ، والمحايد ، وكيف يعقدون المعاهدات معه . . . الخ . .

وفى المدينة ظهرت فئة جديدة هى فئة المنافقين – كما أسلفنا – وهؤلاء اشد ضررا على الإسلام من الأعداء السافرين ، وكم حاولوا من إثارة للفتن ، وإحداث التخريب ، متسترين بستار الإسلام ، مظهرين الحب له ، والإشفاق على المسلمين . . وهم فى ظاهرهم ليسوا مجالا للشك والريب . . فلابد أن يحرس الله رسوله من كيدهم ، ويكشف حالهم ، وينزل القرآن يتحدث عن هذه الفئة « الطابور الخامس » ليحمى الرسول والمؤمنين من شرهم . .

وهكذا ترى أن الحال فى المدينة غير الحال فى مكة ، وأن القرآن وهو القمة فى البلاغة راعى مقتضى هذه الحال ، فما نزل هنا أو نزل هناك ، وإن كانت هذه الميزة البلاغية قد قلبها أعداء الإسلام إلى مطعن للقرآن حيث أخذوا – جهلا

وحقدا – من تغاير الأسلوب المكى عن المدنى فى الخطاب دليلا لهم على أن القرآن من صنع محمد وأنه استفاده من المكيين ومن اليهود فى المدينة . . . الخ . وهكذا طبع الحاقد « يولد من الشربات فسيح » .

ويمكن بعد هذا تلخيص هذه الخصائص والمميزات فيما يأتى :

١ – الحديث عن اليهود ومؤامراتهم وعن النصارى ومحاوراتهم حين جاءوا للرسول ﷺ . .

٢ – الحديث عن المنافقين وشرورهم وكشف دخائلهم . .

٣ – الحديث عن التشريعات التفصيلية من العبادات أو المعاملات وعن الآداب الاجتماعية فى المعاملة ودخول البيوت . . . الخ . .

٤ – الحديث عن القتال وما يتبعه من بذل أموال ونفوس ومن معاهدات وغنائم . . . الخ . .

ولا يعنى ذلك أن القرآن كف فى القسم المدنى عن الحديث عن التوحيد أو البعث ، ولكن الذى يمكن أن يقال إن ذلك لم يعد البند الأول فى دعوة القرآن ؛ لأنه يخاطب أقواما سلموا به ، وهم أحوج إلى ما يبنى عليه من تشريع وآداب . .

وبعد ، فهذه المميزات أو الخصائص للقسم المكى أو للقسم المدنى إنما هى خصائص غالبية ، ولا يعنى حينما نقول : إن القسم المكى تميز بالشدة أنه يخلو من الخطاب الهادئ ، أو أن القسم المدنى تميز باللين والهدوء ، أنه يخلو من آيات فيها شدة وتهديد . . وإنما تعنى هذه الخصائص أنها فى القسم المكى أوسع وأعم منها فى المدنى وبالعكس . . فهى علامات إرشادية وقتية حتى تنعم النظر ، وتقف على الحقيقة ، توافقها نظرتك الأولى ، أو لا توافقها ، لسبب من الأسباب الخاصة التى يمكن كشفها والوقوف عليها . .

وهذا ، يبدو مثلا فى ضابط الشدة والآيات أو السور القصيرة ، لكنى أعتقد أن الحديث عن المنافقين والحديث عن القتال ، ومناقشة اليهود ، والحديث عن التشريعات التفصيلية من عبادات غير الصلاة ومن معاملات وآداب عامة للمؤمنين ، أعتقد أن ذلك كله من المقطوع به أنه مدنى ؛ لأنه خاص بالمجتمع المدنى . .

* * *

شُبَه واهية

هذه الخصائص التى عرفتها والتى تعتبر ضرورية ، ومن متطلبات البلاغة – والقرآن فى قمتها – حتى بالنسبة للرجل العادى حين يتحدث ، فيلتزم بمراعاة حال المجتمع الذى يخاطبه ؛ لأن لكل مقام مقالا ، ولكل حديث مجالا ، أقول هذه الخصائص تناولها المغرضون من الناحية التى تشفى أغراضهم ، واتخذوا منها مطعنا على القرآن ، فهم يقولون : إن هذا التغاير فى الخصائص نتيجة لتأثر محمد بالبيئة ، وغرضهم من هذا أن يؤيدوا دعواهم بأن القرآن من كلام محمد لا من كلام الله . .

وما كان لنا هنا أن نستعرض مثل هذه الشبهة الساقطة من أول نظرة ، لولا أننا ابتلينا ببعض الناعقين الذين يحلو لهم أن يرددوا ما يقوله بعض المستشرقين أو الشانئين عموما على القرآن كالببغاوات ، لعقد فى نفوسهم ، أو تفاهة فى عقولهم .

إننا لا نفهم كيف يتخذ هؤلاء من مراعاة القرآن لمقتضى حال المتكلمين وسيلة للنيل منه ، مع أن من أوليات آداب الخطاب ، مراعاة حال المخاطبين ، يفهم ذلك الرجل العامى بسليقته كما يفهمه الرجل البليغ المثقف . وإذا كان ذلك من أوليات آداب الخطاب بالنسبة للبشر ، أفلا يكون من باب أولى من ضروريات كلام الله ، وهو الذروة والقمة فى البلاغة ؟ عجيب أمر هؤلاء :

هل كانوا يريدون أن يسير القرآن على نمط واحد فى الخطاب والأسلوب ، فيخاطب الكافر المنكر المهاجم لله والمؤمنين بالأسلوب نفسه الذى يخاطب به المؤمنين الهادئين الوادعين ؟ . .

هل كانوا يريدون أن ينزل القرآن فى مكة يتحدث عن اليهود ودسائسهم ويناقشهم ويذكر أقوالا لهم كما حدث فى المدينة وليس فى مكة مجتمع يهودى ؟ .

هل كانوا يريدون أن يتحدث القرآن عن فئة المنافقين وشرورهم ومؤامراتهم وأقوالهم كما تحدث فى المدينة ، ولم يكن لهم وجود فى مكة ؟ . .

هل كانوا يريدون أن يتحدث القرآن عن تفصيلات الأحكام والآداب والقتال والحث عليه . . . الخ . . فى مكة كما تحدث فى المدينة والمقام فى مكة لم يكن يحتمل ذلك ولا يناسبه ؟ . .

لو أن القرآن سار على ما يريدون ، لوجدوا المطعن الحقيقى فيه ، وقالوا : إنه لم يراع مقتضى الحال ، وإنه يتحدث عن جماعات غير موجودة ، ويتخيل أعداء لا وجود لهم ، ويفترض كلاما ، لم يتكلم به أحد . .

لو أنه فى مكة تحدث عن أسرى الحرب وعن القتال وعن تقسيم الغنائم ، لقالوا إنه يتحدث عن فراغ . أين الأسرى وأين الغنائم ؟ .

ولو أنه تحدث عن المنافقين وأفعالهم وهو فى مكة لقالوا أين هؤلاء الذين يتحدث عنهم ؟ لا يوجد واحد فى مكة حدث منه ما يحكيه . .

هل كان فى المدينة أبو لهب أو وليد آخر ، حتى يتحدث عنهما كما تحدث فى مكة ؟

لقد كان فى المدينة بدلا منهما عبد الله بن أبى رأس المنافقين وقائد خبثهم ومكرهم فأنزل الله فيها ما يناسب موقفه وتصرفاته هو ومشايعيه فى سور متعددة . ثم أفردت باسمهم سورة سميت « المنافقون » وفيها حكى الله موقفا مخزيا لعبد الله هذا ، حاول إنكاره والتبرؤ منه لما واجهه الرسول به ، فنزل القرآن يفضح موقفه ويدمغه بالخزى :

« يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعْنَآ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ ٱلْأَعَزُّ مِنْهَا ٱلْأَذَلَّ . . . الآية »

ولم يشأ الله أن يذكر اسمه أو يذكره بضمير مفرد كأن « يقول . . » بدلا من « يقولون » ؛ لأن الحادثة كانت معروفة وحدث عنها تحقيق وجدال وكان هو

الذى نسب إليه القول فأنكره . . وكذب الذى نقله للرسول ، فنزل القرآن يكذبه هو ويفضحه بهذه الصيغة المؤدبة المهذبة « يقولون . . » وكان له أتباع سايروه فى قوله . .

فهل يطلب من القرآن أن يكون على وتيرة واحدة ونسق واحد فى الخطاب ، مهما يكن المخاطب أويكن جوه ؟ .

وهل يمكنهم أن يفعلوا هم ما يطلبونه من القرآن ، أويفعل أى إنسان ذلك ؟ إنه لو فعل لرمى بالحمق ، فكيف إذن يعيبون على القرآن تنوع الخطاب فيه بما يناسب الحال فى المخاطبين ، وهم يجعلونه أساسا لكلام البشر ؟ .

وهل يقبل منهم إذا راعى القرآن حال المخاطبين أن يقفزوا للقول بأن محمدا هو قائل القرآن ؛ لأنه تأثر بالبيئة ، وكان كلامه فى المدينة غيره فى مكة . . . الخ ؟

حقا : إن أمرهم لعجيب وهم يريدون أن يطعنوا . . والسلام . . ومن جعل همه الطعن فحسب فإنه سيحيل الحلو إلى مر ، « ويعمل من الشربات الفسيخ » . .

ومن يك ذا فم مر مريض يجد مرا به الماء الزلالا . .

وهو دائما حلقه مر ، ونفسه مريضة ، يقتل نفسه بحقده ، وينفث سمومه ، والعاقل الحريص هو من يتفاداها ، ويتقى شرورها ، حتى يموت هو بمرضه ، ومن قبل قال الله لرسوله عن قوم معاندين : (ولن ترضى عنك اليهود ولا النصارى حتى تتبع ملتهم) حتى يوطن الرسول نفسه ومعه المؤمنون على أن يسيروا فى طريقهم الحق ، ولا يلتفتوا لهؤلاء الحاقدين الذين لا يعجبهم العجب ، ولا يرضيهم إلا أن تسير فى ركابهم ، ونحن – أتباع رسول الله – فى غنى عن رضا هؤلاء الطاعنين . .

« قُلِ ٱللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِى خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ ﴿٩١﴾ »

* * *

فائدة معرفة المكى والمدنى

لعلك لمست معى الجهد الذى بذله العلماء السابقون فى تقصى الحقائق عن المكى والمدنى ، ووضع الضوابط لكل منهما ، فلأى شيء كان هذا كله ؟ وما الأثر الذى يترتب على معرفة المدنى والمكى حتى يبذلوا هذا الجهد فيه ؟ . .

لقد كانت هذه العناية من المسلمين دليلا جديدا على شدة اهتمامهم بالقرآن وكل ما يتصل به ، وقد روى لنا أن بعض الصحابة كتبوا القرآن لهم خاصة بترتيب النزول[1] ، ولو أن هذا وصل إلينا لأفادنا كثيرا فى معرفة المكى والمدنى وفى التشريع ومعرفة الناسخ والمنسوخ . . ولكن وجوب الوقوف عند ترتيب النبى ﷺ للقرآن حسب ترتيب الله وإرشاده هو الذى جعل الصحابة والتابعين لا يتجهون إلى هذا المكتوب على ترتيب النزول فأهملوا أمره وانتهى ، وحسنا فعلوا . . والحمد لله على كل حال فقد حافظنا على المصحف المرتب ترتيبا إلهيا ، وأمكن مع ذلك معرفة المكى والمدنى والسابق واللاحق فلم نخسر شيئا . .

وقد أراد أحد العلماء فى السنين الأخيرة أن يقوم بطبع القرآن حسب ترتيب نزوله فى « بيروت » ولكن سماحة الشيخ نديم الجسر مفتى طرابلس – لبنان وعضو مجمع البحوث الإسلامية نبه لذلك ، وحملت مجلة الوعى الإسلامى[2] تحذيره إلى العالم الإسلامى كله من أن هذا سيأخذ شكل مصحف جديد يؤدى إلى بلبلة الأفكار ، وقد علقت على ذلك فى المجلة بكلمة جعلت ختامها : « وإذا كان صاحب المشروع يريد الفائدة دون إثارة فتن فليخرجه فى شكل بحث كما فعل العلماء السابقون » وقامت ضجة عقب ذلك فى العالم الإسلامى كما قام سماحة

(١) نقل ذلك السيوطى فى كتابه « الإتقان » عند كلامه على ترتيب السور ونسب ذلك إلى مصحف لعلى رضى الله عنه .

(٢) فى العدد ٤٠ الصادر فى ربيع الثانى ١٣٨٨هـ – يونيو (حزيران) ١٩٦٨م حين كنت رئيسا لتحريرها .

مفتى لبنان الشيخ حسن خالد بسعيه المشكور فى هذا ، فأعلنت الحكومة اللبنانية أنه لن يتم طبع شىء مثل هذا إلا إذا وافقتِ عليه دار الإفتاء ، وكفى الله المؤمنين القتال . .

وكان صاحب هذا المشروع أحد علماء الشيعة ، وكانت المعارضة فى طبعه قائمة على الخوف من أن يتخذ الكتاب الجديد شكل مصحف يتداوله الناس بجوار المصحف العثمانى ، ولعل صاحب المشروع أراد أن يحيى به ماروى من أن عليا رضى الله عنه كتب مصحفا خاصا به على ترتيب النزول ، وانتهى أمره بعد كتابة المصاحف العثمانية . .

ولاشك أن معرفة المكى والمدنى والسابق واللاحق تفيدنا كثيرا فى معرفة الناسخ والمنسوخ أو المطلق والمقيد الذى نزل بعد المطلق يقيده ، ويفيدنا كذلك فى معرفة ترتيب الحوادث ترتيبا تاريخيا ، كما يعطينا درسا نتعلم منه كيف كان التدرج فى الإسلام وتشريعاته التفصيلية . . كيف تقوم المجتمعات أولا على الأسس المهمة التى لابد منها ، فكل داع إلى إصلاح لابد أن يعنى أولا بالأصول والأسس المهمة التى لابد منها ، حتى إذا تمكنت فى النفوس أمكنه أن ينتقل منها إلى عهد استقرار وتفصيل وبناء على الأسس الأولى .

ولا يمكن لدعوة إصلاحية أن تعمل كل ما تريد دفعة واحدة ، فذلك أدعى لأن تتعثر وينفر الناس منها ، كما قال عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه لابنه : « يا بنى إننى أخشى أن أحملهم على الحق جملة فيدفعوه جملة » . .

ومن هذا الذى عرفناه عن طريق الوقوف على المكى والمدنى ، وما عنى به المكى أولا ، أصبح لدينا طريق نقتدى به فى كل دعوة إصلاحية تحتاج لتغيير كبير فى أوضاع المجتمع ، وهو التدرج من الأهم فالمهم من القواعد والمبادئ والأسس ثم التفاصيل والأحكام القائمة على هذه القواعد . . حتى فى أيامنا هذه وفيما يتصل بتكوين المجتمع الإسلامى الصحيح يلزمنا أن نستنير بالخطة الإلهية والنبوية فى أخذ المجتمع بالتدرج فيما يتعذر تنفيذه عاجلا ، مع العناية بالأسس

والتربية ووضع الخطط ثم الانتقال بعد ذلك إلى المناسب شيئا فشيئا . . وذلك خوفا من أن نحمل الناس على الحق جملة فيدفعوه جملة ولا نجنى شيئا . .

ومعرفة المكى والمدنى وما نزل فيهما من توجيهات وتعليمات هو الذى يعلمنا هذه الحكمة فى تكوين المجتمعات وتربيتها . .

* * *

لماذا نزل القرآن مفرقًا ... ولم ينزل جملة واحدة ؟

هذا السؤال أو التساؤل قديم سأله المعارضون للرسول من باب المعارضة له فى شىء ما ، ولو نزل جملة لقالوا لم لم ينزل مفرقا ؟ ولكن سؤالهم أو اعتراضهم هذا أفادنا كثيرا فى معرفة الحكمة من الله سبحانه منزل الكتاب حيث ذكر اعتراضهم ورد عليه : (وقالوا لولا نزّلَ عليه القرآن جملةً واحدةً) ؟ كما نزلت الكتب السابقة : التوراة والإنجيل حسب ما بلغهم . فرد الله عليهم فى الآية نفسها (كذلك . . « أى أنزلناه مفرقا » لِنثبّتَ به فُؤَادَكَ ورتّلناهُ ترتيلا)[1] .

يقول العلامة الزمخشرى فى الكشاف : « ومعنى ترتيله أن قدره آية بعد آية ووقفة عقيب وقفة » . . ثم يقول : « وأصل الترتيل فى الأسنان وهو تفليجها » أى عدم التصاقها ووجود اتساع بينها كما هو معروف فيؤول المعنى إلى التفريق أيضاً ونزوله على أقساط وفى أوقات متعددة . .

ثم تأتى الآية الأخرى فتسوق لنا حكمة غير الأولى :

« وَقُرْءَانًا فَرَقْنَٰهُ لِتَقْرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَٰهُ تَنزِيلًا ﴿١٠٦﴾ »[2]

ومعنى فرقناه : جعلنا نزوله مفرقا منجما وفى قراءة : فرّقناه بتشديد الراء .

ما ألذ الرشفة بعد الرشفة يأخذها الظامئ من كوب عصير بارد ليستديم لذة هذا العصير فى فمه مدة ! . .

وما أطيب الأمن والراحة النفسية للإنسان . يتعهده حاميه وراعيه الفينة بعد الفينة ، ويزوره المرة بعد المرة ، ويزوده كلما زاره بطاقة تقويه ، وتشد أزره وتحميه ! . .

---

(١) سورة الفرقان ، الآية : ٣٢ . (٢) سورة الإسراء ، الآية : ١٠٦ .

وما أحسن فائدة الدواء ، يصح به الجسم ويقوى ، حين يأخذه على دفعات حسب ما يأمر الطب ، ويتحمل الجسم ! . .

هذا شيء نحسه من واقع الحياة التى نعيشها والطبيعة التى تحكمنا ، والقرآن هدى وشفاء ، تشريع وتكليف ، نزل على الرسول ليقود على هديه البشر ، ويداوى به أمراضهم الاجتماعية ، ويمدهم بطاقة مادية وروحية ، وهو ليس بالقصير الذى يمكن قراءته فى جلسة ، أو حفظه فى يوم[1] ، ولهذا كان من حكمة الله أن ينزل على الرسول مفرقا ، حتى يتمكن ﷺ وهو وصحابته من حفظه ؛ لأن الرسول وإن كان قد حرص على أن يأمر بكتابته ، إلا أن العرب تغلب عليهم الأمية غلبة كبيرة ، صدورهم هى كتبهم أو كما قيل : « أناجيلهم صدورهم » فهم يعتمدون على الحفظ ، ولذلك ، برعوا فيه ، حفظوا أشعارهم ، وأنسابهم ، وأيامهم المهمة فى تاريخهم ، ولابد أن يكون القرآن أمره كذلك ، يعتمد فيه على الحفظ ، حتى وإن كتب على حجارة ملساء أو عظام مفرطحة ، أو غير ذلك مما يستطيعون الكتابة عليه ؛ لأن الورق لم يكن متوفرا لديهم بالصورة التى نراها عندنا ، أو بالصورة التى تمكنهم من كتابة القرآن كله عليه . . فالحفظ هو الأساس . . وإلا فكيف يمكن تداوله بينهم مكتوبا على هذه الأشياء ؟ لئن أمكن حمل آية أو آيتين كيف يمكن حمل سورة أو سور مكتوبة على العظام وعلى جريد النخل وعلى الحجارة ؟

وهذا على فرض نزوله مفرقا واعتمادهم على الكتابة . فما بالك إذا نزل دفعة واحدة والاعتماد على الكتابة ؟ إذن لم يكن مفر من الاعتماد على الحفظ ، ومن فضل الله أن العرب قد برعوا فيه تماما .

فكيف إذن يمكنهم حفظه لو نزل دفعة واحدة ؟ هذا أمر عسير ، ومن المتعذر على الإنسان أن يجد له حلا . . والله قد أخذ عباده بالتيسير عليهم : (لا يكلفُ

---

(١) وما أحسن تعليق الزمخشرى فى الكشاف على طلبهم : (لولا نزل عليه القرآن جملة واحدة) : كأنهم قدروا على تفاريقه حتى يقدروا عليه جملة ! ! ويشبه هذا الكلام المثل الشعبى عندنا : « واحد حمل معزة عجز قال أصلى أنا واخد على حمل الجمال » ! !

اللهُ نَفساً إلا وُسْعَها) فلم يكن مفر من نزول القرآن مفرقا : (وقرآنًا فرقناه لتقرأه على النَّاسِ عَلى مُكْثٍ) أى على مهل وتؤدة ، (ونزلناه تنزيلا) متتاليا لذلك . فإذا حفظوا اليوم ما نزل ثم حينما ينزل شيء يحفظونه ويضمونه إلى ما حفظوه من قبل كان الحفظ سهلا عليهم كما نفعل نحن اليوم ويفعل كل الناس والطبيعة واحدة والقدرة فى جملتها واحدة . .

وكان فى نزول جبريل بالوحي أى القرآن المرة بعد المرة ، إيناس للرسول ، وشرح لصدره ، وإشعار له بأنه محروس من الله ، وتحت عنايته ، والصلة مستمرة والرعاية دائمة ، وفى هذا تثبيت كبير للرسول وتشجيع له على تبليغ رسالته ، وتحمل الأذى فى سبيلها . . (كذلكَ لنثبّتَ به فؤادَكَ) .

وقد حدث فى أول نزول جبريل عليه بالوحى أن خاف وارتعد ؛ لأنه لم يكن يعرف الحقيقة فلما عرفها وأبطأ عليه جبريل وغاب مدة ، اشتاق لاستقباله ، حتى كان يخرج للخلاء ، لعله ينزل عليه ، حتى انتهز الثرثارون من أعدائه هذه الفرصة فعيروه بأن ربه قد تركه وأهمله ، فأنزل الله ردا عليهم يخاطب الرسول ويقسم له :

« وَٱلضُّحَىٰ ﴿١﴾ وَٱلَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ ﴿٢﴾ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ﴿٣﴾
وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ ٱلْأُولَىٰ ﴿٤﴾ وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰ ﴿٥﴾ »

واستقرت نفس الرسول واطمأنت بعد هذا . . وهو يترقب نزول جبريل عليه كما يريد مولاه وحارسه . .

ولذلك ، كان كلما عرضت له مشكلة لا يدرى حلها ، توقف حتى ينزل جبريل من عند الله بالحل ، وكلما حاول بعض الناس من حوله طمس حق ، أو الهروب منه ، نزل القرآن يبين معالم الحق فى القضية المعروضة . . والأمثلة على ذلك كثيرة تكتفى منها بعرض هذه الأمثلة :

(ا) ذهبت امرأة للرسول واسمها خولة بنت ثعلبة تشكو إليه زوجها الذى ظاهر منها ، وكان ذلك يعنى طلاقها وانفصالها عن زوجها حسب ما كان عليه

الوضع القائم فى الجاهلية ، وشكت له حالها وحال أولادها ، فهى امرأة عجوز تساقطت أسنانها ولها أولاد صغار إن تركتهم إليه ضاعوا ، وإن ضمتهم إليها جاعوا ، والرسول يقول لها ليس لدى فى القرآن جديد ، وهى تراجع الرسول المرة بعد المرة ، والرسول متوقف عن الفتوى فى موضوعها إلا بما تعارف عليه الناس ، وهى لا ترضى ولا تقتنع بهذا العرف الذى يرهقها ويرهق أولادها ، وما كان للرسول أن يحكم بأمر جديد من عنده ؛ لأن حكمه تشريع ، وجبريل لم ينزل عليه بتشريع فى هذه الناحية . .

وهنا ينزل الله القرآن يفصل فى هذه القضية فصلا عدلا :

« قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِى تُجَٰدِلُكَ فِى زَوْجِهَا وَتَشْتَكِىٓ إِلَى ٱللَّهِ ... الآيات »[1]

وأصبح هذا تشريعا إسلاميا عاما . .

كيف كانت تحلّ هذه القضية الطارئة لو أن القرآن نزل كله دفعة واحدة من قبل ذلك ببضع عشرة سنة ؟ !

(ب) ثارت أقاويل حول السيدة عائشة رضى الله عنها ، وهى أم المؤمنين ، وقامت فى وجهها اتهامات ، هى بريئة منها ، ولكن هذه الأقاويل والاتهامات أخذت حظها من الرواج ، ومن نفس الرسول كذلك ، واستحكمت الأزمة ، والسيدة الطاهرة فى هم مقيم مقعد ، والرسول لا يقل عنها هما ، وكذلك أبوها وأسرتها . وهنا كان المجال الوحيد لبيان الحقيقة ، إنما هو للوحى ينزل بما يعلمه الله فنزل جبريل به

« إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ
لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۚ لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُم مَّا ٱكْتَسَبَ
مِنَ ٱلْإِثْمِ ۚ وَٱلَّذِى تَوَلَّىٰ كِبْرَهُۥ مِنْهُمْ لَهُۥ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١١﴾ »[2]

---

(١) سورة المجادلة ، الآية : ١ .

(٢) سورة النور ، الآية : ١١ وما بعدها إلى آخر الربع .

وظهرت براءة السيدة الطاهرة مما نسب إليها وباء الذين اختلقوا هذا بالاثم . .

فهل كان من الممكن أن يظهر وجه الحقيقة فى هذه الحادثة ، لو أن القرآن كان قد نزل قبل ذلك دفعة واحدة ؟

(جـ) وعند ما حدثت سرقة قام بها أحد ضعفاف النفوس من المسلمين ، وتجمع أفراد قبيلته ليساندوه ويسندوا التهمة إلى يهودى ويبرئوه ، وشهدوا أمام الرسول بهذا ، وأحسن الرسول الظن بهم ، وكاد يحكم على اليهودى ، ولكن الله الغيور على الحق أدرك رسوله ببيان الحقيقة ، وبتبرئة هذا اليهودى حتى لا يقع ظلم عليه ولو كان يهوديا ، فلا بد أن ينصف ، وتلك هى شريعة الحق . . فنزل :

« إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ بِٱلْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُ ۚ وَلَا تَكُن لِّلْخَآئِنِينَ خَصِيمًا ﴿١٠٥﴾ وَٱسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ... الآيات »[1]

فهل كان من الممكن الحكم فى هذه المشكلة ببيان وجه الحق فيها للرسول لو أن القرآن كله كان قد نزل قبل ذلك ؟ اللهم لا . . وهكذا تتجلى حكمة الله لنا من هذه الحوادث فى إنزال القرآن مفرقا ، وما أكثر مثيلاتها فى القرآن الكريم . .

(د) وقد كان الرسول ﷺ يبنى مجتمعا جديدا فاضلا له نظمه وعقائده وتشريعاته التى تخالف كثيرا ما كان عليه العرب قبل بعثته ، والطفرة فى بناء مجتمع جديد مستحيلة ، وتكليف أتباع الدين الجديد بكل ما يريده الله منهم دفعة واحدة حين يدخلون فى الإسلام – لاسيما وهو فى دور البناء – أمر فوق الطاقة ، ولابد من أخذ هذا المجتمع بالتدريج : وضع الأساس أولا بالعقائد . . ثم يفرع عليها التشريعات شيئا فشيئا . .

وهكذا كانت حكمة الله فى إيجاد هذه الأمة وتربيتها فى نشأتها . . والقرآن ينزل الوقت بعد الوقت ليشرع ما يناسب من تشريعاته فيأخذ المسلمون أنفسهم بما نزل ، دون أن يشق عليهم ذلك . .

---

(١) سورة النساء الآيتان : ١٠٥ ، ١٠٦ وما بعدهما .

ولو نزل القرآن جملة واحدة لنزل فيه الأمر بالعقائد والتشريعات كلها دفعة واحدة ، وكان القوم سيعجزون وهم فى أول أمرهم بالإسلام . . وفى حاجة إلى أخذهم بالرفق والتدريج ، وقد رأينا كيف عالج القرآن أمرهم فى شرب الخمر بالتدريج ، ولوكانت الحكمة فى غير التدريج لكان . . ولكن الله فعل ما تقتضيه حكمته القائمة على علمه وخبرته بالنفوس ، فهل كان يتسنى للقرآن الأخذ بهذه الحكمة ، لو أنه نزل جملة واحدة ؟ !

حقيقة يولد الإنسان ويشب حتى يبلغ فيكلف بكل ما فى القرآن ، ولكنه مسلم وابن لمسلم ، وشب وتربى فى جو إسلامى وتعود فى صغره على آداب الإسلام وتشريعاته ، فلا يصعب عليه القيام بعد ذلك بتكاليفه . . فالأمر يختلف عمن ندعوه لينسلخ من شركه فى بدء الدعوة لينضم لزمرة المؤمنين – والدعوه غريبة ولها أعداؤها . . فلابد من التدرج فى التكاليف بما يتناسب وحالة الداخلين الجدد فى الإسلام . .

وكثيرا ما كان يسأل المؤمنون أو اليهود أو المنافقون أو المشركون ، يسألون عن أشياء يريدون فهمها أو عن أشياء يريدون تعجيز الرسول وإظهاره بمظهر عدم العارف ليضعفوا من شخصيته ومهابته ، وكان نزول القرآن مفرقا يتيح للرسول أن يتلقى الرد عليهم من جبريل بما يريد الله ، ولذلك تجد كثيرا فى القرآن (يسألونك) أو (يسألك الناس) وتجد الرد بعد ذلك :

« يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَهِلَّةِ قُلْ هِىَ مَوَٰقِيتُ لِلنَّاسِ وَٱلْحَجِّ . . . الآية »[1]

« يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَآ إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَآ أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا وَيَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلِ ٱلْعَفْوَ »[2]

---

(١) سورة البقرة . الاية : ١٨٩ .

(٢) سورة البقرة . الآية : ٢١٩ .

« يَسْـَٔلُكَ ٱلنَّاسُ عَنِ ٱلسَّاعَةِ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ »[1]

« وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى »[2]

« وَيَسْـَٔلُونَكَ عَن ذِى ٱلْقَرْنَيْنِ قُلْ سَأَتْلُوا۟ عَلَيْكُم مِّنْهُ ذِكْرًا ﴿٨٣﴾ »[3]

وغير ذلك كثير حتى بلغ « يسألونك » نحو خمسة عشر سؤالا وجهت للرسول فى أوقات متباعدة ، ونزل القرآن للرد عليها ، فهل كان يتسنى الرد عليها لو أن القرآن كان قد نزل قبل ذلك بسنوات دفعة واحدة ؟ .

وهكذا تتجمع هذه الحكم والأسباب التى نستظهرها حسب علمنا وإدراكنا لتجعل من نزول القرآن مفرقا هو عين الحق والصواب ممن هو أدرى من الخلق جميعا بالحق والصواب . .

ولكن مما ينبغى معرفته مع ذلك أنه ليس معنى نزوله مفرقا أن كل آية منه نزلت على دفعة ، بل معنى نزوله مفرقا أن نزوله كان على دفعات وأوقات استمرت من بدء البعثة ، حتى توفى الرسول عليه الصلاة والسلام أى مدة ثلاث وعشرين سنة . . فقد ينزل جبريل بآية ، وقد ينزل بآيات ، وقد ينزل بسورة صغيرة ، وقد ينزل بسورة كبيرة كالأنعام مرة واحدة . .

ومن السور التى نزلت دفعة واحدة : الفاتحة . الإخلاص ، المعوذتان ، المسد (تبت يدا أبى لهب) ، الكوثر ، البينة ، المرسلات . الصف . الأنعام . .

أما أغلبية سور القرآن فقد نزلت على دفعات . . وليس معنى ذلك أن النزول كان بالترتيب فى السورة يعنى تنزل الآيات الخاصة بسورة البقرة مثلا على دفعات ، ولا ينزل غيرها ، ثم يبدأ الوحى فى سورة أخرى فتنزل آياتها على

---

(١) سورة الأحزاب ، الآية : ٦٣ .
(٢) سورة الإسراء ، الآية : ٨٥ .
(٣) سورة الكهف ، الآية : ٨٣ .

دفعات ، ثم تبدأ سورة أخرى وهكذا . . بل كانت الآيات تنزل ، وجبريل يرشد الرسول إلى أن هذه الآيات توضع فى سورة البقرة مثلا قبل آية كذا أو بعدها . . ثم تنزل آيات أخرى بعد ذلك ويرشد جبريل إلى وضعها مثلا فى سورة آل عمران وهكذا . . حتى إذا أتى رمضان من السنة نزل جبريل على الرسول يدارسه ما نزل فى السنة الماضية من القرآن بالترتيب الذى أرشد إليه ، ولو كان جزءا من السورة ، ثم إذا جاء رمضان آخر نزل جبريل يدارسه ما نزل من أول آية حتى نزوله للمدارسة بالترتيب وهكذا ، حتى آخر رمضان من حياة الرسول وقد كاد القرآن يكتمل إلا بعض آيات قليلة ، فنزل جبريل يدارسه (أى يقرأ على الرسول مرة ويستمع له مرة) ما نزل من القرآن كله من أول آية : (اقرأ باسم ربك) حتى آخر آية نزلت قبل انتهاء هذه المدارسة الأخيرة ، بالترتيب الذى عليه القرآن الآن ، فيقرأ من سورة البقرة مانزل ، ومن سورة آل عمران ما نزل . . . الخ . وهكذا انضبط أمر القرآن تماما . .

* * *

أسباب النزول

لعلنا فهمنا مما سبق أن من القرآن ما نزل لسبب خاص من الأسباب ، وهذا صحيح . . ولكن منه كذلك ما نزل دون أن يكون هناك سبب خاص من الأسباب الظاهرة ، كسؤال للرسول ، أو حادثة من الحوادث مثلا تستدعى نزوله ، ولكن يراد به تحقيق الهدف العام منه وهو التعليم والإرشاد ، وبيان الحقائق كحقيقة الآخرة وما يجرى فيها ، وخلق السموات والأرض . . . الخ .

وعلى سبيل المثال فيما له سبب له خاص : كل آية مبدوءة بلفظ يسألونك ، وذلك لوجود سؤال وجه للرسول وتولى الله سبحانه الإجابة عنه بطريق القرآن : مثل :

(يسألونَكَ عن الأَهِلة) . (يسألونَكَ عن الخَمْر والمَيْسِر) (ويَسْأَلونَك عن الرُّوح) . (ويَسْأَلونَك عن ذِى القرنَيْن)

وقد سبق أن ذكرت عدد الآيات التى أجابت عن أسئلة مبدوءة بكلمة (يسألونك) أو (يسألك) . .

ومثل آيات المجادلة :(قد سَمِع اللهُ قَوْلَ الَّتى تُجَادِلُكَ فى زَوْجِها . .)

وآيات حادثة الإفك : (إن الذين جَاءُوا بالإفْكِ عُصْبةٌ منكم . . .)

وقوله تعالى : (يَا أيُّها النبى لِمَ تُحَرِّمُ ما أحَلَّ اللهُ لَكَ . .)

بسبب ما حدث من زوجات الرسول ﷺ . .

ولكن كيف نعرف أسباب النزول ؟

لاشك أن مرَد ذلك كله إلى الرواية الصحيحة عن الصحابة الذين شهدوا

السبب أو سمعوا عنه ، ونقلوه لغيرهم ورواه التابعون ومن بعدهم ، حتى جاء عصر التدوين والمعتنين بهذا العلم ، فدونوا ماورد خاصا بسبب نزول هذه الآية أو تلك وغيرها . .

يقول السيوطى فى كتابه الإتقان عند الكلام على هذا الموضوع :

« أفرده بالتصنيف جماعة أقدمهم على بن المدينى شيخ البخارى ، ومن أشهرها الواحدى على ما فيه من إعواز ، وقد اختصره الجعبرى ، فحذف أسانيده ولم يزد عليه شيئا ، وألف فيه شيخ الإسلام أبو الفضل ابن حجر كتابا مات عنه مسودة ، فلم نقف عليه كاملا ، وقد ألفت فيه كتابا حافلا موجزا محررا لم يؤلف مثله فى هذا النوع سميته لباب النقول فى أسباب النزول » اهـ .

وهذا الحصر هو حتى عصر الإمام السيوطى ، المتوفى سنة ٩١١ هـ وكان السيوطى فى تأليفه هذا وغيره جامعا غير مبتكر ، فقد جمع من علوم الأولين وجهودهم ما ألف به كتبه جزاه الله خيرا . . فإن القارئ يجد فى كتابه كثيرا من الكتب السابقة عليه .

والذى نفهمه فى هذا أن كل من تصدى لتفسير القرآن منذ نزوله كان يعنى بما يعرفه من أسباب نزول الآية ، ليزيدها توضيحا . . وجاء المفسرون الذين عنوا بتفسير القرآن كله فكانوا يذكرون ما يعرفونه من سبب النزول ، ولذلك تجد كتب التفسير تعنى بذكر سبب النزول إن كان للآية سبب خاص . . وكان الاعتماد كله فى معرفة هذا إنما هو على الرواية التى يثقون برجالها . .

ولكن لماذا عنى السابقون بهذه الناحية ؟ وما فائدتها فى فهم القرآن ومعرفة أسراره ؟

لقد عرفنا أن من القرآن مانزل ابتداء دون أن يكون هناك سبب خاص يستدعى نزوله ، ولكنه نزل استجابة للهدف العام من نزول القرآن وهو التعليم وبيان الحقائق والاعتبار ، ومنه ماله سبب خاص . . ومن الممكن الوصول إلى

المعنى المراد لهذا أو لذاك دون شيء يذكر بجانبه من سبب خاص . . فأسلوب القرآن يوضح معناه لكل قارئ . .

ولكن مما لاشك فيه مع هذا أن الآية لوكان لها سبب من سؤال أوحادثة خاصة ، واستطعنا معرفة هذا السبب فإن هذه المعرفة تزيد المعنى وضوحا ورسوخا فى الذهن وتبين لنا الجو الذى نزلت فيه الآية . .

فقوله تعالى : « ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر . . الآية » يمكن لكل قارئ الوصول إلى معناها . . لكن حينما يذكر معها سبب نزولها ، وهو أن اليهود أكثروا من الكلام عن تحويل القبلة ، من بيت المقدس إلى الكعبة ، وجعلوا ذلك موضوعا هاما ، كأنه هو كل شيء فى عبادة الله وطاعته ، وأعطوه فوق ما يستحق ؛ لغرض فى نفوسهم ، وأخذوا يبلبلون أفكار المسلمين بشبه يلقونها عليهم مترتبة على أمر التحويل ، وتولى الله سبحانه الرد عليهم وتسفيههم ، حتى ليقول عنهم « سيقول السفهاء من الناس ما ولاهم عن قبلتهم التى كانوا عليها . . . الآيات » نقول : لما أكثروا من الكلام وركزوه حول تحويل القبلة حتى كأن القبلة هى كل شيء فى الدين نزلت هذه الآية « ليس البر أن تولوا وجوهكم . . . » ليقطع عليهم طريقهم ، ويخرس ألسنتهم ، فليست الطاعة كل الطاعة منحصرة فى أمر التوجه شرقًا أو غربًا فى الصلاة . . ولكن الطاعة حقيقة فى كذا وكذا مما يتصل بالعقيدة والعبادة وأمور الحياة الاجتماعية . . . وهى آية جامعة حقا لواجبات المؤمن ، وما ينبغى عليه أن يقوم به . . أما التوجه فى الصلاة للكعبة أو لبيت المقدس ، فهو وإن كان لابد منه فى الصلاة حسب أمر الله بالتوجه لهذا أو لذاك ، إلا أنه لا يعدو أن يكون مظهرا وشكلا . . فلم كل هذه الضجة المفتعلة حوله فى الوقت الذى توجد فيه أشياء فى غاية الأهمية من أمور العقيدة والعبادة والصلات الاجتماعية ، وكأنكم ضربتم عنها صفحا وحصرتم همكم فى التوجه للقبلة ؟ فحين نعرف الجو الذى نزلت فيه هذه الآية نزداد لها فهما واستيعابا ، .ويمكننا على ضوء هذا السبب أن نقيس على غيره مما يشبهه ، ونجد الناس معنيين به ، وصارفين كل غايتهم له ، مع

تركهم لأمور أهم منه . . مع أن الاعتدال اللائق للإنسان العاقل الفاهم يقضى بوضع كل أمر فى موضعه ، وإعطائه من العناية ما يستحقه وعلى قدره ، على أن يبدأ بالأهم والأساس فيحصله . . إذ ليس من العقل ولا من الحكمة فى شىء أن نهمل أساس البيت الذى تقام عليه عمده ، ثم نشغل أنفسنا بأمر تجميل ما شيدناه من المبانى على أساس غير سليم ، ولا يلبث أن ينهار !

وأرانى لفهمى هذا السبب تحوم حولى صور كثيرة من أعمال المسلمين وتصرفاتهم ، بل ومعاركهم حول أشياء شكلية مع إهمالهم للأمور الأساسية . . أرانى سأنساق فى القياس على هذا السبب فأتحدث عن أمور كثيرة تغشى واقعنا وتغشى كثيرا من المجتمعات التى تصرف جهودها فى الشكليات تاركة اللب والجوهر ، ولكنى أوقف القلم حتى لا ينطلق وراء أفكارى والصور الكثيرة التى تحوم حولى وتؤلمنى . .

والمهم من هذا كله أن نعرف أن وقوفنا على سبب نزول الآية يجلى أمامنا فهمها ، ويجعلنا نعيش تماما فى الجو الذى نزلت فيه . .

وهذا إذا لم يكن فى فهم الآية وقفة أو عقبة تستدعى إزالتها معرفة السبب والجو الذى نزلت الآية من أجله . . لأننا فى هذه الحالة نحتاج ضرورة لمعرفة السبب ، ولا يصبح الأمر أمر زيادة فى الفهم أو الوضوح فحسب ، بل أمر الفهم الصحيح للآية . وهاك أمثلة على ذلك :

١ – قوله تعالى :

« إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلْمَرْوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِ فَمَنْ حَجَّ ٱلْبَيْتَ أَوِ ٱعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا وَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ ٱللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ ﴿١٥٨﴾ »(١)

فظاهر الآية وهو نفى الإثم والحرج عن الحاج أو المعتمر الذى يسعى بين الصفا والمروة وهو الذى عبر عنه القرآن بالطواف « أن يطوف بهما » لأن الساعى لابد أن يصل لآخر الشوط عند الصفا أو المروة ، أقول : ظاهر نفى الإثم عن الساعى يفيد

(١) البقرة : ١٥٨ .

أن السعى لم يبلغ حتى درجة السنة ، بل هوفى درجة « لابأس » ، « لاحرج » ، « لا مانع » ويكون لا مانع أيضاً من ترك السعى . .

ولكن الرسول ﷺ علم أصحابه أن السعى أمر مهم ، واعتبره الأئمة لهذا ركنا من أركان الحج أو العمرة أو فرضا لازما لابد للحاج أو المعتمر أن يقوم به . . وفرق بين درجة لابأس ولا مانع ولا حرج ، وبين درجة : فرض وضرورى . فكيف إذن نحل هذا التعارض ؟ .

ولو تركنا وشأننا دون أن نبحث عما وراء هذه الآية من سبب ، لأخذنا من القرآن أن السعى غير مطلوب حتى على درجة السنية ، ولابأس على من يفعله . . . كما لا بأس على من يتركه . بل قد يكون تركه أولى تفاديا من الوقوع فى الحرج . .

وهنا نجد أن معرفة السبب سيحل لنا هذا الإشكال ، الذى أدركه المسلمون الأول ، وطلبوا له حلا عند من يستطيع الحل .

فقد روى أن عروة بن الزبير رضى الله عنهما وقف أمام هذه الآية التى أشكل فهمها عليه ، وفهم منها أن السعى ليس بفرض ، مع أنه تعلم وعرف أنه فرض . .

فتوجه بالسؤال إلى خالته السيدة عائشة رضى الله عنها ، فحلت له الإشكال ، وأفهمته أن هذه الآية نزلت بهذا الأسلوب مراعاة لحال المسلمين وكانوا قريبى عهد بالإسلام ، ومظاهر الشرك وأماكنه معروفة لديهم ، وكانوا يتحرجون كل التحرج من أن يكون لأفعالهم أى قرب لمظاهر الشرك فتحرجوا حين حجهم أن يسعوا بين الصفا والمروة ، كما كان المشركون يسعون وكان على كل منهما صنم : على الصفا صنم اسمه « إساف » . وعلى المروة صنم اسمه « نائلة » . وكان المشرك حين يسعى وينتهى شوطه عند صنم منهما ، يتمسح به ، ثم يستأنف سعيه . . ومع أن الصنمين قد أزيلا ، وتطهرت منهما الصفا والمروة إلا أن ذكرياتهما لا تزال عالقة بأذهان المسلمين ، فلما شرع لهم السعى فى نفس المكان الذى كان يسعى فيه المشركون ، وبالنهاية نفسها التى كان ينتهى عندها الشوط ، وجدوا أن سعيهم هذا صورة من سعى المشركين . . وتحرجوا أن يفعلوا كما كان المشركون يفعلون ووقع فى نفسهم شىء من الاستنكاف . فنزلت الآية تؤكد أن

السعى بين الصفا والمروة من الشعائر التى شرعها الله للمسلمين للتقرب إليه وعلى الصورة نفسها التى كان المشركون يفعلونها ، لكن بدون أصنام وشرك ، بل بتوجه لله وحده ، لأن السعى من شعائر إبراهيم . لكن العرب حين نسوا أو جهلوا دين إبراهيم أدخلوا على هذه الشعيرة مظاهر شركهم ، والإسلام حين جاء أزال هذه المظاهر ، وبقى الأصل . فالذين تحرجوا من محاكاة المشركين فى السعى بين الصفا والمروة لا داعى لتحرجهم ، وإذا كانوا يظنون أن هناك إثما بسعيهم فليس بصحيح . إذ لا إثم عليهم مطلقا بهذا السعى « فلا جناح عليه أن يطوف بهما » .

هذا هو الجو الذى نزلت فيه الآية ، مراعية لمقتضى الحال ، وهذا لا يمنع أن يكون السعى لازما وفريضة كما بين لهم الرسول ، فافعلوا الفريضة دون شعور من ناحيتكم بأى تحرج .

٢ – قوله تعالى :

« وَلِلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا۟ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ »[1]

ظاهرها يفيد صحة التوجه فى الصلاة إلى أية جهة ، بينما الآيات الأخرى تأمر بالتوجه للكعبة

« فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥ »[2]

أى جهة الكعبة . ومن هنا يقع القارئ فى إشكال . ويرى بين الآيتين شيئاً من التناقض يحيك فى صدره . .

لكن إذا وقفنا على سبب نزول هذه الآية « ولله المشرق . . » زال هذا الإشكال . فقد قال ابن عمر رضى الله عنهما إنها خاصة بصلاة السفر ، حين لا يستطيع المسافر التوجه للقبلة فى الصلاة .

وقيل إنها نزلت لتصحيح صلاة الذين اجتهدوا فى تعيين القبلة ، وصلوا ، فظهر لهم خطؤهم فيما بعد .

---

(١) سورة البقرة : ١١٥ .

(٢) سورة البقرة : ١٥٠ وكذلك جاء الأمر فى الآية التى قبلها .

كما قيل إنها نزلت للرد على اليهود الذين اعترضوا على تغيير القبلة من بيت المقدس مدعين أن عبادة الله لا تصح إلا عن طريق بيت المقدس . . . روايات متعددة وكلها تجعل للآية سببا خاصا ، وتحيل مطلق التوجه إلى أية جهة خاصا بحالات مخصوصة غير الحالات التي يجب على المصلى فيها التوجه للكعبة . فلا تعارض إذن بين الآيتين . . والآية التي معنا تفهم على ضوء ماروى فى سبب نزولها .

٣ – مثال ثالث : قوله تعالى

« لَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَآ أَتَوا۟ وَّيُحِبُّونَ أَن يُحْمَدُوا۟ بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا۟ فَلَا تَحْسَبَنَّهُم بِمَفَازَةٍ مِّنَ ٱلْعَذَابِ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٨٨﴾ »[1]

ظاهر الآية يهدد الذين يفرحون بما يقومون به من أعمال حتى ولو كانت طيبة . وهذا غريب ، فمن طبيعة الإنسان أن يسر بما يوفقه الله إليه من عمل صالح ، ويشكر الله عليه ، فكيف يكون محل تهديد ووعيد من الله ؟ . . وهي تهدد كذلك كل من يحب أن يثنى عليه الناس بأعمال لم يقم بها ، وهذا الحب وإن كان غير محمود ، إلا أن نفس الإنسان طبعت عليه ، وهو مجرد حب أوميل ، لا يصل قبحه إلى درجة التهديد عليه كما جاء فى ختام الآية . . فكيف هذا ؟ إنه يوقعنا فى حرج شديد ، وربما يكون من باب المؤاخذة على ما لانطيق التحكم فيه . وهو مغاير أو مخالف لعدل الله ورحمته بنا . .

ومن اجل هذا وجدنا فيما روى لنا فى الصحيحين وغيرهما أن هذه الآية أشكل فهمها على مروان بن الحكم ، وقال : لئن كان كل امرئ فرح بما أتى ، وأحب أن يحمد بما لم يفعل معذبا ، لنعذبن أجمعون » ولجأ إلى ابن عباس رضى الله عنهما وهو الحجة فى بيان القرآن وفهمه وأرسل إليه بوابه « رافع » فأخرجه من هذا الإشكال وبين له أن الآية لاتفهم على ظاهرها مجردة عن سبب نزولها .

وقال لهم : « مالكم وهذه » أى أن الآية ليست فيما تتحدثون به وفهمتموه . . « إنما نزلت هذه الآية فى أهل الكتاب ، ثم تلا الآية السابقة على هذه الآية « وإذ أخذ الله ميثاق الذين أوتوا الكتاب لتبيننه للناس ولا تكتمونه فنبذوه وراء ظهورهم واشتروا به ثمنا قليلا فبئس ما يشترون . . لا تحسبن الذين يفرحون . .

---

(١) آل عمران : ١٨٨ .

الآية » وقال : سألهم النبى ﷺ عن شيء فكتموه إياه ، وأخبروه بغيره ، فخرجوا قد أروه أن قد أخبروه بما سألهم به (يعنى غرروا به) واستحمدوا بذلك إليه (أى أشعروه أنهم أسدوا إليه جميلا يستحقون عليه الحمد والثناء) وفرحوا بما أتوا من كتمانهم ماسألهم عنه »[1] .

فالآية فى الحقيقة تعالج وضعا اجتماعيا فاسدا وقبيحا ، وتتعقب هؤلاء اليهود الذين غرروا بالرسول ، وأجابوا عن سؤاله لهم فى أمر من الأمور ، ليس هو من أمر الدين قطعا ، فهو لا يتلقى شيئا عنهم ، أجابوا بغير الحق ، وأفهموه أن هذه هى الحقيقة التى عندهم ، وفهموا أن الرسول اقتنع بجوابهم ، فأخذتهم النشوة ، وظهروا كأنهم يمنون على الرسول بجوابهم هذا وينتظرون منه أن يشكرهم ، كأنهم أجابوه عن الحق فعلا ولم يجاوزوه .

وإذا كان الرسول ﷺ بشرا لا يعلم الغيب ، وظهر منه قبوله لكلامهم ، فهو فى حراسة ربه ، لا يتركه لهؤلاء المضللين ، ولا يتركهم يتيهون بتضليلهم للرسول وللناس ، بل تعقبهم وكشفهم بهذه الآية ، التى ذكر قبلها مباشرة أن هؤلاء مأخوذ عليهم العهد فى كتبهم ألا يقولوا إلا الحق ، ولا يكتموه ، ولكنهم نبذوا هذا العهد وأهملوه ، وفعلوا مع الرسول ﷺ ما فعلوا ، فلا تحسبنهم بمنجاة من العذاب ، فإن لهم عذابا أليما ينتظرهم جزاء فعلهم . .

وهكذا نرى المعنى الحقيقى للآية غير المعنى الظاهرى ، لكن هذا المعنى الحقيقى العميق جدا لا يفهم من مجرد قراءة الآية ، وإلا لما وقع مروان بن الحكم وغيره فى إشكال ، بل لابد من معرفة سبب نزولها حتى تفهم على حقيقتها .

ومع هذا فإن معرفة سبب النزول تعطينا أبعادا متعددة لهذه الآية التى تداوى مرضا اجتماعيا يلازم الكثيرين من الناس فى كل مجتمع صغير أوكبير وفى كل زمن .

---

(١) وهذه رواية الإمام أحمد وروته كتب الصحاح كذلك ، كما جاءت روايات بأنها فى المنافقين ويظهر أنها طبقت عليهم كما تطبق الآن على كل إنسان له موقف مشابه لموقف هؤلاء اليهود .

فهى تتابع الذين يغررون بعباد الله حتى حين يسألون عن شارع أوطريق فيدلونهم على غير ما يطلبون ، ثم يخلون بأنفسهم ويضحكون ، لأنهم غرروا بهم ، وأعطوهم « مقلبا » !

وتتدرج الأمثلة وتتعدد ، وتنزل وتعلو ، حتى تصل إلى الذين يغررون بشعوبهم ، ويخبرونها بغير الحقيقة « للاستهلاك المحلى » ، ويسوقون لهم الباطل فى ثوب مزور من البطولة ، ليصفق الناس لهم ، وليكتب الكتاب التعليقات الطويلة فى مدحهم والثناء عليهم ، واستجلاب الشكر لهم ! !

كم من الزعماء فى بلادنا وفى بلاد مثلها وقفوا يسبون ويهاجمون الاستعمار والمستعمرين ، وقبل أن يقفوا كانوا متفقين مع المستعمرين على أنهم سيعطونهم « دشا » للاستهلاك المحلى . . فى سبيل تنفيذ خطط ضارة بالشعب مدبرة بينهم . . والمستعمرون طبعا يرحبون فإنه لا يهمهم إلا الوصول لأغراضهم وفريستهم . بل قد عرفنا من تجارب الحياة على النطاق الواسع بأن بعض الزعماء كانوا يتخذون موقف المهاجم المخاصم لمستعمر ليغطوا به موقفهم المتفاهم جدا مع هذا المستعمر ! !

وكم . . وكم فى الحياة من مظاهر فاضحة تتناولها وتتعقبها هذه الآية التى تنفذ بعلاجها لأعماق المجتمع . وتداوى أمرضا فيه جد خطيرة . وتحمى بذلك الفضلاء من الناس ، تحميهم من المغررين المخادعين . أرأيت كيف أعاننا فهم سبب النزول على الغوص فى الأعماق ، بدل أن نطفو على السطح ، ونعيش فى إشكال وتناقض وحيرة ؟ .

٤ – مثال رابع : قوله تعالى بعد آية تحريم الخمر « لَيْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوٓا۟ إِذَا مَا ٱتَّقَوا۟ وَّءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ثُمَّ ٱتَّقَوا۟ وَّءَامَنُوا۟ ثُمَّ ٱتَّقَوا۟ وَّأَحْسَنُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٩٣﴾ » (١)

---

(١) سورة المائدة : ٩٣ .

قد يفيد ظاهر الآية وهى بعد آية تحريم الخمر مباشرة ، أنه لا إثم على الإنسان من شربها . إذا كان مؤمنا عاملا للصالحات على حسب ما ذكرته الآية . . وقد فهمها بعض الصحابة على هذا الوجه الظاهر ، وشربوا . لأنهم لم يعرفوا سبب نزولها وفهموها على ظاهرها ، ولو أنهم عرفوا السبب لفهموا الآية على حقيقتها وامتنعوا عن الشرب إذ ليسوا محلا للشك .

وسبب نزول هذه الآية[1] كما روى أن الآية حين نزلت بتحريم الخمر كان بعض الصحابة يشربون لأنها ظلت مباحة حتى نزولها . . فسأل السائلون وما الحكم فيمن مات ولا تزال الخمر التى شربها قبل التحريم فى بطنه ؟ فنزلت هذه الآية تنفى عنه الإثم والحرج وتكل أمره إلى إيمانه وإلى ما قدم من عمل . .

وذلك كما تساءل اليهود حين تحويل القبلة لتشكيك المسلمين : وما الحكم فيمن صلى لبيت المقدس ومات قبل أن يدرك زمن تحويل القبلة للكعبة ؟ هل تقبل صلاته ؟ فنزل قوله تعالى « وما كان ليضيع إيمانكم » وقال ابن كثير فى تفسير هذا « صلاتكم إلى بيت المقدس قبل ذلك أى ليضيع ثوابها » والذى حمل ابن كثير على تفسير الإيمان بالصلاة هنا هو مراعاته لسبب نزول الآية وهو السؤال عن الصلاة :

٥ – مثال خامس وأخير : قوله تعالى

« وَلَا تُكْرِهُوا فَتَيَاتِكُمْ عَلَى الْبِغَاءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا لِتَبْتَغُوا عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا »[2]

ظاهر الآية يفيد النهى عن إكراه الفتيات (والمراد بهن هنا الإماء) على الزنا إن أردن التعفف والتحصن . لكن إذا لم يردن التعفف فدعوهن وشأنهن يباشرن الزنا كما يردن . . هذا هو الظاهر المأخوذ من القيد « إن أردن تحصنا » لأنه يفيد بالمفهوم أنهن إذا لم يردن التحصن وأردن الزنا فدعوهن وشأنهن ! لكن هذا يتنافى مع بدائه الإسلام ، وسيد الأمة مسئول عن سلوكها وعليه أن يمنعها عن كل محرم . . فكيف – إذن – تفهم الآية ؟

---

(١) راجع تفسير ابن كثير وغيره .

(٢) سورة النور من آية : ٣٣ .

فلنرجع إلى سببها والحالة التى نزلت من أجلها ، نجد أن السبب أن رأس المنافقين عبد الله بن أبى بن سلول كانت له أمة عفيفة . ولكنه كان يكرها على مباشرة الزنا وهى تنفر منه وتمانع فيه ، فأنزل الله هذه الآية ترضخ رأس هذا المنافق ، وتدمغه بسلوكه الشائن وتسجله عليه .

ولهذا قال المفسرون والأصوليون إن هذا القيد « إن أردن تحصنا » لا مفهوم له ، يعنى لا يمكن الأخذ بمفهومه وهو إنهن إذا أردن عدم التحصن فلهن ذلك . .

ولعلنا بعد هذه الأمثلة القليلة التى لها نظائر كثيرة فى القرآن نجد أن معرفة سبب نزول الآية أو الآيات حين يكون لها سبب ، أمر هام فى فهم القرآن وزيادة وضوح الفهم ، وقد يصبح ضروريا لا يمكن تجاهله حين يتوقف فهم الآية على معرفته ، كالأمثلة التى ذكرناها ، حتى لا نقع فى إشكالات والتباسات . وهذا يزيدنا اهتماما بمعرفة أسباب النزول . .

وهل العبرة بعموم اللفظ أو بخصوص السبب ؟

ولعلك لاحظت فيما سردته لك من أمثلة أنه كان هناك فرد وسبب خاص نزلت بشأنه الآية . لكنها حين نزلت لم تتحدث بلغة المفرد ، عن هذا الفرد ، بل تحدثت بلغة الجمع التى نسميها لغة التعميم أو العموم . وأقرب مثل لنا هو المثل الأخير السابق الذى كان سبب نزول الآية فيه شخصا خاصا بعينه هو عبد الله ابن أبى وأمته فحسب . فنزلت الآية بهذه الصيغة « ولا تكرهوا فتياتكم » ولم تقل « ولا تكره فتاتك » .

فأصبحت الآية النازلة عامة بصيغة الجمع . فهل نقصر تطبيقها على الفرد الذى نزلت بسببه فيكون عاما أريد به خاص ولا نطبقها على أمثاله ؟ وتصبح الآية خاصة بمن نزلت فيه وننتظر غيرها لغيره . . . ومتى ؟ وكيف ؟ أو أننا نطبقها على الفرد أو السبب الشخصى الذى نزلت فيه وعلى كل من أو ما يشابهه فى الحال والاستقبال ، وتكون العبرة حينئذ بعموم اللفظ لا بخصوص السبب ؟

إنه كذلك ، إذ لا يقول عاقل بالأول ، فالحكم النازل إذا كان له سبب مباشر فإنه حكم له ولكل ما يشبه هذا السبب فى كل وقت . ومن أجل هذا كانت حكمة تعبير القرآن بالجمع « ولا تكرهوا فتياتكم » أى لا يكره أى واحد منكم أمته على البغاء . . فينطبق على عبد الله بن أبى وعلى كل من أراد أن يسلك سلوكه إلى يوم القيامة . .

ولهذا وضع الأصوليون من العلماء هذه القاعدة : « العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب »

ولكن هل يفيد العموم والتطبيق على الجميع نصا أى بنص الآية وهى عامة بصيغة الجمع . أو يفيد العموم بطريق القياس . أى بقياس الحالة الجديدة على الحالة القديمة التى نزلت الآية بشأنها ؟ رأيان .

لكن هذا خلاف يمكن أن نقول عنه إنه خلاف شكلى بين الأصوليين ، ولكل وجهة نظره ، فهو لا يؤثر شيئا على تطبيق الآية تطبيقا عاما ، لأن كلا من الفريقين يقول بوجوب تطبيق الحكم على الحالات المشابهة فى كل وقت وكل بيئة ، لكن هذا يقول : إن تطبيقها يكون بطريق النص ، وذاك يقول تطبيقها يكون بطريق القياس ، لكن النهاية عند الاثنين هو تطبيق الآية على الجميع . . وهذا هو المهم .

ولعلنا بعد هذا كله نعرف أن الإحاطة بالجو الذى نزلت فيه الآية ، ومعرفة القصة التى من وراء نزولها قد يكون ضروريا ، وحتى إذا لم يكن فإنه يزيدنا تثبتًا فى فهم الآية ، ويوسع مداركنا حين التطبيق . . فإننا نصيغ من سبب النزول قصة إجتماعية لها جوانبها التى تشد القارئ أو المستمع لمعرفة النتيجة ، فتأتى الآية ختاما لهذه القصة وعلاجا لما فيها من جوانب ، فيرسخ هذا فى ذهن القارئ أو المستمع . .

وقد لفت هذا نظر المعنيين بالتوجيه الدينى والثقافة القرآنية ، فكتبوا للإذاعة المسموعة والمرئية بعض هذه الأسباب فتقبلتها وأذاعتها .

وكم أود الاتساع فى هذا على يد متخصصين فاهمين ، يتتبعون الآيات وأسباب نزولها ، ويقدمونها للناس غذاء روحيا طيبا ، وتوجيها اجتماعيا مفيدا .

وما الموقف إذا اختلفت الروايات فى سبب النزول

لقد قلنا إن معرفة أسباب النزول تكون عن طريق الرواية عمن عاصروا نزول الآية أو سمعوا عن سببها ، ولكن المتتبع لأسباب النزول سواء فى الكتب الخاصة بها أم فى كتب التفسير يجد أنها تذكر سببين أو أكثر ، كل رواية تذكر سببا خلاف ما تذكره الرواية الأخرى ، ويجد القارئ شيئا من الحيرة فى اعتماد إحداهما . كذلك يجد القارئ للرواية عدة أساليب فهى تارة تقول : سبب نزول هذه الآية . . كذا أو يحكى الراوى حادثة ، ثم يقول عقبها : فنزلت الآية .

وأحيانا يقولون نزلت الآية أو الآيات فى كذا ، ويذكرون الحادثة .

فهل يوجد فرق بين هذه الصيغ أو أنها كلها واحدة ؟

ونبدأ بالجواب عن هذا السؤال لأنه ينبنى عليه الجواب عن الموضوع الأول وهو ذكر عدة أسباب مختلفة للنزول . فنقول هذه الصيغ ليست كلها واحدة .

ففيها ما يفيد النص فى أن ما يذكر هو السبب المباشر للنزول وهما صيغتان :

الأولى : أن يقول سبب نزول الآية هو كذا . . وكذا . ويذكر الحادثة .

والثانية : أن يحكى أولا الحادثة ثم يقول عقبها : فنزلت الآية .

وفيها مالا يفيد النص فى السبب ، بل يمكن أن يكون هو السبب ، ويمكن أن يكون من الحالات التى تنطبق عليها الآية أعنى تكون الرواية محتملة للاثنين . . وهى صيغة واحدة ، حين يقول المفسر أو الراوى : نزلت هذه الآية أو الآيات فى كذا ويذكرون الحادثة فتحتمل أنهم يريدون أن هذه الآية تعالج هذه الحالة وتبين حكمها ، وتحتمل أن الآية نزلت بسببها . والصيغتان : الأولى والثانية – أقوى وأصرح فى بيان السبب من الصيغة الثالثة . .

وعلى هذا نبحث فى حالة ما إذا اختلفت الروايات فى بيان السبب ولذلك حالات :

١ – أن تكون رواية منهما أو منها تفيد النص فى السبب والأخرى تفيد الاحتمال ، كأن نقول رواية سبب النزول كذا أوكذكر الحادثة ونقول فنزلت الآية وتكون الثانية بصيغة نزلت فى شأن كذا أوفى كذا فنعتمد ما يفيد النص ونرجحه على ما يفيد الاحتمال أى احتمال أن تكون سببا وأن تكون من الحالات التى تنطبق عليها الآية وليست سببا مباشرا .

٢ – فإذا كانت كل رواية من الروايات التى أمامنا تفيد النص فى السبب وتذكر كل منهما سببا يخالف الآخر أمكن لنا الخروج من هذا التضارب بطريقة من الطرق الآتية :

البحث فى سند الرواية . فإذا عرفنا أن رواية صحيحة والأخرى غير صحيحة أو ضعيفة قدمنا بالطبع الرواية الصحيحة ومثال ذلك :

ما ذكر فى سبب نزول سورة « والضحى » فقد وردت رواية تفيد أن السبب هو قول امرأة قيل إنها أم جميل زوجة أبى لهب للنبى ﷺ لما تأخر عليه الوحى : ما أرى ربك إلا قد قلاك . . أى تركك وهجرك . فنزلت السورة ترد عليها وفيها : ماودعك ربك وما قلى . . .

وسند هذه الرواية صحيح مذكور فى كتب السنة الصحيحة[1] :

ولكن توجد رواية أخرى تذكر سببا آخر وهو أنه لما مات جرو صغير فى بيت رسول الله ﷺ دون أن يدرى أحد ، وتأخر نزول الوحى عليه ، ولاحظ ذلك هو ومن حوله ، وتساءلوا عن السبب فى تأخر الوحى ، هل ترك الله رسوله وأهمله ؟ ولما قامت الخادمة بكنس البيت وتنظيفه أخرجت الجرو فنزل الوحى . . . الخ . . وهذه رواية باطلة ممجوجة تحمل فى طياتها دلائل كذبها ، فالوحى قد تأخر مدة لا يمكن أن يموت الجرو فيها ويبقى فى البيت هذه المدة ولا يدرى به أحد ! ! ! إنه يكون قد تحول إلى جيفة فكيف لا يدرون به إلا عندما قامت الخادمة بكنس البيت ؟ !

وهذه الرواية كما ترى ممجوجة غير معقولة فوق أن سندها غير صحيح ، وإننى أرويها هنا وأنا متردد فى روايتها لسخفها ، لكن حملنى على ذكرها مضطرا ما ذكره ابن حجر فى شرحه للبخارى من أنها مشهورة على ألسنة الناس لكنه قال أيضاً : إنها غريبة وفى إسنادها مجهولون لا يعرفون . وهذا كافٍ فى رفضها ومع

(١) رواها البخارى ومسلم والترمذى والنسائى وغيرهم كما ذكر ابن كثير فى تفسيره .

ذلك تناقلتها الألسنة ، ودونتها الروايات ، على عادة الناس فى الجرى وراء الغريب من الحكايات ! . وكم فى الروايات المتناقلة المدونة من أباطيل وغرائب . . ولكن ربما أفاد ذكرها التنبيه إليها للحذر منها حتى لا يقبلها أحد بحسن نية . .

ومع أن ابن كثير فى تفسيره يروى أحيانا روايات ضعيفة أو باطلة وينبه على ضعفها أو بطلانها إلا أنه أهمل هذه الرواية إهمالا تاما ، ويظهر أنه اعتبرها ساقطة حتى عن درجة ذكرها والتنبيه إليها . .

فإذا نحن وجدنا روايتين فى ذكر السبب على هذه الحال : رواية صحيحة والأخرى باطلة أخذنا فورا بالصحيحة وتركنا الباطلة . .

٢ – فإذا كان سند كل منهما صحيحا ، ولإحداهما مرجح يرجحها على الأخرى ، اعتمدنا الرواية التى لها مرجح وتركنا الأخرى . .

وذلك مثل ما روى فى أسباب نزول الآية

« وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى »[1]

فقد روى أنها مكية . وأنها نزلت ردا على المتسائلين من مكة الذين أوعز إليهم بعض اليهود المتصلين بهم ليسألوا الرسول عن الروح .

وروى بجانب هذه رواية أخرى تقول : إنها نزلت فى المدينة ردا على سؤال اليهود أنفسهم . وكلتا الروايتين صحيحة السند ، فكيف نرجح بينهما وكيف نختار ؟

لقد اختار العلماء أن الآية نزلت بالمدينة ردا على اليهود فيها ، والذى حملهم على هذا الترجيح هو وجود مرجح فى هذه الرواية وهو – أولا – ما ذكر فيها من أن عبد الله بن مسعود كان حاضرا وقت نزولها وروايته لها حين قال « كنت أمشى مع رسول الله ﷺ فى حرث المدينة وهو متوكئ على عسيب (أى جريد النخل) فمر بنفر من اليهود ، فقال بعضهم لو سألتموه ؛ فقالوا حدثنا عن الروح ، فقام ساعة ورفع رأسه فعرفت أنه يوحى إليه ؛ حتى صعد الوحى ثم قال : قل الروح من أمر ربى . . . الآية » . فهذا ابن مسعود شاهد عيان يحكى ما شاهده .

---

(١) سورة الإسراء : ٨٥ .

أما الرواية الأخرى فعن ابن عباس ، وهو لم يكن شاهدا للواقعة فى مكة ، وثانيا . الذى روى رواية ابن مسعود وأثبتها هو البخارى ، وأما الثانية فقد رواها الترمذى ونحن نقدم رواية البخارى على رواية الترمذى .

فهنا مرجحان لإحدى الروايتين الصحيحتين ، وطبعا نعتمد الرواية التى لها مرجح وهى رواية ابن مسعود . .

٣ – وقد تستوى الروايتان فى الصحة ولا يوجد مرجح يرجح إحداهما على الأخرى .

وفى هذه الحالة لا يستطيع العلماء رد إحدى الروايتين فماذا يكون الموقف إذن ؟

للخروج من هذا طريقتان :

الطريقة الأولى هى البحث فى إمكان الجمع بين الروايتين ، فإذا أمكن كان كل مما ذكرته الروايتان هو السبب . ومثال ذلك ما روى فى سبب نزول آيات اللعان « وَالَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَاجَهُمْ وَلَمْ يَكُن لَّهُمْ شُهَدَاءُ إِلَّا أَنفُسُهُمْ فَشَهَادَةُ أَحَدِهِمْ أَرْبَعُ شَهَادَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٦﴾ وَالْخَامِسَةُ أَنَّ لَعْنَتَ اللَّهِ عَلَيْهِ إِن كَانَ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴿٧﴾ وَيَدْرَؤُا عَنْهَا الْعَذَابَ أَن تَشْهَدَ أَرْبَعَ شَهَادَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ ﴿٨﴾ وَالْخَامِسَةَ أَنَّ غَضَبَ اللَّهِ عَلَيْهَا إِن كَانَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٩﴾ »[1]

فقد روى فى سبب نزولها روايتان . .

رواية تقول إن سبب نزولها هو شكوى هلال بن أمية لرسول الله ما رآه من أمر زوجته « إنى جئت أهلى عشاء فوجدت معها رجلا رأيته بعينى وسمعته بأذنى » . ويروى البخارى أن الرسول ﷺ قال له : « البينة أو حدفى ظهرك » .

وكانت الآية قد نزلت قبل ذلك فى شأن رمى العفيفات المحصنات بالزنى وأن جزاء الرامى جلده ثمانين جلدة ما لم يأت بأربعة شهداء شاهدوا الحادثة وهى

---

(١) سورة النور : ٦ – ٩ .

« وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿٤﴾ إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا . . . الآية »(1)

فقال هلال لرسول الله : إذا وجد أحدنا مع امرأته رجلا ينطلق يلتمس البينة ؟ . وأقسم إنه لصادق ولينزلن الله تعالى ما يبرئ ظهرى من الحد . .

وكانت فعلا مشكلة . وتكلم غير هلال بما تكلم به . أنذهب نلتمس البينة ونترك الرجل على الزوجة يقضى حاجته ؟ ! ! فالزوج إما أن يبلعها ويسكت على مضض ومرارة ، وهذا لا يتحمله أحد إلا الشواذ ، وإما أن يتكلم ، وهو مطالب حينئذ بأن يأتى بأربعة شهداء شاهدوا عيانا نفس العمل . وكيف يتركهما بعد أن رآهما ويذهب يلتمس الشهداء ؟ ! فإذا لم يأت بالشهداء فإنه يحد بضربه ثمانين جلدة وسقوط عدالته فلا تقبل له شهادة باعتبار أنه قذف امرأة محصنة ولو كانت زوجته . .

كان هذا هو موقف هلال بن أمية ، وموقف الكثيرين معه يتساءلون فى دهشة كيف هذا ؟ والرسول ﷺ ليس لديه إلا آية الجلد هذه ، يطبقها على كل من يرمى امرأة بالزنى ما لم يأت بأربعة شهداء . . فهو واقف عندها يجيبهم بأن الله قد أراد هذا وهذا حكمه ، وليس لديه غير هذا . فكانت شبه أزمة ، أو أزمة فعلا . .

فأنزل الله العليم الحكيم الرحيم هذه الآيات الخاصة بحالات الأزواج الذين لا يستطيعون الإتيان بأربعة شهداء ليكون للطريقة التى جاءت فيها وهى « الملاعنة » مخرج للزوج من الحد ، ومن زوجته كذلك بعد أن رآها كما رآها . .

هذه رواية البخارى عن حادثة هلال بن أمية . . وهى رواية صحيحة . . ولكنه ، أى البخارى ، روى أيضاً وانضم إليه مسلم فى صحيحه : أن عويمرا أتى عاصم بن عدى وكان سيد بنى عجلان ، فقال : كيف تقولون فى رجل وجد مع امرأته رجلاً ؟ أيقتله فتقتلونه أم كيف يصنع ؟ سل لى رسول الله صلى الله عليه

---

(1) سورة النور : ٤-٥

وسلم عن ذلك ، فأتى عاصم النبى صلى الله عليه وسلم ، فسأله فكره رسول الله صلى الله عليه وسلم المساءلة وعابها : (فمن الطبيعى أن النفس السليمة تكره وقوع أو سماع مثل هذه الحالات وتأسف لها ، وتود – مادامت قد حدثت – لو طويت أو عولجت فى كتمان) . . فقال عويمر : والله لا أنتهى حتى أسأل رسول الله عن ذلك ، فجاءه عويمر ، فقال يارسول الله : رجل وجد مع امرأته رجلا ، أيقتله فتقتلونه أم كيف يصنع ؟ فقال رسول الله : (قد أنزل الله القرآن فيك وفى صاحبتك ، فأمرهما بالملاعنة بما سمى الله فى كتابه فلاعنها) .

فهذه الرواية صحيحة أيضاً ، ورواها البخارى ومسلم ، ولا يمكن ردها أو رد الأولى . . ولكن يمكن الجمع بينهما ، بأن يقال : إن الحادثتين كانتا سببا فى نزول الآية ، ولا مانع من أن تتعدد الحوادث المتشابهة ، فتنزل الآية تعالج هذه الحوادث المتعددة . .

هكذا قيل . . ولا مانع من الأخذ به ، لولا أن فى الرواية الثانية جملة تفيد أن عويمرا لما جاء لرسول الله كانت الآية قد نزلت ، لأن الرسول أجابه حين عرض عليه حادثته : (قد أنزل الله القرآن فيك وفى صاحبتك . .) وطبق عليه ما طبقه على هلال ؛ لأن الآية عامة تشمل هلالا وتشمله هو وكل من يشبه موقفه موقفها . .

فالقول بأن حادثة عويمر كانت أحد السببين قول تنقصه الدقة . . هكذا قيل أيضا . . وأقول : إن قضية عويمر عرضت على الرسول مرتين فى زمنين متتاليين :

المرة الأولى : عرضها نيابة عنه « عاصم بن عدى » لما طلب منه ذلك ، وحين عرضها كره الرسول منه ذلك وعابه ، ولم يجبه بأنه نزل قرآن لعلاج هذه الحادثة ، ولو أنه نزل قرآن من قبل لبلغه الرسول فى الحال ، حين عرضت عليه القضية وعالجها على أساس مانزل ولم يرد السائل هذا الرد ، فالظاهر أنه حتى هذه اللحظة لم يكن نزل بشأنها شىء ، فرجع عاصم لعويمر يخبره بأنه لم يجد حلاً لموضوعه عند الرسول . . وحينئذ صمم عويمر على أن يذهب هو نفسه لمعالجة

قضيته ، فذهب وعرضها وأخبره الرسول بالحل فى الحال : (قد أنزل الله القرآن فيك وفى صاحبتك . .) . .

ألا يكون من المحتمل كثيرا أن تكون الآية نزلت بعد أن عاد عاصم من عند الرسول وفى الفترة التى مرت ، بين عودة عاصم ، وذهاب عويمر ؟ . .

هـذا محتمل جداً . . وتكون كل من الحادثتين سبباً فى نزول الآية ، ولكن أقول إن هذا الاحتمال يتوقف على أن الحادثتين وقعتا فى وقت واحد أو متقارب جداً ومتلاحق . والمسألة تحتاج لبحث تاريخى ليس هنا محله . .

٤ – ونعود لحديث الروايات ونقول : فإذا لم يمكن الجمع بين الروايتين الصحيحتين لتباعد الزمن بين الحادثتين أو السببين مثلا ، فإننا لا يمكننا حينئذ أن نقول : إن كلاً من الحادثين كان سبباً . . كيف والزمن بينهما متباعد ؟ فماذا يكون الموقف إذن ؟ . .

إن العلماء لم يقفوا مكتوفى اليدين أمام هذه الحالة ، بل فكروا فى حل لها ماداموا لم يستطيعوا رد الروايتين الصحيحتين كما لم يستطيعوا الجمع بينهما . . لقد قالوا : إنه لم يبق أمامنا إلا القول بأن كلا من الحادثتين كانت سبباً لنزول الآية ، وتكون الآية قد نزلت مرتين . .

لكن كيف ولماذا ؟

أليست أمامهم الآية كافية فى علاج الموضوع المشابه للموضوع الحادث الذى نزلت من أجله الآية من قبل ؟

بلى ، إنها أمامهم . . ولكن لشدة العناية بالموضوع الذى تعالجه الآية وإظهاراً للاهتمام به ، وربما لمعاتبتهم على العودة للموضوع الذى نزلت بعلاجه الآية من قبل ، تنزل للمرة الثانية . .

ولو ذهبنا نلتمس من واقعنا أو واقع نفسياتنا وتصرفاتنا شاهدا لوجدنا حالات يمكن أن تعيننا على هذا الفهم وتقربه إلينا . .

فنحن فى مكاتباتنا للأفراد أو الجهات المسئولة نرسل أحيانا صورة الخطاب المرسل من قبل ، بدلا من أن نحيلهم على الخطاب السابق إرساله ، لشدة العناية بموضوع الخطاب وتذكيرهم وإيقافهم أمام الواقع الذى حدث من قبل ، والذى أهملوه أو تجاهلوه . .

وكما يحصل أحيانا من تكرار الأستاذ أو الرئيس أو الزعيم مثلا لما قاله من قبل على مسامع الطلاب أو الشعب بنصه حين تأتى المناسبة المشابهة . . يلقيه بنصه مرة ثانية بدلا من أن يحيلهم على ماقاله من قبل ، ولذلك وقعه ومغزاه . . فقد قلت كذا وكذا من قبل وماكان لكم أن تنسوه أو تهملوا تنفيذه أو تتجاهلوه . . نقول – ولله المثل الأعلى – إن هذا أمر مقبول فقد نزلت الآية لعلاج حالة ومرت الأيام . . وعاد الناس أو المسلمون يتكلمون بمثل ما تكلموا به حين نزلت الآية الأولى دون التزام بما وجههم إليه ، لظروف معينة ، فأنزل الله الآية نفسها . وفى ذلك مافيه من تذكير ، بل وما هو أكثر من تذكير وتأكيد وتوجيه ليلتزموا تماما بما نزل ، ولا يخرجوا عنه ، لظرف من الظروف مهما يكن . .

والآية التى يذكرها العلماء مثلا لهذه الحالة هى قوله تعالى :

« وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا۟ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِۦ ۖ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّٰبِرِينَ ﴿١٢٦﴾ وَٱصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِى ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ ﴿١٢٧﴾ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ ﴿١٢٨﴾ »(1)

ففيه رواية تقول : إنها نزلت عقب غزوة أحد لما توعد الرسول صلى الله عليه وسلم نفسه قريشا بالانتقام منهم والتمثيل بهم ، عقابا لهم على ما حدث لعمه حمزة رضى الله عنه حين جرضت هند زوجة أبى سفيان « وحشيا » على قتله نظير عتقه ، فقتله ، ومثلت هى به ، ولاكت فى فمها كبده حتى أطلق عليها « آكلة الأكباد » . وقد فرحت بما حصل ، وفرح المشركون وهللوا له . . كما مثلوا بجثث بعض المسلمين . ومؤدى هذه الرواية أنها نزلت بعد غزوة أحد مباشرة . .

(١) سورة النحل ، الآيات من : ١٢٦ – ١٢٨ .

وهناك رواية أخرى تقول إنها نزلت عند فتح مكة وهى مروية عن أبى بن كعب . « لما كان يوم أحد قتل من الأنصار ستون ومن المهاجرين ستة . فقال أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم : لئن كان لنا يوم مثل هذا من المشركين لنمثلن بهم . . فلما كان يوم الفتح قال رجل : لا تعرف قريش بعد اليوم (كأنه سيبيدهم) فنادى مناد إن رسول الله ﷺ قد أمن الأبيض والأسود إلا فلانا وفلانا – ناسا سماهم – فأنزل الله تبارك وتعالى (وإن عاقبتم فعَاقِبوا . .) إلى آخر السورة . . فقال رسول الله : (نصبر ولا نعاقب) » . .

ومؤدى هذه الرواية أن الآيات نزلت فى مكة . .

ويقول المشتغلون بعلوم القرآن إن الروايتين صحيحتان ولا يمكن الجمع بينهما ، وعلى ذلك فلا مندوحة من أن يقال : إنها نزلت مرتين ، مرة عقب أحد . ومرة يوم الفتح . . خضوعا للروايتين الصحيحتين المتعادلتين . .

وبجوار هذا يوجد قول يقول إنها مكية . . ولكنه ضعيف حتى قال القرطبى فى تفسيره لهذه الآية : « أطبق جمهور أهل التفسير أن هذه الآية مدنية نزلت فى شأن التمثيل بحمزة فى يوم أحد ، ووقع ذلك فى صحيح البخارى وفى كتاب السير » . .

وبعد :

فأقول بعد هذا وتعليقا عليه : إن فى نفسى شيئا مما قررته كتب علوم القرآن القديمة منها والحديثة من صحة الروايتين وتعادلهما فى سبب نزول قوله تعالى : (وإن عاقَبْتُم . .) وذلك بعد أن راجعت من كتب التفسير : ابن كثير والقرطبى والكشاف وتفسير الطبرسى . ومن كتب الحديث فتح البارى فى شرح صحيح البخارى . وصحيح مسلم كما راجعت ماتحت يدى من كتب علوم القرآن ، وعلى رأسها الإتقان للسيوطى . .

فقد وجدت ابن كثير – وهو أكثر المفسرين عناية بالحديث ونقده – يضعف أو يرد بعض الأحاديث التى ذكرها فى تفسيره والتى تفيد نزول الآية عقب غزوة

أحد . . فالرواية التى ينتهى سندها لأبى هريرة يذكرها ثم يعقب بقوله : وهذا إسناد فيه ضعف ، لأن صالحا (أحد رجال السند) هو ابن بشير المرى ضعيف عند الأئمة ، وقال البخارى هو منكر الحديث . . وبذلك أصبحت هذه الرواية غير صحيحة . .

والرواية الأخرى التى ذكرها ابن كثير هى : « قال محمد بن اسحاق عن بعض أصحابه عن عطاء بن يسار . . ويذكر أن رسول الله توعد بالتمثيل بعد قتل حمزة كما توعد المسلمون قريشا بمثل ذلك . . . الخ . . ثم قال أى ابن كثير ناقدا لهذه الرواية . . وهذا (أى الحديث) مرسل وفيه رجل مبهم لم يسم .

والرواية الأولى المروية عن أبى هريرة والتى ردها ابن كثير (وذكر ابن حجر بأن فى إسنادها ضعفا)هى التى اعتمد عليها السيوطى فى الإتقان وتابعه المؤلفون فى علوم القرآن . على أنها صحيحة ! ! . . ولم يتعرض ابن كثير بنقد للرواية القائلة بأنها نزلت فى فتح مكة ، وهى التى أخرجها الحاكم والترمذى عن أبى بن كعب . .

وعندما تعرض ابن حجر فى شرح حديث البخارى لما فعله وحشى بحمزة يوم أحد ، لم يزد على أنه نقل هذه الأحاديث دون نقدها اللهم إلا ما يتعلق بالحديث المروى عن أبى هريرة فقد قال : « وروى البزار والطبرانى بإسناد فيه ضعف عن أبى هريرة . . » وذكر الحديث . .

إلا أنه قال بعد أن ذكر الأحاديث وهو يحس قلقها وعدم قوتها : « وهذه طرق يقوى بعضها بعضا . . »

وإذا كان هذا هو حال الروايات التى استندوا إليها كلها أو بعضها فكيف بنوا عليها هذا كله ؟ وكيف تصبح الرواية صحيحة وفيها ما فيها ؟ !

ثم إننى وجدت أن السيوطى فى الإتقان بعد أن يذكر هذه الأحاديث يقول : « تنبيه » « قد يكون فى إحدى القصتين كلمة « فتلا » فيهم ، فيقول الراوى بدلها « فنزل » ثم ذكر أمثلة لمثل هذا الخطأ الذى وقع فيه الرواة . .

أعنى أن السيوطى لم يتأكد من رواية « فنزل » . ويقول لعل ذلك خطأ من الراوى والصحيح : فتلا كما حصل فى بعض الحالات . والآية لم تنزل من جديد . بل تلاها عليهم فى مكة . .

معنى هذا أن الرواية عن نزولها فى فتح مكة . لم تصل إلى درجة القوة التى تحول بين السيوطى وبين طرحه لهذا الاحتمال . ومعنى هذا بالتالى أن الرواية عن نزولها فى فتح مكة ليست قوية حتى نضطر للقول بنزول الآية مرتين .

وعلى كل حال فهذا تعقيب سريع . أردت أن أنبه الأذهان للبحث فيما ذكرته الكتب وللتأنى بقدر الإمكان فى النقل عنها . وربما أعود إليه مرة ثانية . فقد عرفنا أن الروايات التى فرضوا فيها أنها صحيحة ليست بصحيحة . بل فيها ضعف . ومن رواتها من هو منكر الحديث كما قال البخارى . ومع هذا بنوا عليها ما بنوا من القول بنزول الآية مرتين ! ! مع أن هذا القول لا يصار إليه إلا إذا كانت الروايتان صحيحتين ولم يمكن الجمع بينهما . .

وقد ذكروا أيضاً مثلا لنزول الآية مرتين بقوله تعالى :

« مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن يَسْتَغْفِرُوا۟ لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوٓا۟ أُو۟لِى قُرْبَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ ﴿١١٣﴾ »[1]

حيث روى البخارى ومسلم والنسائى وأحمد وغيرهم أنها نزلت فى مكة حين حضرت الوفاة أبا طالب عم رسول الله ﷺ . وكانت له مواقف طيبة فى حماية الرسول فحاول عند وفاته أن يستنطقه بكلمة الإسلام إشفاقا عليه . فأبى حتى مات وهو مشرك فقال رسول الله : لأستغفرن لك مالم أُنْهَ عن ذلك . فأنزل الله : (ما كان للنبى . . الآية)[2] . .

---

(١) سورة التوبة . الآية : ١١٣ .

(٢) راجع فتح البارى فى شرح البخارى الجزء العاشر باب قوله « إنك لا تهدى من أحببت » طبعة الحلبى ص ١٢٣ وما بعدها .

معنى هذا أن الآية مكية . والسورة مدنية ؛ بعضهم كالقرطبى قال باتفاق . وكذلك ابن كثير قال إنها مدنية . ومن أواخر ما نزل من القرآن . وفى المصحف أشار إلي أنها مدنية إلا الآيتين الأخيرتين : (لقد جَاءَكُم رسولٌ من أنْفُسِكُمْ . . .) . فكيف يكون ذلك وهى عند الجميع من الآيات المدنية ؟

الحديث الصحيح يقول : إنها نزلت عند وفاة أبى طالب فى مكة قبل الهجرة وهؤلاء يقولون إنها مدنية ! ! ويعضد ذلك أن هناك روايات أخرى[1] قالوا إنها ثابتة أيضاً تروى أنها نزلت عندما جلس الرسول ﷺ على قبر أمه قدم مكة بعد غزوة تبوك وبكى طويلا واستأذن ربه أن يدعو لها فلم يأذن الله له . ونزلت الآية : (ماكَانَ لِلنَّبى والَّذين آمَنوا معه . . .) . .

ومعنى هذا أنها مدنية . . فهل نأخذ برواية البخارى ومسلم وغيرهما كما حصل من قبل ونحكم بأنها مكية وضعت فى سورة مدنية . ولا بأس فى ذلك . ونضرب صفحا عن الروايات الأخرى التى رواها غير البخارى ومسلم مع أنها رويت من طرق متعددة . وقيل إن بعضها يقوى بعضا ؟ أو أننا نعتمد الروايتين ونقول بأن الآية نزلت مرتين فى مكة . وفى المدينة ونستريح . كما ذهب المشتغلون بأسباب النزول من العلماء ؟ .

وبعض العلماء سلك مسلكا آخر فقال : « يحتمل أن يكون نزول الآية تأخر وإن كان سببها تقدم . ويكون لنزولها (أى فى المدينة) سببان : متقدم وهو أمر أبى طالب . ومتأخر وهو أمر آمنة (أم الرسول صلى الله عليه وسلم) . . ولا مانع من تعدد الأسباب كما عرفنا . .

وهذا الحل يؤدى إلى أنها نزلت مرة واحدة فى المدينة لأسباب سابقة ومعاصرة لنزولها . ويكون مارواه البخارى ومسلم صحيحا . وما رواه غيرهما

---

(١) أخرجها الحاكم وابن أبى حاتم . . عن ابن مسعود والطبرانى عن ابن عباس . . والإمام حمد أيضا . وقال شراح الحديث إن هذه الروايات يعضد بعضها بعضا ويقويها . كما جاء فى كلام الحافظ ابن حجر فى شرحه للبخارى . .

صحيحا أيضاً . . غاية ما هناك أن السبب الذى ذكره البخارى قديم ، وما ذكره غيره جديد ، والآية نزلت للسببين : القديم والجديد معا . وهذا حل مبنى على الاحتمال ، مجرد الاحتمال . ذكره الحافظ ابن حجر فى شرحه لحديث البخارى فى باب قوله تعالى : (إِنَّكَ لاَتَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ) وذكر فيه حادثة وفاة أبى طالب ومحاولة الرسول ، ونزول الآية (ماكان للنبى . .)[1]

والذين يقولون بنزولها مرتين : مرة فى مكة عند وفاة أبى طالب ، ومرة فى المدينة عندما جلس الرسول على قبر أمه وهو فى طريقه لمكة . قد يثير بعض الناس على كلامهم ويرتب عليه تساؤلا هو : مادامت الآية قد نزلت فى مكة تنهى الرسول – والنفى هنا فى معنى النهى – عن الاستغفار للمشركين ولو كانوا أولى قربى ، فكيف يحاول أن يستغفر لها ؟

ونقول ردا على هذا وتوفية للموضوع – : إن الروايات التى ذكرت إنها نزلت لما ذهب الرسول لقبر أمه تقول : فاستأذن ربه أن يستغفر لها ، وتقول إن الرسول جلس على قبر فناجاه طويلا ، ثم بكى ، فبكينا لبكائه فقال : إن القبر الذى جلست عليه قبر أمى ، وإنى استأذنت ربى فى الدعاء لها فلم يأذن لى ، وأنزل على : (ماكان للنبى . .) فأخذنى ما يأخذ الولد للوالد أى من ناحية الإشفاق الطبيعى والحب للوالد والخوف عليه . . فبكى . . والحديث صريح فى أن الرسول استأذن ورجا أن يؤذن له . . فلم يقدم على المخالفة ولم يفعلها ، ولكنه انتظر الإذن فلم يؤذن له . . والاستئذان يوحى بأن أمام المستأذن شيئا ممنوعا عليه ، ولا يفعله إلا إذا أذن له مالكه وصاحب الرأى والأمر فيه . . وقد وقف الرسول ﷺ هذا الموقف لشدة رحمته وشفقته العامة وهو صاحب القلب الكبير الذى وسع الناس جميعا حتى استغفر للمشركين متأولا فصحح الله موقفه : (ولا تُصَلِّ عَلَى أَحَدٍ مِنْهُمْ مَاتَ أَبَدًا . .) . .

فليس عجيبا أن تحمله عليه الصلاة والسلام شفقته وبره بأمه وخوفه عليها من

(١) وذلك فى الجزء العاشر طبعة الحلبى ١٣٧٨ هـ ١٩٥٩ م ص ١٢٣ .

النار على أن يستأذن ربه . لعله يأذن له . فلم يأذن ، حين أعاد الله عليه الآية التى نزلت من قبل تؤكد للرسول استمرار النهى : فصدع بالأمر وبكى بكاء الرحماء وأعظم الرحماء .

فلفظ الحديث الثانى (استأذن) يفيد نزول النهى من قبل وعلم الرسول به ولكن الأمل والرحمة فى القلب الكبير جعلاه يحاول ويستأذن . فرد الله على استئذانه بتذكيره بهذه الآية نصا (ماكان للنبى . . الآية) . .

ونحن – ولله المثل الأعلى – نعيد كلامنا نصا لمن يلح ويحاول الظفر برجائه حتى نقطع عليه باب الرجاء أو التردد . . الموظف الذى يطلب إجازة من رئيسه فيقول له : « العمل كثير ولا إجازات » فيخرج . . ولكنه يعاود الرجاء بعد يوم أو أسبوع أو أكثر فيكون الرد تكرار الرئيس لما قاله من قبل « العمل كثير ولا إجازات » ويدرك الموظف من هذا أن الرئيس مصمم ولا فائدة فى الرجاء – ولله المثل الأعلى . وإنما ذكرنا هذا للتقريب . .

* * *

لغة القرآن

يقول الله تعالى :

« وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ » (١)

وهذا أمر طبيعى . فالرسول مبلغ عن الله إلى الناس ، وداعٍ لهم إلى رسالة الله فلابد أن تكون لغته هى لغة من يرسل إليهم ، حتى يتمكن من مخاطبتهم وشرح دعوته لهم ، والفهم منهم ، وحتى يتمكنوا هم كذلك من فهم مايقول . .

وكذلك أمر الكتاب النازل من عند الله . لابد أن يكون كذلك بلغتهم . وإلا فكيف يفهمونه ، ويطلب منهم العمل بما جاء فيه ؟ .

بل من الضرورى أن يكون نطق الرسول بلغته سليما لا عيب فيه . هذه أمور مسلمات بديهيات ، ومحمد ﷺ عربى قرشى . أرسل فى بيئة عربية . فهو وإن كانت رسالته عامة للناس جميعا على اختلاف ألسنتهم وأجناسهم ، إلا أنه عربى أرسل فى بيئة لغتها العربية ، فلابد أن يكون لسان التخاطب عربيا ، وأن يكون الكتاب الذى أنزل عليه عربيا كذلك ليفهموه ، ولا يكون لهم عذر فى الصدود عنه .

وهـذا هو الذى يذكره القرآن الكريـم :

« الٓر ۚ تِلْكَ ءَايَـٰتُ ٱلْكِتَـٰبِ ٱلْمُبِينِ ﴿١﴾ إِنَّآ أَنزَلْنَـٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢﴾ » (٢)

---

(١) سورة إبراهيم . الآية ٤ .

(٢) سورة يوسف . الآيتان : ١ ، ٢ .

« حمٓ ﴿١﴾ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ﴿٢﴾ إِنَّا جَعَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٣﴾ »(١)

ويلاحظ أنه وصف القرآن أولا بأنه (المبين) أى الواضح الموضح ، ثم ذكر فى نهاية كل آية مايفهم منه الهدف من كونه عربيا ، وهو تعقله وفهمه ، والاهتداء به ، إذ لو كان بغير العربية لما تسنى لهم فهمه وتعقله ، ولما قامت عليهم الحجة

« فَإِنَّمَا يَسَّرْنَٰهُ بِلِسَانِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٥٨﴾ »(٢)

أى نزل باللغة العربية التى هى لغتك ولغتهم حتى يتيسر لهم أن يفهموه ، ويتعظوا به ، ويستجيبوا لدعوته : (ولقد يَسَّرْنَا القُرآن للذكْرِ)

وفى سبيل إقامة الحجة على المشركين العرب بأن القرآن أمامهم عربى ، ولا عذر لهم . يقول الله

« وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ قُرْءَانًا أَعْجَمِيًّا لَّقَالُوا۟ لَوْلَا فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥٓ ءَا۬عْجَمِىٌّ وَعَرَبِىٌّ »(٣)

أى لو جعلناه بلغة غير لغتهم لا يفهمونها لاستنكروا علينا ذلك ، وطالبوا ببيانه بلغتهم ، ولقالوا محتجين : أيكون القرآن أعجمياً ، والرسول المنزل عليه عربى ونحن عرب ؟ وتكون الحجة لهم ، ولذلك قطعنا عليهم الحجة ، ولم ندع لهم عذرا ، وجعلناه قرآنا عربيا بلغتهم ، ليفهموه بمجرد قراءته أو سماعه . .

ثم إن فى نزول القرآن باللغة العربية تشريفا لهم . وتخليدا لذكرهم وذكر

---

(١) سورة الزخرف . الآيتان : ١ ، ٢ .

(٢) سورة الدخان . الآية : ٥٨ .

(٣) سورة فصلت . الآية : ٤٤ .

لغتهم ، ومن الواجب عليهم أن يفطنوا لهذا ، ويعتزوا به ، وبالرسول الذى كانت رسالته من بينهم سببا فى هذا الذكر والتشريف والخلود ويلتفوا حوله :

« لَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ كِتَٰبًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٠﴾ »[1]

ولاحظ هنا ختام الآية (أفلا تعقلون) . وآية أخرى فى هذا : (وإنه « أى القرآن » لذكرٌ لَكَ ولقَوْمِكَ وسوفَ تُسْأَلون)[2] أى عن موقفكم من هذا القرآن . .

وهل يستطيع إنسان أن ينكر ما حباه القرآن للعرب من ذكر وصيت وتشريف وتخليد ؟ وما أتاحه للغتهم من الخروج من شبه الجزيرة ، لتكون لغة أمم خارجها تعتز بها وتتخذها لغتها القومية ، بل لتكون لغة عالمية : للإذاعات المختلفة فى كل أمة ، وللمحافل الدولية ، فهل كان يتاح للعرب ولغتهم هذا كله لو لم ينزل القرآن بلغتهم ؟ إنه لكذلك . والعرب المقيمون فى مكة وخارجها من شبه الجزيرة العربية لابد أن يفهموا ذلك . ويكونوا على مستوى المسئولية منه . ويلتفوا حول الرسول وحول القرآن الذى نزل على الرسول بلغتهم . .

وهكذا ، يستثير الله العرب بأساليب شتى ليقبلوا على هدايته المركزة فى القرآن الكريم . . وينهضوا بأعباء هذه الهداية التى توفر لهم القوة والسيادة . وتوفر للغتهم كذلك الحياة والنمو والانتشار ، فاللغة دائماً تتبع قوة المتحدثين بها وسيادتهم ، وحضارتهم . . ويوم أن كان العرب أقوياء فى سلطانهم وفى حضارتهم ، كانت البعثات تأتى إليهم فى الأندلس من أنحاء أوربا تتعلم لغتهم وعلمهم ، بل كان بعض أمراء أوربا يوقعون أسماءهم بحروف عربية تعلموها ، للتفاخر بأنهم يكتبون باللغة العربية وحروفها . لغة السادة . كما يتفاخر بعضنا الآن بكتابة اسمه بحروف أجنبية . .

---

(١) سورة الأنبياء . ١٠

وما كان يحدث هذا أو ذاك من انتشار اللغة العربية وذيوع صيتها ، وصيت أهلها ، لولا أن القرآن نزل بلغة العرب . . عربيا مبينا .

وحينما حاول أعداء الرسول أن يطعنوه – وكانوا يتصيدون سهام الطعن عليه – بأنه تعلم ما يأتى به من القرآن من رجل رومى يقيم بمكة ، لاحقهم الله بالرد عليهم بهذا المنطق السهل :

« وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِّسَانُ ٱلَّذِى يُلْحِدُون إليه (أى ينسبون التعليم إليه) أعجمى وهذا (أى القرآن) لسانٌ عربىٌّ مُبِين »[1]

فكيف يتأتى للأعجمى الذى لا يجيد النطق باللغة العربية أن يعلم الرسول القرآن بهذه اللغة الفصيحة المعجزة . وفاقد الشيء لا يعطيه ؟

لكن أليس القرآن مشتملا على كلمات غير عربية كالسندس والإستبرق ، وكلمات غير ذلك يقال عنها إنها تنتمى إلى لغات الفرس أو الحبش أو الروم أو غير ذلك من اللغات ؟

ونحن نقول : فليكن هذا الذى قاله الأولون صحيحا فهل هذا يطعن فى أن القرآن عربى ؟ . . أبدا . . لا يمكن أن يكون هذا مطعنا فى عربيته ، ففى كثير من كتبنا العربية الخالصة تذكر بعض الأسماء الأجنبية عن العربية ، ومع ذلك لا يمكن لأحد القول بأن هذا الكتاب غير عربى .

فلنقل إنها أسماء أجنبية ، ولكننا أو العرب هضمناها وتكلمنا بها وعرفنا مدلولها وتداولناها بسهولة . وأصبحت جزءا أو عضوا من لغتنا ومحادثاتنا . . فهل مجرد ذكرها ، وهى قليلة ونادرة ، يجعل القرآن ، أو الكتاب الذى نؤلفه ، غير عربى ؟ أظن أن الجواب واضح لا يحتاج لبيان . .

---

(١) سورة النحل، الآية : ١٠٣ .

إن العيب ومحل الطعن يكون لو لم يكن العرب غير عارفين لمعنى هذه الكلمة وغير متداولة بينهم . لكنها معروفة ومتداولة من قبل نزول القرآن ، ويستعملونها فى محادثاتهم ، ومع ذلك فإن كثيرا من الألفاظ التى عدوها من لغات أجنبية ليست كذلك . إنها مستعملة بين العرب من قديم ، ولها تصاريفها العربية ، فعل ماض ، ومضارع ، وفعل أمر ، واسم فاعل . . . الخ . . فهل مجرد وجودها فى لغة غير العربية يعنى هذا مباشرة أنها غير عربية ؟ !

فمثلا كلمة (القسط) بمعنى العدل ، قالوا إنها غير عربية مع أن فعلها الماضى أقسط ، بمعنى عدل ، والمضارع يُقسط أى يعدل ، واسم الفاعل مُقسط ، بمعنى عادل والله يقول : (إن الله يحب المقسطين) أى العادلين . . وفعلها الثلاثى قَسط ، بمعنى ظلم ويقسط أى يظلم والقاسط ، الظالم ، ومنه قوله تعالى :

« وَأَمَّا ٱلْقَـٰسِطُونَ فَكَانُوا۟ لِجَهَنَّمَ حَطَبًا ﴿١٥﴾ » (١)

والقسطاس هو الميزان الذى يوزن به لبيان الحق ، أو هو آلة العدل :

« وَأَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ وَزِنُوا۟ بِٱلْقِسْطَاسِ ٱلْمُسْتَقِيمِ » (٢)

« وَأَقِيمُوا۟ ٱلْوَزْنَ بِٱلْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا۟ ٱلْمِيزَانَ ﴿٩﴾ » (٣)

« وَأَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ بِٱلْقِسْطِ » (٤)

فكيف نقبل بسهولة أن هذه الكلمة أجنبية ؟ .

ومثل ذلك ما قيل فى كلمة (أليم) بمعنى موجع . قالوا عنها : إنها زنجية أو عبرية مع أن لها تصاريفها العربية مثل أية كلمة أخرى عربية :

---

(١) سورة الجن . الآية : ١٥ . (٢) سورة الإسراء ، الآية : ٣٥ .
(٣) سورة الرحمن ، الآية : ٩ . (٤) سورة الأنعام ، الآية : ١٥٢ .

« إن تَكُونُوا تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ وَتَرْجُونَ مِنَ اللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ »[1]

حتى كلمة (بعير) التى هى ألزم الكلمات لكلام العربى وحياته قالوا : إنها عبرية ! !*ولنفرض أن هذه الكلمات ومثيلاتها مثلا وجدت فى لغة أخرى فهل معنى هذا أننا نقطع مرة واحدة بأن اللغة الأخرى هى الأصل ولغتنا تبع ؟ ألا يجوز مثلاً أن تكون من الكلمات المشتركة بين لغات متعددة متقاربة . كالعربية والعبرية والفارسية . .

لكن ليس معنى هذا أننا ننكر وجود بعض ألفاظ غير عربية الأصل فى القرآن ، بل نقف فى وجه الذين يفرطون فى ذلك ، ويجعلون العربية تابعة آخذة باستمرار من لغات أخرى غيرها . .

فمن المعروف أن بعض الكلمات التى وردت فى القرآن أصلها فارسى ، مستعملة فى لغة الفرس مثل (استبرق) ، (سندس) . كما جاء فى القرآن الكريم فى وصف نعيم أهل الجنة : (عاليهم ثِيَابُ سندسٍ خضر واسْتَبْرق) أى ثياب من سندس وثياب من استبرق وهما مارق وخف من الحرير أو ماغلظ وثقل منه أى ثياب حرير خفيفة وثقيلة . . كما قال فى سورة الرحمن فى وصف النعيم أيضاً :

« مُتَّكِئِينَ عَلَىٰ فُرُشٍ بَطَآئِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ »[2]

أى من حرير سميك . .

فهذه أسماء فارسية الأصل لكنها استعملت فى لغة العرب على مدلولها المعروف لدى الفرس ، وتناقلها العرب فى كلامهم ، حتى أصبحت معروفة تماما لديهم ،

---

(١) سورة النساء . الآية : ١٠٤

(٢) الآية : ٥٤

ولا بأس على أى كاتب أن ينقل الأسماء كما هى فى لغتها الأصلية إلى لغته ، فإذا صار ذلك أمراً معروفاً لدى الخاص والعام على مر السنين والقرون صارت كأنها من الكلمات الأصيلة التى لا يستنكر الكلام بها . . كما نقول : إنها أجنبية عربت وصارت معربة . .

وهـذا لا يطعن أبدا فى القرآن ، بل إنه دليل على رحابة اللغة العربية واتساع صدرها لهضم بعض الكلمات الأجنبية وأقلمتها . .

ولعل هذا يتيح لنا أن نستعمل استعمالا صحيحا فى لغتنا العربية بعض الكلمات الأجنبية التى شاعت وذاعت حتى لدى العوام ، دون حرج أو خوف على اللغة العربية . .

على أن العلامة ابن جرير الطبرى صاحب التفسير المعروف باسمه يأبى [1] أن يسلم حتى بهذا القدر ، ويناقش الذين يقولون إن فى القرآن بعض الكلمات الأعجمية . فيقول : ليس معنى قول الأقدمين إن كلمة كذا معناها كذا بلسان الحبش أو الفرس ، أن الكلمة قطعا حبشية أو فارسية ، وأن العرب لم يستعملوها قبل نزول القرآن ، إذ من المعلوم أن اللغات قد تشترك فى بعض الكلمات ، فإذا كانت هناك كلمة فى لغة الحبش ولغة العرب ، فلماذا نقول إنها حبشية ، ولا نقول : إنها كذلك عربية ! مادام استعمال الكلمة فى اللغتين بمعنى واحد ، ولفظ واحد ، فمن ادعى نسبتها إلى لغة دون لغة كان مدعيا بدون دليل . .

فالصواب كما قال : أن يسمى عربيا أعجميا ، أو حبشيا عربيا ، فالدرهم والدينار والدواة والقلم اتفقت ألسن الفرس والعرب فيها بألفاظ واحدة ومعنى واحد ، فالصواب أن تسمى عربية فارسية ، لا عربية فحسب ، ولا فارسية فحسب . وعلى هذا ، يفهم قول القدامى : إن فى القرآن كلمات فارسية أو رومية . .

---

(١) وذلك فى مقدمة تفسيره التى طبعها مستقلة المرحوم الأستاذ أحمد شاكر وأخوه الأستاذ محمود شاكر مدّ الله فى عمره . وقام بطبعها وطبع ما حققاه من التفسير دار المعارف بمصر .

والطبرى يتشبث بهذا التخريج ، ويطيل التدليل عليه . . ويقول إن الذين نسبوا هذه الكلمة إلى لغة الفرس أو الروم أو الحبش لم ينفوا أنها عربية ، فهم يشيرون فحسب إلى أنها موجودة فى لغة الفرس ؛ « لأن من نسب شيئاً من ذلك إلى ما نسبه إليه لم ينف – بنسبته إياه إلى ما نسبه إليه – أن يكون عربيا ، ولا من قال منهم : هو عربى ، نفى ذلك أن يكون مستحقا النسبة إلى من هو من كلامه من سائر أجناس الأمم غيرها » . . يريد أن من قال إن الكلمة عربية لا ينفى ولا يمنع نسبتها إلى كلام أجناس غير العرب ؛ « لأن الإثبات إنما يكون دليلا على النفى فيما لا يجوز اجتماعه من المعانى كقول القائل : فلان قائم فيكون بذلك من قوله دالا على أنه غير قاعد » .

وبعد أن يسوق كلاما طويلا فى التدليل يقول : « وإذا كان ذلك كذلك فَبَيِّنٌ إذًا خطأ من زعم أن القائل من السلف : فى القرآن من كل لسان ، إنما عنى بقيله ذلك ، أن فيه من البيان ماليس بعربى ، ولا جائز نسبته إلى العرب » .

وهو يرفض حتى مايقال إن هذه ألفاظ غريبة دخلت للعرب فتكلموا بها وعربوها وعلى ذلك جاءت فى القرآن .

ويقول : « ويقال لمن أبى ماقلنا ممن زعم أن الأحرف التى قدمنا ذكرها فى أول الباب وما أشبهها (يريد بالأحرف الكلمات مثل قرطاس ودواة وقلم) إنما هى كلام أجناس من الأمم سوى العرب وقعت إلى العرب فعربته – مابرهانك على صحة ماقلت فى ذلك من الوجه الذى يجب التسليم به ؟ » . .

وأخذ يناقشه لينتهى إلى صحة مارآه . .

والسبب فى موقف الطبرى[1] هذا الموقف – كما يبدو لى وكما صرح به أيضاً – أنه يفهم من وصف الله للقرآن بأنه عربى ، أن مقتضى هذا الوصف ينفى أن

---

(١) جاء فى الإتقان للسيوطى (النوع الثامن والثلاثون) أن الأكثرين على هذا الرأى . ومنهم الشافعى وأبو عبيدة والقاضى أبو بكر وابن فارس . حتى قال أبو عبيدة : « من زعم أن فيه غير العربية فقد أعظم القول » . .

تكون أية كلمة فيه غير عربية ؛ لأن وجود كلمة أصلها غير عربى حتى ولو عربتها العرب وتداولتها ألسنتهم طويلا يتنافى مع وصفه بأنه عربى . .

والواقع أن الذين قالوا بأن فى القرآن ألفاظا غير عربية « زودوها » كثيرا . حتى ذكروا من هذه الألفاظ ما سبق لنا عرضه من كلمات : القسط ، أليم ، بعير . . وما ذكرناه من تصاريفها العربية مما يقطع بأنها عربية ، وإن وجدت فى لغات أخرى ، فإن مجرد وجودها فى لغة أخرى لا يقوم دليلا على أنها ليست عربية . .

فكان الموقف المتشدد من الطبرى مقابلا لهذا التوسع فى سرد كلمات غير عربية فى القرآن ، وكلا الموقفين يحتاج إلى مراجعة طويلة ودقيقة لأصول هذه الكلمات وتاريخها فى اللغات المتعددة . .

وقد رفض الطبرى – كما سبق – حتى القول بأن هذه كلمات أجنبية على العرب دخلت إليهم فاستعملوها وعربوها ، وصارت مفهومة مستعملة لهم ، قبل نزول القرآن . وإن كنا لا نرى بأساً فى هذا الرأى الذى رفضه الطبرى وغيره ؛ لأن مجرد وجود كلمات معربة ، وبدون توسع ، لا يطعن فى كون القرآن عربياً كما سبق أن قررنا .

فما لاشك فيه أن القرآن اشتمل على كلمات هى أسماء أعجمية لأنبياء أو لأشياء لم تكن تستعملها العرب . .

فأسماء الأنبياء الوارد ذكرهم فى القرآن كلها أعجمية ما عدا صالح وشعيب ومحمد ، وهم من أصل عربى أرسلوا فى أمم عربية . . والأسماء الأجنبية تنقل من لغتها إلى غيرها من اللغات كما هى وقد يصيبها شىء قليل من التعديل فى النطق حسب اللسان المنقول إليه . . وهذا أمر مقرر معروف .

وكذلك أسماء الأشياء مثل استبرق للثوب الغليظ السميك من الحرير ، وسندس للثوب الحرير الخفيف ، أكواب ، أباريق ، أرائك ، قرطاس وقراطيس . . . وغير ذلك من أسماء الأماكن والأدوات غير العربية مما استعمله العرب وفهموا مدلوله وأصبح شائعا عندهم ، ما الذى يمنع من استعماله فى

القرآن ؟ وهل يغض من كونه عربيا أن تذكر فيه هذه الأسماء ، وبأى اسم عربى أصيل مثلا كان يذكر أسماء الأنبياء السابقين من غير العرب ؟ هل كان القرآن يغير أسماءهم ويضع لهم أسماء عربية ؟ هذا غير مقبول .

وكذلك حين يريد القرآن التعبير عن نعيم أهل الجنة وما يلبسونه ، وجد أن العرب تعرف تماما معنى كلمة استبرق ، وسندس ، وأكواب وقرطاس ، من هذه الأسماء أو الأعلام وتستعملها فى كلامها ، فاستعملها فى مدلولاتها ، بدلا من أن يذكر معناها بكلمات متعددة ، كأن يعبر بدلا من استبرق : بالثياب المنسوجة من الحرير الثقيل ، سندس : بالثياب المنسوجة من الحرير الخفيف . . . وهكذا – أو يأتى لها باسم جديد غريب على أسماعهم . .

ويقول الجوينى إن مما تقتضيه فصاحة القرآن أن يعبر بلفظ واحد مفهوم المعنى بدلا من عدة ألفاظ ، فوضع (استبرق) فى مدلوله هو غاية الفصاحة : « ولا شك أن الذكر باللفظ الواحد الصريح أولى ، لأنه أوجز وأظهر فى الإفادة » . . ولا يوجد فى لغة العرب كلمة واحدة تدل على ما تدل عليه كلمة (استبرق) ؛ لأن العرب لم يكن لهم عهد بملابس الحرير بأنواعها فسمعوا أسماءها من الفرس أو غيرهم واستعملوها ، واكتفوا بها ، وصارت بذلك من ألفاظ العربية أيضاً . .

وقال أبو عبيد القاسم بن سلام – كما نقل السيوطى – يجمع بين المخالفين والمؤيدين : « والصواب عندى مذهب فيه تصديق القولين جميعا ، وذلك أن هذه الأحرف (أى الكلمات) أصولها أعجمية لكنها وقعت للعرب فعربتها بألسنتها وحولتها عن ألفاظ العجم إلى ألفاظها ، فصارت عربية ، ثم نزل القرآن وقد اختلطت هذه الحروف بكلام العرب ، فمن قال : إنها عربية فهو صادق ، ومن قال أعجمية فهو صادق » . .

وهذا الرأى هو الذى يقبله العقل ويؤيده الواقع ، ولا غضاضة فيه – كما قلنا – على كون القرآن عربيا . .

ولو لم تكن هذه الألفاظ التى يمكن تسميتها بالألفاظ الحضارية التى لم تعرفها أصلا حضارة العرب ، لو لم تكن قد نقلت للعرب بسبب اختلاطهم بمن حولهم ، وأصبحت معروفة تماماً عندهم ، ما استعملها القرآن فى معرض الإغراء بالجنة ونعيمها ، وإلا فكيف يغريهم بما يجهلونه من السندس والإستبرق مثلا ؟ وبذلك يمكن أن ننتهى من الكلام فى هذا الموضوع إلى رأى نطمئن إليه لننتقل إلى مناقشة موضوع آخر مهم أيضاً ، وهو اللهجة العربية التى نزل بها القرآن من بين لهجات العرب المختلفة . .

* * *

بأية لهجة عربية نزل القرآن
وما معنى نزوله على سبعة أحرف ؟

نزل القرآن عربيا مبينا ، هذا أمر لاشك فيه ، ولكن العرب سكان الجزيرة العربية لم تكن لهجتهم فى النطق أو فى بعض الكلمات واحدة مع أن لغتهم جميعاً هى اللغة العربية . .

ذلك ؛ لأن العرب كانوا قبائل متعددة فى شمال الجزيرة وجنوبها ووسطها وشرقها وغربها ، وكانت طبيعة الحياة فى الجزيرة تفرض على كل قبيلة التعصب لنفسها ، كما تفرض على سكانها شيئاً من الانعزال ، فكل قبيلة أمة فى نفسها بعاداتها الخاصة ولهجتها الخاصة ونسبها . . الخ . . إذ لم تكن لهم دولة تجمعهم وتصهرهم جميعاً فى إطارها .

وحتى لو كانت لهم دولة فإن الخصائص لكل قبيلة فى لهجتها وعاداتها لا يمكن أن تزول بتبعيتها لدولة سياسية عربية . .

وأقرب مثل نضعه أمامنا ما نراه فى البلاد العربية . فكلها تتكلم العربية الفصحى والعامية أو الدارجة . ومع ذلك نجد لكل قطر لهجة فى نطق الكلمات الفصيحة ، ونجد له ألفاظا لا يستعملها القطر الآخر . .

بل إننا فى مصر مثلا نجد لهجة الصعيد غير لهجة الوجه البحرى ، بل إننا نجد فى كل من الصعيد والوجه البحرى لهجات تختلف من منطقة إلى منطقة ، حتى يمكننا بمجرد سماع المتكلم أن نعرف : من أية جهة هو : منوفى . شرقاوى . دمياطى وهذا مثل نقرب به فقط ما قرره الدارسون من أن العرب وإن كانت لغتهم جميعاً عربية ، تجمعهم اللغة الأم ، إلا أنه كان للقبيلة منهم أو لسكان الجنوب أو الشمال لهجة فى نطق الكلمات العربية ، وألفاظ عربية تستعملها ولا تستعملها القبيلة أو المنطقة الأخرى ، والمعنى واحد لا يتغير بتغير اللهجة أو الكلمة ، فقبيلة تنطق الحاء عينا فى مثل : (طلح منضود) فتقول : (طلع

منضود) و(عتى عين) فى (حتى حين) . وأخرى تنطق الألف واللام « ال » فى الكلمة « ألفا وميما » بجعل الميم بدل اللام ، فتقول كما ورد : « ليس من امبر امصيام فى سفر » بدلا من « ليس من البر الصيام فى سفر » . .

وقبيلة تكسر أول المضارع حين تنطق به فتقول : (يوم تِبيضُّ وجوه وتِسْوَدُّ وجوه) بكسر التاء بدلا من : (يوم تَبيضُّ وجوه) بفتح التاء .

وقبيلة تنطق (قيل وغيض) بإشمام الضم كسرة أى النطق بها بين الضمة والكسرة . . وأخرى تنطقها كما تنطق عادة بالكسرة الخالصة . .

وقبيلة تنطق (يؤمن) بالهمزة وهى قبيلة تميم ، بينما قريش تنطقها بدون همز (يومن) .

وتميم تنطق وتقرأ : (ماهذا بشر) فلا تجعل ما عاملة عمل ليس فى رفع الاسم ونصب الخبر على عكس القرشيين أو الحجازيين كما يقول النحويون ، فإنهم يجعلونها عاملة عمل ليس فينطقون : (ماهذا بشرا) . . وقبيلة تنطق : (أنعمت عليهُم) بضم الهاء وأخرى تكسرها . وتشبع الميم (عليهمو) وأخرى تسكنها (عليهمْ) . .

وقبيلة تنطق (موسى وعيسى) مثلا بالإمالة (حركة بين الفتح والكسر) وأخرى تنطقها بالفتحة الخالصة مع المد . .

والحجازيون يفكون الإدغام فى مثل قوله : (من يرتدد منكم عن دينه) . . (ومن يَحْلل عليه غضَبى) . . (من يُشَاقِق الرسولَ) . . (فليمدُد له الرَّحمنُ مدًّا) . . (أشدُد به أزْرى) .

وتميم تدغم المثلين فى ذلك كله : (من يرتدّ ، من يحلّ ، من يشاقّ ، فليمدّ ، أشدّ) وهكذا . .

وجاء القرآن وفيه اللغتان :

« يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ »[1]

« وَمَن يَحْلِلْ عَلَيْهِ غَضَبِى فَقَدْ هَوَىٰ ﴿٨١﴾ »[2]

والمعنى فى ذلك كله لم يتغير بتغير لهجة النطق . .

هذا فى نطق الكلمة . .

وقد يكون هناك معنى واحد تعبر عنه القبائل بألفاظ مختلفة ، كل قبيلة تعبر عنه بلفظ يختلف عن اللفظ الذى تعبر به قبيلة أخرى ، وقد ينتج عن هذا أن قبيلة لا تعرف اللفظ الذى تستعمله القبيلة الأخرى ، وقد تعرفه ولكن لا تستعمله ، أى لا يطاوعها لسانها على استعماله . . ويمكن أن نجد لذلك شبيها فى أوساطنا . ومن هذا ماروى عن ابن عباس رضى الله عنهما أن أعرابيين اختصما لديه فى بئر ، فقال أحدهما : أنا فطرتها أى حفرتها وأوجدتها ، وعارضه الثانى . قال ابن عباس : ففهمت حينئذ معنى : (فاطِرِ السَّمواتِ والأَرضِ) . . .

وروى عنه أيضاً أنه لم يكن يفهم معنى قوله تعالى :

« رَبَّنَا ٱفْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِٱلْحَقِّ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْفَٰتِحِينَ ﴿٨٩﴾ »

حتى سمع فتاة من اليمن تنادى زوجها وتحدثه (أفاتحك) أى أحاكمك . فتكون افتح بمعنى : احكم ، ولم تكن مستعملة فى قريش ، وروى عن عمر رضى الله عنه أنه سأل عن معنى الآية : (أو يأخذُهم عَلى تَخوفٍ) ، فقيل له معناها : تَنقُّص . .

والذى نفهمه من هذه الروايات أن كلمة : فاطر بمعنى موجد ، لم يعرفها ابن

---

(١) سورة المائدة ، الآية : ٥٤ .

(٢) سورة طه . الاية : ٨١ .

عباس ؛ لأنها لم تكن مستعملة فى وسطه الذى نشأ فيه بالحجاز . إذا قلنا إن ابن عباس كان على فطرة العرب الذين يلمون بلغة قبيلتهم وهذا هو المفهوم ، وكذلك كلمة (افتح) لم يفهمها فى لغته بمعنى (احكم) ، وكذلك الحال فى كلمة (تخوُّف) التى سأل عنها عمر . . ومعنى هذا أن هذه الكلمات وأمثالها جاءت فى القرآن حسب استعمال بعض قبائل عربية لها غير قريش . .

وإذا صح هذا ، كان دليلا على أن القرآن فيه ألفاظ ولهجات من قبائل عربية متعددة غير قريش ، وبينما كانت بعض هذه الألفاظ مفهومة لدى قبيلة ، لم تكن معروفة لدى القبيلة الأخرى ، وباندماج القبائل وتوحدهم بالإسلام تناقلت كلماتهم إلى غيرهم ، وعرفت وتحدثوا بها ، ولم تعد مقصورة على القبيلة التى نشأت فيها الكلمة ؛ ولو أن انتشارها خارج قبيلتها سيكون أقل ، وعلم الناس بها أقل . .

ولعل الذى يفسر لنا هذا ويوضحه ما روى عن عمر رضى الله عنه قال : قلت يا رسول الله إنك تأتينا بكلام من كلام العرب ، وما نعرفه ، ولنحن العرب حقا . . فقال له رسول الله ﷺ : (**إن ربى علمنى فتعلمت ، وأدبنى فتأدبت**) . .

ومن المعروف أن وفود بعض القبائل كانت تأتى لرسول الله ﷺ فتحدثه . ويحس الذين حوله أنها تحدثه بألفاظ غريبة عليهم أحيانا ، وكان الرسول يجيبهم بنفس أسلوبهم تاركا مؤقتا أسلوبه العادى الذى يسمعه الصحابة كل يوم منه ويفهمونه . . .

وهذا هو الأمر المناسب لرسول الله الذى أمر أن يخاطب الناس على قدر عقولهم ، وأمرنا بذلك ، والذى علمه ربه فتعلم وأدبه فتأدب . .

والإنسان منا يتحدث مع من حوله بأسلوب معتاد لهم جميعا ، فإذا جاءه من يتحدثون بالفصحى ، ويغربون فى كلامهم ، فإنه يرتفع بأسلوبه ويحدثهم حسب أسلوبهم على قدر ما آتاه الله من علم وأدب . والله هو الذى علم الرسول مالم يفهمه عمر وغيره .

ومغزى هذه الرواية أن العربى فى الحجاز مثلا لم يكن بقادر على أن يحيط بكل لهجات القبائل وبالعكس . . وأنه كانت هناك ألفاظ تستعملها قبيلة ، وتخفى على قبيلة أخرى ؛ لأنها تستعمل لفظا آخر للدلالة على هذا المعنى . . فقبيلة تستعمل (أفاتحك) والأخرى تستعمل بدلا منها (أحاكمك) وهكذا ، وإذا كان هذا هو واقع الحال عند نزول القرآن فإنه لابد أن يرد على الذهن هذا السؤال : كيف جابه القرآن هذه الحالة ؟ هل اختار نطق قبيلة واحدة ونزل على مقتضاها مهملا نطق القبائل الأخرى ؟ أو أنه راعى حال القبائل ونطقها ولهجاتها ؟ أعنى راعى مقتضى الحال ؟

لقد نزل القرآن الكريم على الرسول فى مكة أولا ، ثم فى المدينة ، وكانت الحجاز باعتبار أن عاصمتها مكة ملتقى الوفود ، وبيتها الحرام مهوى أفئدة العرب ، يأتون إلى مكة للحج من قبل بعثة الرسول ، ولعقد الندوات الأدبية وإلقاء قصائد الشعراء الوافدين من أنحاء الجزيرة فى أسواقهم الأدبية والتجارية : سوق عكاظ . والأسواق الأخرى . . وكان أهل مكة تجارا كثيرى التنقل للشمال والجنوب مخترقين الجزيرة ومختلطين بقبائلها فى تنقلاتهم :

« لِإِيلَٰفِ قُرَيْشٍ ۝١ إِۦلَٰفِهِمْ رِحْلَةَ ٱلشِّتَآءِ وَٱلصَّيْفِ ۝٢ »

وهذا الوضع – أعنى الاختلاط مع الوفود التى تأتى لمكة للحج أو التجارة ومع القبائل فى تنقلاتهم شمالا وجنوبا – كان له أثره بالطبيعة فى تهذيب لغتهم وإثرائها بما عرفوه من بعض كلمات ولهجات هذه القبائل أو معرفتهم بها على الأقل ، وإن كان هذا لا يمنع أن تظل هناك كلمات ولهجات لا تعرفها[1] ، كما أن القبائل وإن كانت وفودها تأتى لمكة أثناء حجها فإنها تظل على عهدها بلهجتها متمسكة بها ، متعصبة لها . . فكثير من أنحاء العالم الإسلامى الآن يذهبون لمكة كل عام للحج ولكنهم لا يتأثرون بلهجة أهلها ، وإن كانوا ينقلون عنهم بعض

(١) كما يلتقط المصرى بعض كلمات مستعملة فى سوريا أو لبنان أو الخليج ويستعملها ، لكنه بلا شك لم يحط علما بكل الكلمات المغايرة لنا نحن المصريين .

الألفاظ الغريبة ، ويتحدثون عن بعض العادات ، دون التأقلم بما يجرى فى مكة .

ومعنى هذا أن الاختلاف فى اللهجة وفى التحدث ببعض الألفاظ الخاصة بالقبيلة ظل يفرض وجوده على الوضع العربى فى شبه الجزيرة العربية . .

وهذا الوضع هو الذى تساءلنا عنه من قبل وقلنا : هل راعاه القرآن حين النزول أو أهمله ؟

إن القرآن الكريم نزل يخاطب العرب جميعا أولا . . ولم ينزل لأهل مكة وحدهم أو المدينة وحدهم وإن نزل بينهم . .

والرسول ﷺ مكلف بتبليغ دعوته لقومه العرب أولا ، ولغيرهم ثانيا . فمن الطبيعى أن يكون أهل مكة أو المدينة هم أول من تبلغهم الآيات النازلة ، وأن يكون لموقفهم منها أثر وصدى فى نزول ما ينزل ، للرد على ما يثيرونه ، أو بيان الأحكام التى يطلبونها ويحتاجون إليها . . وهو مع ذلك خطاب مباشر لكل العرب ولكل من تبلغه دعوته . .

ومن الطبيعى ألا تحمل الدعوة فى طياتها أو فى أسلوبها عراقيل فى طريق تبليغها ، بل الطبيعى أن يحرص الداعى على إيصال دعوته لكل من يريد . ويعمل على إزاحة العقبات من طريقها . .

ومقتضى هذا أن يراعى فى نزول القرآ هذا الوضع فلا يكلف العرب جميعا – والرسول فى سبيل تألفهم – بقراءة القرآن على أساس لهجة واحدة هى لهجة قريش مثلا ، مع إهمال ما عداها ، مع صعوبة ذلك على ألسنتهم وعلى أنفسهم أيضاً لما فيهم من عصبية . . والرسول ﷺ بعث ميسرا لا معسرا . والقرآن نفسه يقرر قاعدة « لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا »

« يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ »

« يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ »

والدعوة فى نشأتها تحتاج لهذا الأسلوب أكثر من أى وقت آخر . . فكيف ندعو قبيلة تميم مثلا لقراءة القرآن على لغة الحجاز : (فليمدُدْ لَهُ الرَّحْمَن مدًّا) ولسانها لا يطاوعها إلا النطق بالإدغام (فليمدَّ) ؟ كيف نكلفها بقراءة (ما هذا بشرًا) بالنصب وهى بفطرتها لا تستطيع النطق بنصب (بشر) بل ترفعه (ما هذا بَشَرٌ) ؟

فهل من منطق التيسير مثلا أن نكلفهم النطق رغما عنهم بلغة الحجازيين ونحن نتألفهم ؟ هل نقول لهم إما أن تقرءوه بلغة غيركم وإما لا حاجة بنا إليكم ؟ ؛ لأنكم لو قرأتموه بلغتكم تكونون قد بدلتم فيه وغيرتم ، وهذا غير مقبول ! أعتقد أن هذا يكون مخالفا لمنطق التيسير . والحرص على تبليغ الدعوة ، وتسهيل قراءة القرآن لكل قبائل العرب على اختلاف لهجاتها ، حتى يسهل عليهم الانضمام للإسلام . . لهذا ، أذن الله سبحانه لنبيه ﷺ أن يأذن للعرب بقراءة القرآن حسب ما اعتادوا من النطق فى بعض الكلمات تيسيرا عليهم ورحمة بهم ، كما أنزل الله فى آياته بعض كلمات تستعملها أصلا قبائل أخرى غير قريش كما مر ذكر أمثلة لهذا : (فاطر) ، (افتح بيننا) ، (على تخوف) . . . الخ . .

وقد جاء هذا الإذن عقب محاورة ومراجعة ورجاء بين الرسول وبين جبريل ، استجاب الله بعدها لطلب رسوله ورجائه أن يخفف الله عن أمته فى قراءة القرآن ، كما استجاب له من قبل حين المعراج فى رجائه أن يخفف عن أمته عدد الصلوات ، من خمسين إلى خمس ، تكريما لرسوله ورحمة بأمته . .

والحديث الصحيح المروى عن رسول الله ﷺ من عدة طرق حتى بلغ حد التواتر يبين هذا ، وهو كما رواه مسلم وغيره عن أبى بن كعب قال : (إن النبى ﷺ كان عند أَضَاة[1] بنى غفار . قال فأتاه جبريل فقال : إن الله يأمرك أن

(١) أضاة كحصاة ، غدير صغير ، وقيل : مسيل الماء للغدير . موضع قريب من المدينة ، قيل : هو قباء كما جاء فى حديث آخر : لقى رسول الله جبريل عند أحجار المراء . . الخ . وأحجار المراء هى موضع بقباء . وقال مجاهد : هى قباء . وقد حقق ذلك الأخوان « شاكر » فى المقدمة ص ٣٥ ، ٣٦ وانتهيا من تحقيقها بأنه موضع بالمدينة يقينا ، وكونه بالمدينة يهمنا عند الكلام على بدء ظهور الحاجة إلى ذلك . وقد ذكرا هذا الحديث ورواته فى ص ٤٠ من المقدمة .

تقرئ أمتك القرآن على حرف . قال : أسأل الله معافاته ومغفرته وإن أمتى لا تطيق ذلك . قال : ثم أتاه الثانية فقال : إن الله يأمرك أن تقرئ أمتك القرآن على حرفين . قال : أسأل الله معافاته ومغفرته وإن أمتى لا تطيق ذلك ، ثم جاءه الثالثة فقال : إن الله يأمرك أن تقرئ أمتك القرآن على ثلاثة أحرف . قال : أسأل الله معافاته ومغفرته ، وإن أمتى لا تطيق ذلك . ثم جاءه الرابعة فقال : إن الله يأمرك أن تقرئ أمتك القرآن على سبعة أحرف . فأيما حرف قرءوا عليه فقد أصابوا) . .

وهذه الرواية تبين المكان الذى حصلت فيه هذه المراجعة ، وكما يبدو لنا أنها كانت أول حديث ومراجعة فى هذا الأمر بين الرسول وبين جبريل . . وراويها وهو أبى بن كعب يرويها بظروف الحال والمكان : « كان عند أضاة بنى غفار فأتاه جبريل . . . الخ » . .

وقد روى هذا بطرق كثيرة وألفاظ مختلفة نوعاً ما ، وطولا وقصراً وكلها متواترة ، وتقرر حقيقة واحدة هى : « أن القرآن أنزل على سبعة أحرف » وفى إحدى هذه الروايات رواية عن ابن عباس ذكر أحد رواتها وهو ابن شهاب بعد إيرادها : « بلغنى أن تلك السبعة الأحرف إنما هى فى الأمر الذى يكون واحداً لا يختلف فى حلال ولا حرام »[1] أى أنها فى مجرد النطق ولا تمس صلب الموضوع . .

وقبل أن ندخل فى مناقشة المراد بالسبعة الأحرف لابد أن نقف قليلاً لنعرف الوقت الذى حدث فيه هذا التيسير ، لأنه يعيننا على فهم الأحرف السبعة وما فيها من تيسير ، والباعث عليه . .

ذكر راوى الحديث السابق أن جبريل نزل على الرسول وحدثت المراجعة وطلب التيسير على الأمة عند « أضاة بنى غفار » وهى قباء أو مكان غيرها قرب المدينة ، كما سبق توضيح ذلك فى الهامش . .

---

(١) ص ٢٩ من المقدمة المصدر السابق .

معنى هذا أن المراجعة وطلب التيسير لم تحدث إلا بعد الهجرة . فلماذا ؟ لماذا لم يطلب الرسول ذلك فى مكة وقد ظل القرآن ينزل نحو ثلاثة عشر عاما ، وقد نزل أكثر من نصفه ؟ هل وجدت دواع لهذا الطلب فى المدينة لم تكن موجودة فى مكة ؟ هل يمكن أن يقال إن الرسول سها أو نسى أو لم يقدر الظروف قبل ذلك . . أى قبل أن يطلب هذا الطلب فى مكة أو فى أيام أو شهور أو سنين قبل ذلك بالمدينة ؟ . . لا يمكن أن يقال هذا بحال من الأحوال . . . ولا أظن أن هناك احتمالاً آخر غير هذه الاحتمالات . .

إذن ، لم يبق أمامنا إلا أنه جدت دواع لذلك فى المدينة لم تكن موجودة فى مكة . ومن واقع هذه الدواعى والحاجة وتقديرا لها من الرسول لمجابهة الواقع والدواعى أمامه . طلب ما طلب فأجيب . .

فما هذه الدواعى ؟ وما الذى جد فى المدينة ولم يكن موجودا فى مكة ؟ إن الظاهر من ألفاظ الحديث أن طلب التيسير كان مسببا بأن الأمة لا تطيق قراءته بحرف « أسأل الله معافاته ومغفرته وإن أمتى لا تطيق ذلك » . . وسؤال الرسول لربه ورجاؤه منصب على عدم إلزام أمته بقراءة القرآن بحرف واحد . وعلى التوسعة عليها بقراءته بأكثر من حرف وصلت إلى سبعة ، والرسول كان يستزيد من التوسعة حتى وقفت عند سبعة ، لقد كان المسلمون يقرءون القرآن فى مكة ولم ير الرسول من الظروف ما يجعله يطلب هذا الطلب . وإلا لو كانت الظروف موجودة لطلب التيسير . . ومن استعراض خطوات الدعوة ، ومدى الاستجابة لها . وانتشارها فى القبائل يمكن أن نقرر : أن الدعوة فى مكة ظلت محصورة داخل مكة . لم تخرج موجتها من دائرتها إلى قبائل دخلت فى الإسلام واحتاجت لقراءة القرآن بلهجتها ، ووجدت شيئاً من العسر فى نطق بعض الكلمات . لم نجد شيئاً من ذلك ، بل كانت الدعوة تتعثر خطواتها فى مكة نفسها .

لذلك ، كان المسلمون القليلون الذين يقرءون القرآن متفق اللهجة ، وكان القرآن ينزل أصلا بلهجة الرسول أى بلهجة المكيين القرشيين الذين لم يجدوا مشقة فى قراءته بهذه اللهجة . .

أما بعد الهجرة فقد اتسعت الرقعة وامتدت موجة الدعوة حتى شملت الأنصار من المدينة وبعض القبائل المنتشرة على رقعة شبه الجزيرة . . وأعتقد أن طلب التيسير لم يحدث فى السنين الأولى بعد الهجرة ، ولكنه حدث بعد امتداد رقعة الإسلام إلى قبائل كثيرة مختلفة فى لهجتها عن لهجة القرشيين ، وهذا لم يحدث إلا بعد أن انتصر المسلمون على أهل مكة وظهر لأهل الجزيرة قوة الإسلام واستقرار أمره وضعف معارضيه ، وإذا شئنا تحديد وقت بالتقريب اندفعت فيه القبائل لاعتناق الإسلام . أمكن أن نقول إن هذا الوقت بدأ واضحا بعد عهد الحديبية فى السنة السادسة بعد الهجرة . .

وهذا لا يمنع أن أناساً من قبائل شتى دخلت فى الإسلام قبل ذلك . واحتاجت لقراءة القرآن . . وبدأت المشكلة تظهر . لكنها لم تبلغ مبلغ الظاهرة التى تحتاج لعلاج ونظر . .

المهم أن الإسلام فى مكة كان أمره قاصرا على المكيين تقريبا . أما بعد الهجرة فقد دخله أناس من قبائل تختلف لهجتها عن لهجة القرشيين ، وبدأت الحاجة إلى تسهيل قراءة القرآن لهم تظهر . . بمعنى بدأت مشكلة عدم استطاعة بعض الداخلين فى الإسلام من هذه القبائل قراءة بعض الكلمات بلهجة القرشيين الأصلية ، وكلما دخل فيه جديدون من هؤلاء بدأت المشكلة تظهر أكثر فأكثر . حتى وجد الرسول أن الأمر يحتاج إلى حل لتيسير القراءة فدعا ربه أن يخفف عن أمته .

هذه الحالة أعنى دخول أناس فى الإسلام من غير القرشيين بعد الهجرة هى الطارئ الذى جد وزاد عن الوضع الإسلامى فى مكة . . وهو الذى أوجد مشكلة القراءة وكان الدافع لطلب الرسول . .

ومن هنا تتحدد المشكلة : أناس دخلوا فى الإسلام يريدون قراءة القرآن التى لابد منها للمسلم . ولكنهم لم يستطيعوا نطق بعض الألفاظ كما ينطق القرشيون . ومادامت هذه هى المشكلة كان من السهل معرفة طريق الحل.والمراد بالأحرف السبعة التى عالجها الله بها ، وكما يقال : إذا عرف الداء . سهلت معرفة

الدواء . . إذ لا يمكن أن تكون المشكلة فى واد وحلها فى واد آخر . . لا يمكن أن يكون المرض فى العين مثلا ونعالجه بجراحة فى القدم أو فى اليد ، فلابد إذن من أن يكون الحل منصبا رأسا على المشكلة نفسها . . لابد أن يكون التيسير منصبا على قراءة من لا يستطيع النطق ببعض الكلمات . . لابد أن يكون المراد بالأحرف التى سهل الله بها القراءة وجوها متعددة فى قراءة الكلمة . . كل قبيلة تقرؤها بلهجتها هى ، التى تخالف اللهجة الأصلية القرشية . . أو تأتى بلفظها المقابل للفظ الموجود عند قريش . .

فالمسلمون من قبيلة حمير لهم أن يقرءوا : (ليس امبر أن تولُّوا وجُوهَكُم . .) ، بدلا من : (ليس البر أن تولُّوا وجُوهَكُم) ماداموا لا يستطيعون أن يقرءوا : (ليس البر) . والتميميون يقرءون : (ماهَذَا بَشَرٌ) مادام لسانهم لا يطاوعهم بالسليقة أن يقرءوا : (ما هَذا بَشَرًا) وهكذا ، حتى يكون التيسير . . ولابد أن يكون مفهوما أن العربى فى ذلك الوقت لم يكن مثلنا الآن يمكن ترويض لساننا بسهولة على النطق أى نطق ، بل كان العربى يرضع لبان العربية الفصحى ولهجة قبيلة مع لبان أمه ، ولو أرغمته على اللحن مالحن ، ولو ألزمته بتغيير لهجته ما استطاع ولا قبل بسهولة ، ومن هنا كانت المشكلة التى عالجها الرسول بدعائه ربه .

ومع أن الخلاف فى لهجة القبائل فى نطق الكلمات لم يكن كثيرا ؛ لأن العربية تجمعهم ، إلا أن هذا القليل كان كافيا فى إيجاد المشكلة وفى ضرورة حلها . .

نخلص من هذا كله إلى أن المراد بالأحرف السبعة فى الحديث لهجات أو لغات أو أوجه فى بعض الكلمات القرآنية أو نطقها ، ولا يلزم أن تنطق الكلمة الواحدة بالحروف أو الأوجه السبعة ، بل المراد أن اللهجات أو الأوجه التى أجيز نطق بعض الكلمات بواحد منها عددها سبعة . . بأية لهجة من هذه اللهجات أو وجه من هذه الوجوه السبعة قرأت فأنت مصيب ، تقرأ : (ليس البر) أو (ليس امبر) (ماهذا بشرٌ) أو (ما هذا بشرًا) فأنت فى حدود المباح لك . .

وبهذا يتحقق الهدف والغرض من التيسير ، أو هذا هو التيسير فى القراءة الذى

يمكن أن نفهمه ونأخذ به ، دون ما ذكر من أقوال أخرى كثيرة فى بيان المراد بالأحرف السبعة ، لأننا حددنا المراد على ضوء تحديد المشكلة والحاجة .

وإذا طبقنا ماروى من اختلاف الصحابة فى قراءة القرآن ، ورجوعهم إلى النبى ﷺ يحتكمون فى صواب قراءة أى منهم ، فصوب الرسول قراءتهم جميعا فإننا نجد سهولة فى التطبيق ، فكل قراءة من قراآتهم صحيحة أجاز الله لرسوله أن يقرئ أمته بها فنفذ ما أمر به . . دون أن يكون هناك أى تغيير فى المعنى ، إذ المعنى لا يتغير بنطقهم (ليس البر) أو (ليس امبر) أو (ماهذا بشر) أو (ماهذا بشرًا) وهذا مصداق لقول الرسول فى إحدى الروايات : (كلها شاف كاف) . وكما جاء فى رواية أخرى : (فمن قرأ منها بحرف فهو كما قرأ) . .

رأى الإمام الطبرى :

وقد اختار الإمام ابن جرير الطبرى هذا الرأى ودافع عنه دفاع الأبطال كما يقال ، ورد ماقيل من تأويلات أخرى ثم قال :

« والدلالة على صحة ما قلناه – من أن معنى قول النبى ﷺ : (**نزل القرآن على سبعة أحرف**) إنما هو أنه نزل بسبع لغات كما تقدم ما ذكرناه من الروايات الثابتة عن عمر بن الخطاب ، وعبد الله بن مسعود ، وأبى بن كعب وسائر من قدمنا الرواية عنه عن النبى ﷺ فى أول هذا الباب – أنهم تماروا فى القرآن (أى فى قراءته) فخالف بعضهم بعضا فى نفس التلاوة دون ما فى ذلك من المعانى ، وأنهم احتكموا فيه إلى النبى ﷺ ، فاستقرأ كل رجل منهم . ثم صوب جميعهم فى قراءتهم على اختلافها ، حتى ارتاب بعضهم لتصويبه إياهم ، فقال ﷺ للذى ارتاب منهم عند تصويبه جميعهم : (**إن الله أمرنى أن أقرأ القرآن على سبعة أحرف**) . .

ومعلوم أن تماريهم فيما تماروا فيه من ذلك ، لو كان تماريا واختلافا فيما دلت عليه تلاوتهم من التحليل والتحريم ، والوعد والوعيد ، وما أشبه ذلك[1] لكان

(١) مما ذهب إليه بعض العلماء من تفسير الأحرف السبعة بالأحكام . .

مستحيلا أن يصوب جميعهم ، ويأمر كل قارئ منهم أن يلزم قراءته فى ذلك على النحو الذى هو عليه ؛ لأن ذلك لو جاز أن يكون صحيحا . وجب أن يكون الله جل ثناؤه قد أمر بفعل شيء بعينه وفرضه فى تلاوة من دلت تلاوته على فرضه ، ونهى عن فعل ذلك الشيء بعينه وزجر عنه فى تلاوة الذى دلت تلاوته على النهى والزجر عنه ، وأباح وأطلق فعل ذلك الشيء بعينه ، وجعل لمن شاء من عباده أن يفعله فعله ، ولمن شاء أن يتركه تركه فى تلاوة من دلت تلاوته على التخيير . . وذلك من قائله -- إن قاله -- إثبات ماقد نفى الله جل ثناؤه عن تنزيله وحكم كتابه فقال :

« أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ﴿٨٢﴾ »(١)

وفى نفى الله جل ثناؤه ذلك عن حكم كتابه أوضح الدليل على أنه لم ينزل كتابه على لسان محمد ﷺ ، إلا بحكم واحد متفق فى جميع خلقه لا بأحكام فيهم مختلفة » .

والطبرى بهذا المنطق ينفى بشدة أن يكون المراد بالأحرف السبعة المعانى لا الألفاظ ، ويجد فى إحدى الروايات الصحيحة تصريحا بهذا حين قال الرسول ، كلها شاف كاف ، مالم يختم آية عذاب بآية رحمة ، أو آية رحمة بآية عذاب ، كقولك : هلم وتعال وأقبل . . مما يدل صراحة على أن المراد الألفاظ ؛ لأن هذه الألفاظ على اختلافها تدل على معنى واحد . .

وتعرض الطبرى لقول من قالوا إن المراد بالأحرف السبعة هو أنه نزل بأمر وزجر وترغيب وترهيب وقصص ومثل ونحو ذلك . . فقال إن الذى قالوه من أن القرآن فيه ذلك صحيح ، ولا ينفى ما نقوله من أن المراد الاختلاف فى الألفاظ حين اختلفوا واحتكموا للرسول وصوبهم جميعا ، إذ لا يمكن أن يكونوا قد وضعوا

---

(١) سورة النساء ، الآية : ٨٢ .

أمرا مكان نهى والرسول يصوبهم . . فكلامهم فيما اشتمل عليه القرآن من مقاصد ووجوه ، وكلامنا فيما وقع من الخلاف حول النطق بالألفاظ . . ولا تعارض بين القولين .

* * *

ولماذا الوقوف عند سبعة ؟

كل الأحاديث التى رويت فى هذا الموضوع اتفقت على أن القرآن أنزل على سبعة أحرف ، والإنسان قد يسأل ولماذا سبعة ؟ وإذا كان المراد سبع لهجات أو لغات أو أوجه للتيسير على القبائل العربية ، فقد كانت القبائل أكثر من سبع وبالتالى كانت اللهجات أكثر من سبع ، فلماذا السبع لهجات ؟ . .

ونقول لو وقف عند ثمانية أو عشرة مثلا لسألنا السؤال نفسه ولماذا العشرة ؟ ولا تنقطع « لماذا » هذه إلا إذا استوعب كل اللهجات ، وهى كثيرة . لو أن القرآن نزل فى التوسعة إلى مجاراة كثرتها لزادت التوسعة عن حدودها ، ولتجاوزت الأمور حدود الضبط إلى ما يشبه الفوضى فى القراءة . .

فلابد من وقفة عند عدد من اللهجات ، ولتكن اللهجات الرئيسية المنتشرة المشهورة التى يمكن أن تستوعب الأكثرين ، ويمكن مع ذلك أن ترجع إليها غيرها من اللهجات المحلية مثلا أو غير المشهورة والقريبة منها . .

وعلم الله فى ذلك أوسع وأدق . . وهو الذى اختار الوقوف عند سبع كما اختار الوقوف فى عدد الصلوات عند خمس . .

وقد قام صلوات الله عليه وسلامه بتنفيذ هذا ، ووقف عند حدود السبع . ولم يرو عنه بيان عن هذه اللهجات : ولذلك بقى الأمر اجتهاديا سواء فى تعليل الوقوف عند سبع ، وماهى السبع ؟

ومادام الأمر فى ذلك اجتهاديا ولم يرو عن الرسول قول يقف الجميع عنده ويلتزم به ، فإن الباب مفتوح لآراء أخرى غير الرأى السابق الذى التزم بالعدد ومفهومه ووقف عنده وعلل لهذا الوقوف كما شرحنا . .

أما الرأى الآخر فيقوم على أن العدد هنا لا مفهوم له ، بمعنى أنه لا يراد نفس السبعة ، ولكن يراد مطلق عدد . . ويستنيرون لرأيهم هذا بأن السبعة تأتى أحيانا

كما تأتى كثيرا السبعون والسبعمائة كرمز للعدد أو التعدد والتكرار ، ويذكرون لذلك شاهدا من القرآن حين عبر الله بالسبعين ولم يرد التحديد بها بل أراد العدد المطلق ، وذلك فى قوله تعالى لرسوله عن المنافقين :

« اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ »(١)

فذكر (سبعين مرة) وأراد الله بها الكثرة المطلقة ، أى مهما تكثر لهم من الاستغفار فلن يغفر الله لهم ، بدليل ماجاء فى آية أخرى :

« سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ »(٢)

« وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِ »(٣)

يقول الزمخشرى فى الكشاف « والسبعون جار مجرى المثل فى كلامهم للتكثير . قال على بن أبى طالب رضى الله عنه :

لأصبحنَّ العاص وابن العاصى سبعين ألفا عاقدى النواصى

وقال ابن كثير فى شرح الآية : « وقد قيل إن السبعين إنما ذكرت حسما لمادة الاستغفار لهم ؛ لأن العرب فى أساليب كلامها تذكر السبعين فى مبالغة كلامها ولا تريد التحديد بها ولا أن يكون مازاد عليها بخلافها » . .

وقال الطبرسى فى تفسيره « مجمع البيان » عند تفسير هذه الآية : « الوجه فى تعليق الاستغفار بسبعين مرة المبالغة لا العدد المخصوص ، ويجرى ذلك مجرى قول القائل : « لو قلت لى ألف مرة ماقبلت » والمراد أنى لا أقبل منك ، وكذلك الآية . . . وقيل : إن العرب تبالغ بالسبعة والسبعين » . .

---

(١) سورة التوبة ، الآية : ٨٠ .

(٢) سورة « المنافقون » ، الآية : ٦ .

(٣) سورة التوبة ، الآية ٨٤ .

ومايجرى على لساننا حتى الآن : « أنا ذهبت لك سبعين مرة أو مائة مرة » « أنا قلت لك مائة مرة » غير مريدين بذلك مفهوم العدد ، بل المراد الكثرة . يعنى ذهبت لك كثيرا وقلت لك كثيرا . .

والسبعة والسبعون والسبعمائة تجرى بها كلها المبالغة فى العدد دون إرادة التحديد بالرقم . .

وعلى أساس هذا العرف العربى يقول بعض العلماء فى « السبعة الأحرف » . . أنه لايراد بها خصوص السبعة ، دون زيادة عليها ، بل المراد أحرف كثيرة : سبعة ، عشرة ، عشرون . . حتى يمكن أن يشمل التخفيف والتيسير كثيرا من القبائل أو كلها . .

ومع تسليمنا بصحة ماقيل عن الأعداد : سبعة وسبعون وسبعمائة ، إلا أننا نستبعد أن يكون المراد هنا الكثرة ؛ لأن الرسول ﷺ راجع جبريل مرة بعد مرة وهو يعلل سبب مراجعته وفى كل مرة يزيده حرفا ، حتى وقف عند هذا العدد : سبعة ، ومعنى ذلك أنه أصبح نصا محددا فى السبعة لا يمكن أن يتعداها ، ولو أنه جاء من أول الأمر وقال : سبعة لجاز أن يقال المراد بها مطلق العدد ولو كثر عن السبعة .

ومع ذلك فسواء قلنا إن المراد بسبعة أحرف سبع لهجات رئيسية بالتحديد كافية فى تجميع العرب حولها للقراءة بها ، أو المراد مطلق العدد ولو زاد على سبعة ، فالمبدأ حاصل وهو التيسير على قراء القرآن . .

وتكون نتيجة هذا كله : أن القرآن الكريم لم تقتصر قراءته فى عهد رسول الله ﷺ على لهجة واحدة ، بل قرئ بعدة لهجات بإذن من الله .

الدليل على ذلك :

وقد ظهر أثر هذا فى أيام الرسول ﷺ ، إذ كان بعض الصحابة يقرءون القرآن ببعض هذه اللهجات ، وأدى ذلك إلى إنكار البعض عليهم ممن لم يكن

قد بلغته معرفة جواز ذلك ، واحتكموا إلى رسول الله ، ليعرفوا وجه الصواب فى قراءتهم أين يكون ، ومع من ؟ فصوب الرسول قراءتهم جميعا . .

جاء فى صحيحى البخارى ومسلم عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه قال : « سمعت هشام بن حكيم بن حزام يقرأ سورة الفرقان[1] على غير ما أقرؤها وفى رواية على حروف[2] كثيرة لم يقرئنيها رسول الله ﷺ فكدت أساوره فى الصلاة (أى أنازعه) فتصبرت حتى سلم ، فلببته بردائه ، وقلت : من أقرأك هذه السورة التى سمعتك تقرأ ؟ قال : أقرأنيها رسول الله ﷺ فقلت : كذبت ؛ فإن رسول الله قد أقرأنيها على غير ما قرأت . . فانطلقت به أقوده إلى رسول الله ﷺ ، فقلت : يارسول الله ؛ إنى سمعت هذا يقرأ سورة الفرقان على غير ما أقرأتنيها . . فقال رسول الله ﷺ : أرسله . إقرأ . فقرأ القراءة التى سمعته يقرأ . . فقال رسول الله ﷺ : هكذا أنزلت . ثم قال لى : إقرأ . فقرأت . قال : هكذا أنزلت . إن هذا القرآن أنزل على سبعة أحرف فاقرءوا ما تيسر منه . . » . .

وحدث مثل هذا مع أبى بن كعب ، صاحب الرسول ﷺ ، فيما يرويه عن كعب كثير من كتب السنة الصحيحة . قال (واللفظ لمسلم أيضا) : « كنت فى المسجد فدخل رجل يصلى ، فقرأ قراءة أنكرتها عليه ، ثم دخل آخر ، فقرأ قراءة سوى قراءة صاحبه ، فلما قضينا الصلاة دخلنا على رسول الله ﷺ فقلت إن هذا قرأ قراءة أنكرتها عليه ، ودخل آخر ، فقرأ سوى قراءة صاحبه ، فأمرهما النبى ﷺ ، فقرآ ، فحسن النبى ﷺ شأنهما ، فسقط فى نفسى من التكذيب ولا إذ كنت فى الجاهلية ، فلما رأى النبى ما غشينى ، ضرب فى صدرى ففضت عرقا ، وكأنما أنظر إلى الله تعالى فَرَقًا (خوفا) فقال يا أبى : أرسل إلى أن أقرأ القرآن على حرف ، فرددت إليه : أن هون على أمتى . . . إلى آخر الحديث » . .

---

(١) فى رواية البخارى « سورة الفرقان فى حياة رسول الله ﷺ » .

(٢) العرب تطلق الحرف وتريد به الكلمة والوجه كما يطلقون الكلمة ويريدون بها الكلام ، كما يقول ابن مالك فى ألفيته « وكلمة بها كلام قد يؤم » أى يقصد ويراد .

فهاتان الروايتان الصحيحتان صريحتان فى أن أثر نزول القرآن على سبعة أحرف قد ظهر بين الصحابة فى المدينة ، وأدى إلى إنكار بعضهم على بعض والاحتكام إلى رسول الله . . ثم تبين لمن أنكر قراءة صاحبه أنها صحيحة وأن إنكاره لها ناتج من عدم سماعه لها من الرسول كما سمع صاحبه .

وقد حصل هذا الإنكار بالطبع فى أول العهد بإجازة قراءة القرآن على أحرف ، إذ بعد أن عرف الجميع هذا ، لم ينكر أحد على أحد ، وأصبح ذلك أمرا عاديا ، وأبى بن كعب وعمر بن الخطاب اللذان أنكرا أول مرة هما اللذان رويا لنا هذا الحديث . . وأصبحا من شاهدى هذا التغيير . . والظاهر كذلك أن هذه الإجازة فى القراءة كانت – كما نقول – بأثر رجعى ، يعنى فيما نزل من القرآن قبل ذلك ؛ لأن سورة الفرقان التى حصلت المشادة على قراءتها مكية .

ومع اقتناعى التام بالرأى القائل بأن المراد بالأحرف اللهجات أو اللغات والوجوه كما سبق . . إلا أن هذه الوقائع التى ذكرها الحديث الأول والتى تفيد اختلاف عمر بن الخطاب مع هشام بن حكيم بن حزام فى القراءة جعلنى أتساءل : وهل كان عمر ينطق بلهجة غير لهجة هشام ، ولا يستطيع أحدهما أن يقرأ بلهجة الآخر ، حتى تكون قراءة أحدهما غير قراءة الآخر ؟ ؛ لأننا عللنا لاختلاف القرآآت باختلاف اللهجات وصعوبة نطق واحد من قبيلة لهجة القبيلة الأخرى ، فيؤدى المعنى نفسه باللهجة التى تعود عليها وسمعها .

وهشام بن حكيم قرشى أسدى وأمه زينب بنت العوام أخت الزبير[1] ، وعمر كذلك قرشى ، وكلاهما يتحدث اللهجة القرشية فكيف اختلفت قراءتهما ؟ . .

لقد وقفت كثيرا أمام هذا التساؤل ؛ لأننى جد مقتنع بأن المراد بالأحرف

---

(١) راجع ترجمته فى تهذيب التهذيب لابن حجر العسقلانى جـ ١١ ص ٣٧ طبع بيروت وفى الاستيعاب لابن عبد البر جـ ٤ ص ١٥٣٨ بتحقيق البجاوى وكلاهما ذكر أنه أسلم هو وأبوه عند فتح مكة ، وهذا يعنى أن ماوقع منه جاء بعد ذلك ، أى بعد السنة الثامنة من الهجرة التى تم فيها فتح مكة .

لهجات القبائل فى نطقها ، والتهوين والتيسير منصب على مراعاة ذلك لصعوبة تغيير اللهجة . . وهذا عمر مع هشام وغيرهما[1] وقع لهما مثل ذلك فلماذا اختلفت قراءتهما إذن ؟

وجدت ابن حجر فى فتح البارى يقول : « وإنما ساغ له ذلك (أى ساغ لعمر تخطئة هشام) لرسوخ قدمه فى الإسلام وسابقته بخلاف هشام فإنه كان قريب عهد بالإسلام فخشى عمر من ذلك ألا يكون أتقن القراءة . . . وكان سبب اختلاف قراءتهما أن عمر حفظ هذه السورة (الفرقان) من رسول الله قديما ، ثم لم يسمع ما نزل فيها بخلاف ما حفظه وشاهده ؛ ولأن هشاما من مسلمة الفتح فكان النبى ﷺ أقرأه على ما نزل أخيرا[2] فنشأ اختلافهما من ذلك ، ومبادرة عمر للإنكار محمولة على أنه لم يكن سمع حديث : (أنزل القرآن على سبعة أحرف) إلا فى هذه الواقعة » ا . هـ .

ويبدو لنا من هذا أن الإباحة كانت جديدة لم يمض عليها وقت طويل حين حدث هذا الاختلاف وإلا علم عمر بها : وهو دائما قريب من رسول الله ، وعلى اتصال بما يدور . ولذا يمكن أن نخطو خطوة أكثر فى التحديد فنقول : إنها حصلت بعد الفتح ؛ لأن هشاما من مسلمة الفتح ولا يمكن أن يكون ذلك قد حصل قبل الفتح ، وعمر لا يعلم به ، وقد رجحنا من قبل أنه حصل بعد الحديبية ، وهنا جاء الدليل لتحديد أدق . فهل أقرأ الرسول هشاما القراءة المخالفة للسان قريش ، لأنه لم يستطع النطق بلسان قريش وهو قرشى ؟

غير مقبول . .

إذن ، كيف حفظ هشام هذه القراءة ؟ .

إن أمامنا احتمالا يمكن أن نحل به هذا التساؤل والإشكال . . وهو أن القرشى باعتبار اختلاطه الكثير بالقبائل المتعددة الواردة إليه والمارة به ، استطاع أن ينطق

---

(١) ذكرهم ابن حجر العسقلانى فى فتح البارى شرح البخارى ص ٤٠١ ج ١٠ طبعة الحلبى . .

(٢) على مقتضى السبعة الأحرف . .

بكثير من ألسنة هذه القبائل ولا يصعب عليه ذلك ، كما يصعب على القبيلة من بطن الصحراء أن تنطق لهجة قريش أو لهجة غيرها من القبائل . .

وإذن ، يكون هشام قد سمع من الرسول لهجة غير لهجة قريش يقرئ بها بعض أصحابه فحفظها كما سمعها ، إذ لم يجد صعوبة فى نطقها وحفظها . . وكان ما حفظه هشام مخالفا لما حفظه عمر من قبل ؛ لأن سورة الفرقان مكية وهشام قال : « أقرأنيها رسول الله » ؛ لأنه فعلا سمعها من رسول الله . . ولم يخترعها . .

ومادام القرشى مثلا يستطيع أن ينطق بلهجة قبيلة أخرى فى بعض الكلمات فله أن ينطق بغير لهجته فى قراءته للقرآن ؛ لأن القرآآت أو الحروف كلها نازلة من عند الله ، فأى إنسان استطاع أن ينطق بما نزل ، نطق وقرأ ، ولا حرج عليه ، مادام قد تأكد من أن هذه القراءة مسموعة عن الرسول ﷺ ؛ لأن الإباحة لم تقع بالتشهى أى أن كل واحد يغير الكلمة بمرادفها فى لغته ، بل المراعى فى ذلك السماع من النبى ﷺ . .

فالمهم أن يتأكد القارئ أن هذه القراءة سمعت من الرسول ﷺ ، وليس بلازم أن يكون هو الذى سمعها بل يكفى أن يحفظها عن إنسان سمعها ، فإذا استطاع لسانه أن ينطق بها ويقرأ قرأ ولا غبار عليه .

وهذا هو الذى يمكن أن يطبق على هشام لاسيما وقد سمع هو نفسه من الرسول ﷺ يقرؤها بهذه اللهجة واستطاع أن يقرأ لهجة الآخرين فقرأها كما سمعها ، وبهذا نحل هذا التساؤل .

أظن أننى ربما غطيت هذا الموضوع ، واخترت فيه رأيا يمكن أن تطمئن إليه النفس من ضمن الآراء الكثيرة فى المراد بالأحرف السبعة التى بلغت نيفا وثلاثين رأيا سردها المعنيون بهذا الموضوع فى الكتب المطولة . .

ويمكن بعد هذا التفصيل أن نلخص الموضوع فى كلمات :

١ – كان القرآن ينزل بلهجة قريش حيث لم تكن هناك حاجة إلى نزوله بلهجة أخرى . .

٢ – أنه استمر ينزل كذلك حتى ظهرت الحاجة بعد دخول الناس فى دين الله أفواجا فكان سؤال النبى ربه التيسير واستجابة الله له . .

٣ – أن المراد بالأحرف السبعة انطلاقا من هذه المقدمة وهذه الحاجة ، هو اللهجات التى تختلف من قبيلة إلى قبيلة فى نطق بعض الكلمات ، فأنزل الله بها القرآن ، وأباح للعرب أن ينطقوا بهذه الكلمات ، حسب ما يتيسر لهم دون إخلال بالمعنى . . بل المعنى واحد والتعبير عنه قد يختلف من لهجة إلى لهجة أخرى فى الحروف أو فى كيفية النطق مع نفس الحروف .

٤ – أن ذلك التعبير كان فى بعض الكلمات أو فى كلمات قليلة ؛ لأن الجميع كانوا عربا ينطقون اللغة العربية ، ويلتقون فى نطق الأكثر والتعبير به ويختلفون فى نطق القليل جدا . .

٥ – أن كل تغيير فى الألفاظ نزل به القرآن من عند الله دون اجتهاد من الرسول ، ودون تصرف من الصحابة ، وكان ذلك بناء على أن الرسول سأل ربه ثم نفذ ما أمره به .

٦ – أن أى عربى ظاوعه لسانه على أن يقرأ القرآن بأية لهجة من اللهجات التى نزل بها كان له أن يقرأ دون اعتراض عليه . .

٧ – أن ذلك حصل بأثر رجعى فيما نزل قبل أن يسأل الرسول ربه التخفيف فى مكة والمدينة . .

وأحب قبل أن نترك هذا الموضوع أن أشير إلى أن هناك آراء كثيرة فيه قال بها علماء أجلاء ولهم وجهة نظرهم ، حتى بلغت هذه الآراء – كما قلت سابقا – نيفا وثلاثين قال عنها الحافظ المنذرى « أكثرها غير مختار » كما نقل الإمام ابن حجر . والواقع أن العلماء سبحوا فى بيان معنى الأحرف سبحات بعدت بهم عن السبب الذى من أجله نزل القرآن على سبعة أحرف ، ولو أردنا فحص بعض هذه

الآراء المشهورة التى أخذ بها علماء أجلاء على الأساس الذى هو التيسير لما ثبتت هذه الآراء أمام قليل من الفحص . .

وعلى سبيل المثال . . الذين قالوا إن المراد بالأحرف السبعة وجوه :

* منها التقديم والتأخير فى مثل قوله « فَيَقْتُلُون ويُقْتَلُون » من الآية « إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ ۚ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ ۖ »(١)

فواحدة مبنية للمعلوم (يَقتُلون) بفتح الياء وضم التاء ، والثانية (يُقْتَلون) بضم الياء وفتح التاء على البناء للمجهول ، ويقولون فيه قراءة بتقديم المبنى للمعلوم بفتح الياء وتأخير المبنى للمجهول بضم الياء وقراءة بالعكس . .

ولكن أية صعوبة على أى عربى فى قراءة إحداهما أولا أو ثانيا ، وما وجه التيسير فى هذا ؟ على كل حال سيقرءون الاثنين سواء قدموا هذا أم ذاك . .

* وقالوا : منها الإفراد والجمع فى مثل :

« وَٱلَّذِينَ هُمْ لِأَمَٰنَٰتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَٰعُونَ ﴿٨﴾ »(٢)

فتقرأ بالجمع (لأماناتهم) وتقرأ بالمفرد (لأمانتهم) : فهل كان من العرب من لا يعرف إلا النطق بالمفرد ومنهم من لا يعرف إلا النطق بالجمع . فأجيزت الحالتان تيسيرا عليهم ؟ لا أعتقد . .

فالتغيير الذى أجازه المولى نتيجة سؤال الرسول ورجائه لله أن يهون على

---

(١) سورة التوبة . الآية : ١١١ .

(٢) سورة « المؤمنون » الآية : ٨ .

أمته فى قراءة القرآن إنما هو أساسا فى ألفاظ تختلف فى نطقها اللهجات . . لا يجوز – فى رأيى – أن نهمل هذا أو نتركه .

ويمكن بجوار هذا أن يكون هناك إذن عام بالقراءة التى لا يصعب على أحد النطق بها ، ولكنها من باب التسهيل العام على الجميع فى القراءة ، مثل الحالتين السابقتين ومثل قراءة : (مَلِك يوم الدين) و (مالك يوم الدين) . .

تساؤل جديد :

وهكذا فى ألفاظ كثيرة فى القرآن الكريم . .

ولكن يقفز لنا سؤال أخير عصرى من واقع الحال الآن ، فالمسلمون الأعاجم غير العرب لا يستطيع لسانهم أن ينطق ببعض الحروف كما ينطقها العربى ، مثل الحاء ، فهم لا ينطقونها حاء ولكن هاء ، فيقولون فى (الحمد لله) (الهمد لله) و (الرهمن الرهيم) فى (الرحمن الرحيم) كما ينطقون العين همزة أحيانا مثل (أبد الله) فى (عبد الله) وهناك بعض العرب أنفسهم فى لسانهم نقص فى بعض الحروف فهم ينطقون السين ثاء دائما ، ونقول إن فى لسانهم « لثغة » هكذا . .

ولو حاولت منع الأعاجم من قراءة (الحمد لله) بالهاء لما استطعت بسهولة ، بل عسر عليهم وعليك ذلك . . وكذلك الحال فى نطق العين فى (نستعين) فإنهم ينطقونها كما نعرف جميعا (نستئين) مثل نطقهم (أبد الله) فى (عبد الله) ، وقد جربت محاولات مع كثير فى الهند وغيرها فكان من الصعوبة أن أروض لسانهم على ما أريد . .

وحتى إذا أمكن ترويض بعض المتعلمين المثقفين دينيا ممن يدرسون اللغة العربية فماذا يكون الحال مع الشعب المسلم الذى لا يعرف من العربية إلا ما يتعلمه من القرآن لصلاته مثلا : ماذا نفعل مع الملايين أو مئات الملايين من المسلمين غير العرب ، هل نمنعهم ونحرم عليهم قراءة (الهمد لله) ونصدر حكما شرعيا بأن قراءتهم حرام وصلاتهم باطلة . . الخ . . ؟

أو أننا يمكننا قياسا على ما حصل حين نزول القرآن من قصد التيسير على العرب وإباحة استبدال حرف بحرف مثل (ليس امبر) فى (ليس البر) يمكننا أن نصدر رأيا اجتهاديا بجواز قراءة (الهمد لله) لغير العرب ماداموا لا يستطيعون إلا هذا ؟ .

ذلك ، هو ما أذهب إليه وأقتنع به . . وإن كنت حتى الآن لم أوفق إلى الإطلاع على بحث أو فتوى فى هذا الموضوع . .

وهو رأى على كل حال لا أتعصب له . وإن كنت مقتنعا به ، وهو قابل للمناقشة بلا شك . . والحكمة ضالة المؤمن أنى وجدها فهو أحق بها . .

* * *

هل الأحرف السبعة هى القراءات السبع ؟

هكذا يظن الكثيرون ممن يسمعون حديث الأحرف السبعة الذى شرحناه وبينا المراد منه ، ويسمعون القراء يقرءون الآن بما يسمونه القرآآت السبع . . لاسيما وأن القراء يستعملون كلمة الأحرف تعبيرا عن القرآآت فيقولون : قرأ بحرف نافع ، أو بحرف ابن كثير ، مما قوى هذا الظن عند الكثيرين .

والحقيقة تقول : إن هذا الظن غير سليم ، فليس المراد بالأحرف السبعة التى جاءت فى الحديث القرآآت السبع المعروفة الآن . كما سنبين ذلك بالتفصيل فيما بعد .

يقول العلامة أبو شامة : « ظن قوم أن القرآآت السبع الموجودة الآن هى التى أريدت فى الحديث (**أنزل القرآن على سبعة أحرف**) وهو خلاف إجماع أهل العلم قاطبة وإنما يظن ذلك بعض أهل الجهل »[1] . .

بادرنا بذكر هذه الحقيقة لغيابها عن ذهن الكثيرين حتى المثقفين ثقافة دينية . . لنبدأ سلسلة من الحديث عن القرآن بعد نزوله بالحروف السبعة ، وإباحة القراءة بها ، ماذا كان مصير هذه الحروف السبعة ؟ هل كان القرآن يكتب بها فى عهد الرسول ﷺ كما كان الصحابة يقرءون بها ؟ وماذا كان مصيرها بعد الرسول ﷺ حين عمل أبو بكر وعمر وعثمان رضى الله عنهم على جمع القرآن وكتابته ؟ .

وذلك يستدعى أن نتحدث عن كتابة القرآن فى عهد الرسول ، كيف كان يكتب ؟ وهل كان الاعتماد على الكتابة ؟ ثم نتحدث عن كتابته بعد عهد الرسول ﷺ .

---

(١) فتح البارى فى شرح البخارى لابن حجر ج ١ ص ٤٠٦ طبعة الحلبى ١٣٧٨ هـ ١٩٥٩ م

كتابة القرآن فى عهد الرسول ﷺ :

لقد كان العرب حين نزول القرآن أمة تغلب عليها الأمية كما يقول الرسول (نحن أمة أمية) ولذلك كانت تعتمد على الحفظ ، حفظ تاريخها وأيامها وأنسابها وأشعارها ونثرها . . . الخ . .

وليس معنى هذا أنه لم يكن فيها من يقرأ ومن يكتب ، بل كان فيها ، ولكنهم نادرون . وكان الشعراء أو قبائلهم يعنون بكتابة القصائد التى تحظى بالجودة والقبول والإعجاب ، ويعلقونها فى الكعبة ، ولذلك اشتهرت هذه القصائد بالمعلقات ، وكانت أدوات الكتابة عندهم غير ميسرة لاسيما الورق ، لذلك كانوا يعتمدون فى الكتابة على الجلد المذبوغ ، وعلى عظم الأكتاف ، وعلى قطع الحجارة المسطحة ، وعلى مسطح جريد النخل بعد تنحية الخوص عنه ، وكان هذا كله ميسرا عندهم وابن بيئتهم فكانوا إذا أرادوا الكتابة كتبوا على شىء من هذا الذى تحت أيديهم . .

وعندما نزل القرآن اعتمد الرسول على تحفيظه لأصحابه أولا . كما عمل على تدوينه وكتابته بالوسائل الميسرة لهم فى الكتابة ، كما كان من يعرف الكتابة يكتب لنفسه أو لزملائه من المسلمين ، فقد ورد فى واقعة إسلام عمر أنه دخل على أخته فوجد فى يدها صحيفة تقرأ فيها أول سورة طه . . فأراد أن يتناولها فأبت أخته عليه ذلك ؛ لأنه مشرك ، ثم رضى بأن يستمع لما فيها وأسمعته ، فكانت هذه اللحظات خيرا وبركة على عمر وعلى الإسلام ، إذ أسلم ، وخرج من بيتها وقد هداه الله ، بعد أن كان ذاهبا إليها يريد بها شرا لإسلامها . .

وللإنسان أن يتساءل : ما الذى حمل الرسول ﷺ على كتابة القرآن والعهد بالعرب أن يعتمدوا على الحفظ ؟ . .

ولنا أن نجيب بأن العرب كانوا يهتمون بكتابة بعض أشعار شعرائهم لجودتها عندهم كما عرفنا من أمر المعلقات . . مع أنهم كانوا يحفظونها ويتداولونها . .

وليس القرآن عند الرسول بأقل من المعلقات التى كتبت وعلقت بالكعبة . ثم

إنه لابد أن يكون لأول آية نزلت من القرآن توجيه للرسول ليعنى بالتسجيل ، ففى بعض الروايات عن بدء الوحى أن جبريل عرض عليه قطيفة بها كتابة الآيات الأولى المنزلة . . وقال له : (اقرأ)[1] وفيها يمتن الله على عباده :

(الذى علم بالقلم علم الإنسان مالم يعلم)

ثم إن القرآن أشاد بالقلم ومايسطرون ، وذكر أدوات الكتابة من المداد والقرطاس ، والصحف ، والرق : (فى رق منشور) . .

ويمكن أن يكون لهذا وذاك أثر فى عناية الرسول ﷺ بكتابة القرآن وتسجيله بالأدوات الميسرة فى ذلك الوقت للكتابة . . على أن يكون الاعتماد الأول والأهم على الحفظ ، وكان أمره سهلا لدى العرب . واعتادوه واعتمدوا عليه . .

فى العهد المكى :

وقد بدأت كتابة القرآن منذ نزوله على الرسول ﷺ . . وإن كان الاعتماد الأول والأهم هو – كما قلنا – على الحفظ ، فكان الرسول يبلغ ما ينزل من القرآن لأصحابه فيسارعون إلى حفظه وترديده ، ومع ذلك يأمر بكتابته على الطريقة التى كانت معروفة فى ذلك الوقت ، وقد كان الكتاب فى العرب قليلين ، وكانوا بالطبع نادرين فيمن أسلموا وكان عددهم قليلا كما نعرف . .

وقد روت لنا كتب السيرة والحديث أن رسول الله اتخذ من عبد الله بن أبى السرح كاتبا لما ينزل من القرآن فى مكة ، وظل كذلك حتى ارتد عن الإسلام ، فاتخذ غيره من الكاتبين حسب ما كان يتيسر له ﷺ وكانت الكتابة كما قلنا تعتبر أمرا ثانويا بالنسبة للحفظ حيث كان هو الأساس الأول المعتمد فى المحافظة على ما ينزل من القرآن . .

ولم أجد فيما اطلعت عليه أن رسول الله عنى حين هجرته بحمل القرآن

---

(١) كما ورد فى حديث بدء الوحى ونزول أوائل سورة العلق : (اقرأ باسم ربك . . الآيات) .

المكتوب معه . إذ كان أمرا فى غاية الصعوبة لاسيما فى الظروف الصعبة التى تمت فيها الهجرة ، حيث كان ذلك يستدعى عدداً من الإبل لحملها ، وما كان ذلك أمرا سهلا ولا متيسرا فى هجرة كانت تعتمد اعتمادا كليا على السرية . وجمع الحجارة والعظام والجريد والجلود التى كتب عليها القرآن وتحميلها على الإبل ، كل ذلك يستدعى جوا من الأمان ومن الوقت حتى يتم . وما كان هذا أو ذاك أمرا متوفرا . .

ولهذا نكاد نقطع بأن الرسول لم يحمل معه شيئا مما كتب من القرآن ، وكان اعتماده الكلى على حفظه وحفظ صحابته المهاجرين معه لما نزل ، وفى المدينة تولى وتولوا تحفيظه لمن أسلم فيها بجوار ما كان ينزل فيها . .

شبهة :

لكن يقف أمام هذا ما نعرفه جميعا من أن الرسول ﷺ توفى والقرآن كله مكتوب ، ومحفوظ فى صدور الصحابة ، وفى عهد أبى بكر رضى الله عنه تم جمع القرآن كله وكتابته من العسب والحجارة والعظام التى كان مكتوبا عليها ، كل سورة رتبت آياتها مضمومة بعضها إلى بعض برباط ، مقتصرين على ما لم تنسخ تلاوته تاركين ما نسخ ، مثبتين الحروف التى نزل بها القرآن وضمت السور بعضها إلى بعض بدون ترتيب بينها وحفظت عند أبى بكر رضى الله عنه . ثم انتقلت إلى الخليفة عمر ، ومن بعده إلى بنته حفصة زوج الرسول . وكان الداعى لهذا العمل كثرة استشهاد حفظة القرآن من الصحابة فى حروب المرتدين فخشى عمر أن يستشهد من الصحابة من يكون قد تفرد أو تفردوا بحفظ آيات أو سور ، فتذهب معهم بوفاتهم ، فاقترح على أبى بكر هذا المشروع الذى اقتنع به بعد تردد خشية أن يعمل عملا لم يعمله رسول الله ، وكان شديد الحرص على الاتباع لكنه أخيرا مال لرأى عمر حين انضم إليه زيد بن ثابت رضى الله عن الجميع . .

وهذا يدلنا على مبلغ الاعتماد على الحفظ وأنه كان فى المرتبة الأولى فى زمن

الرسول ، وتأتى بعده الكتابة . واطمأن الجميع إلى أنهم قاموا بعمل توثيق للقرآن وحفظه من أن يسقط منه شيء ، مستمرين مع ذلك فى الاعتماد على الحفظ . . حيث كانت صدورهم هى مراجعهم ومصاحفهم . . وما كان من الممكن وهذه هى أساليب الكتابة والتدوين أن يعتمد المسلمون عليها كأفراد فى حفاظهم على القرآن وحفظه ، والرجوع إليه عند الحاجة كما هو الحال فى أيامنا الآن . .

وفى عهد عثمان رضى الله عنه :

اتسعت رقعة العالم الإسلامى وامتدت الفتوح خارج الجزيرة أو استمرت فى اتساعها . . وتفرق أصحاب الرسول ممن حفظوا القرآن أو بعضا منه فى هذه الرقعة الواسعة ، وتلقى المسلمون فى كل مكان القرآن الكريم عنهم بالقراءة التى حفظوه بها أو بالحروف التى سمعوها وحفظوه بها ، وكانت كما عرفت ، تعطى شيئا من الاختلاف فى القراءة . وقد أثار هذا الاختلاف فى القراءة شيئا من الخلاف بين أصحاب رسول الله فى زمن نزول القرآن ، ولم يقطعه إلا رسول الله حيث صوب قراءة كل واحد وقال : هكذا أنزلت . . فكان من الضرورى ، وقد انتقل هذا الاختلاف إلى رقعة واسعة من المسلمين بهذه الفتوح ، حيث كان المسلمون فى المجتمع الواحد أو المعسكر الواحد تجد فى قراءتهم للقرآن بعض أوجه الخلاف فى بعض ألفاظ ، كل يقرأ حسب ما حفظ وسمع ويتعصب له ، وكان من الطبيعى أن يثير هذا الاختلاف مع التعصب له شيئا من الخلاف والمناقشات الحادة أحيانا بين المسلمين لاسيما وقد بدأ المسلمون الجدد يحفظون ما يستطيعون من القرآن ، وعلم عثمان رضى الله عنه بهذا ، وأحسَّ بفطرته أن هذا يمكن أن يؤدى إلى فتنة بين المسلمين ، وقد يؤدى أيضا إلى تشكك بعض من يعرض عليهم الإسلام فى الإسلام نفسه ، إذ كيف يختلف المسلمون بهذه الصورة فى قراءة القرآن الذى تلقوه عن الرسول ؟ ولم يكن عندهم استعداد ولا وقت ليسمعوا القصة من أولها ، ولا الحكمة فى تعدد القراءة واختلافها ، بل كان أمامهم هذا المظهر الذى يمكن أن يثير شيئا من الشك . . وبعض المظاهر أو الأقوال الصحيحة قد تثير أحيانا شكوكا فى نفوس الذين لا يتعمقون فهمها ، ولا يدركون السر فيها ، ولذلك كان

توجيه الرسول : (خاطبوا الناس بما يفهمون أو يعقلون ويعرفون ، أتحبون أن يكذب الله ورسوله ؟) . وذلك إذا خاطبوهم بلغة لا يفهمونها أو فى موضوع لا يدركون أسراره .

لذلك ، كان لابد من اتخاذ خطوة سريعة وحاسمة ومناسبة أيضاً للقضاء على بذور هذا الخلاف الذى أخذ يتفشى فى صفوف المحاربين ومن وراءهم ومعهم من المسلمين . . وكان السبب فى هذا هو أن المسلمين استمروا يقرءون القرآن أو بعض ألفاظه بالحروف التى نزل بها ، وفيها شيء من الاختلاف كما أجازهم الرسول . .

ولقد كانت هذه الإجازة نابعة من ضرورة ، ولهدف التسهيل على المسلمين الجدد من العرب المنتشرين فى شبه الجزيرة فى تلقى القرآن وحفظه ، وكان ذلك أشبه ما يكون بالرخصة لحاجة وضرورة تحقيقا لمصلحة ، فإذا قلّت هذه الضرورة والحاجة أو زالت ، وإذا ترتب عليها شيء من الضرر ، وكادت المصلحة تنقلب إلى ضدها فلابد من اتخاذ إجراء جديد يتناسب والظروف الجديدة . .

وهذا ما كان . .

فقد رأى عثمان رضى الله عنه ووافقه الصحابة أن يعمد إلى السبب فى إثارة الخلاف الخطير على صفوف المسلمين فيحد منه أو يقضى عليه . ولن يتم ذلك إلا بجمعهم على نص موحد لا يحتمل كثيرا من أوجه الخلاف التى انتشرت وإن احتمل رسمه بعضها . . وبدأ عثمان العمل وأرسل إلى زيد بن ثابت رضى الله عنه ، وكانت فيه صفات تؤهله لأن يتولى عبء هذا العمل ، وقد اختاره أبو بكر وعمر رضى الله عنهما فى جمع القرآن وكتابته على رأس جمع من الصحابة ، وقام بهذه المهمة خير قيام ، فكان من المفهوم بالبداهة أن يسند إليه عثمان المهمة الجديدة لاسيما وهو قد حضر العرضة الأخيرة من القرآن على رسول الله ﷺ . . وأمره أن يكتب القرآن فإذا وجد خلافا مرويا فى قراءة كلمة ، كتبوها بلغة قريش ؛ لأنها الأصل ، وهى سائدة أكثر من أية لغة أو لهجة ، وكانت الكتابة فى ذلك الوقت بدون شكل أو نقط ، مما يجعل بعض الألفاظ محتملة

لقراءتين مثل (فسسوا) فهذه يمكن قراءتها (فتبينوا) و (فتثبتوا) والمعنى واحد فى اللفظين ومثل (نومن) فهى صالحة لقراءتها بالهمز (يؤمن) وبدونه (يومن) . .

وإذا كانت الكلمة لا تحتمل القراءتين فيمكن كتابتها فى مصحف بوجه ، وفى الآخر بالقراءة أو اللهجة الأخرى ما دامت مروية بالتواتر . . مثل (ووصَّى بها إبراهيمُ بَنِيه) أو (وأوصَى إبراهيمُ) والمعنى واحد . . وبدأ زيد بن ثابت ومن معه فى تنفيذ المشروع بعد أن أرسل عثمان لحفصة يطلب منها ما عندها من القرآن المجموع واستجابت بعد تردد . .

وكتبت عدة مصاحف على هذا الأساس أى على أساس تنقية المكتوب من كثير من اللهجات التى أثارت الخلافات ، بحيث لم يبق منها إلانزر يسير هو ما يحتمله اللفظ بدون نقط وشكل كما سبق ، على شرط أن تكون القراءة واردة متواترة أجازها الرسول ﷺ . . وكانوا يعرفون ذلك بالطبع من التلقى والحفظ . .

ولذلك ، حينما تم نسخ عدة مصاحف أخذ عثمان رضى الله عنه يرسلها إلى مراكز التجمع فى البلاد الاسلامية ، وكانت جملتها خمسة أوستة ، أوسبعة فى رواية أخرى : فمصحف للكوفة ، ومصحف لمصر ، ومصحف لمكة ، ومصحف للبصرة ، ومصحف للشام ، ومصحف لليمن ، ومصحف للبحرين ، وكان من الطبيعى أن يحتفظ الخليفة بنسخة أو نسختين . .

وزيادة فى التوثيق والضبط أرسل الخليفة مع كل مصحف قارئا حافظا يعلم المسلمين القراءة وفق هذا المصحف المرسل إليهم بما عرفه من القراءات الثابتة المتواترة عن رسول الله ﷺ مما يحتمله رسم المصحف . . فكانت القراءة المروية المتواترة هى التى تحكم القراءة فى المصحف وتحددها ، بحيث لا يقرأ القارئ أية قراءة يحتملها الرسم ، بل لا بد مع ذلك أن تكون قراءة ثابتة مروية بالتواتر وكانت هذه هى مهمة الصحابى الذى أرسله عثمان مع المصحف .

وقد أمر عثمان رضى الله عنه أن تعتمد هذه البلاد على المصاحف المرسلة لها وتحرق أو تمحو ما عداها بحيث تكون قراءة البلد الواحد قراءة واحدة لا خلاف

فيها ، وبذلك قضى الخليفة بهذه الخطوة على بذور الخلاف ، وكان عملا رائعا ومشكورا يذكره الإسلام لهذا الخليفة ضمن ما يذكره له من أياد مشكورة عند الله وعند الناس جزاه الله عن القرآن وعن المسلمين خير الجزاء . .

وبعد هذا العرض السريع الذى حرصنا فيه على عدم التطويل والدخول فى روايات وأقوال . . نعود إلى التساؤل الذى أثرناه من قبل : إذا كان الرسول لم يستطع أن يحمل معه من مكة للمدينة حين الهجرة ما كتب من القرآن الذى نزل بمكة وهو يبلغ أكثر من نصف القرآن ، حتى لقد حددوه بنحو تسعة عشر جزءا من ثلاثين جزءا . . وهو قدر كبير يحتاج لعدة جمال تحمله وفسحة من الوقت وشىء من الجهد والأمان لتحميله . .

فكيف إذن يقال ، إن القرآن كله كان مكتوبا وموضوعا فى مكان حين توفى رسول الله ؟ هل نقله معه من مكة ؟ لم نظفر برواية تقول ذلك مع استبعادنا لإمكان نقله . .

هل أعاد الرسول كتابته وهو بالمدينة توثيقا واحتياطا لينضم إلى ما يكتب مما ينزل بالمدينة ؟ هذا هو المحتمل . .

وهذا بحث أو تساؤل على الهامش كما أظن دعانى إليه شىء من الفضول الذهنى الذى يلازم الباحث . . وإن كان لا يؤثر أى تأثير على الموضوع ، فقد توفى الرسول ﷺ والقرآن كله مكتوب وغير مرتب محفوظ فى مكان خاص وشامل لكل الأحرف التى نزلت ، ثم أعاد أبو بكر وعمر كتابته وجمعه مرتب الآيات فى كل سورة مشدودة آياتها بعضها إلى بعض برباط ، حاوية للأحرف التى نزلت بها . ثم قام عثمان رضى الله عنه بكتابته الكتابة المعتمدة إلى يومنا هذا وإلى أن تقوم الساعة بإذن الله . . لا تغيير فيه ولا تبديل . .

من أين جاء الاشتباه
وهل القراءات سبع فحسب

ولابد لنا من وقفه نزيل بها الالتباس الفكرى الذى قام حول الحروف السبعة والقراءات السبع ، حيث ظن كثيرون أن هذا هو ذاك ، مع أنه ليس هو كما سبق أن قلنا . . وإن كانت القراءات السبع قد قامت على أصول من الحروف السبعة . .

والحقيقة التى يقررها العلماء أن القراءات السبع ليست هى المعتمدة وحدها ، وليست هى أقوى القراءات . بل هناك ثلاث قراءات تصل بالقراءات إلى عشرة ، وهى لا تقل قوة عن السبعة بل قيل فيها ماهو أقوى من بعض القراءات السبع . .

وهناك قراءات مروية أخرى فوق العشرة عددها أربع فتكون جملة القراءات المعروفة ١٤ ، وإن كان هناك ما هو أكثر من ذلك لكن هذه هى التى ضبطت وجمعت ، ويرجع العلماء شهرة القراءات السبع إلى أن بعض المؤلفين فى علم القراءات وقفوا فى سرد علماء القراءة عند سبع ، لالأنهم هم الموثوق بهم وحدهم ولا لأن من عداهم أضعف منهم ، ولكن هكذا اختار حتى وصل إلى سبعة ووقف ثم اشتهر تأليفه وذاع واشتهر تبعا لذلك مصطلح القراءات السبع ، فكان ذكر « السبع قراءات » موافقا لسبعة أحرف فى عدد « السبعة » ومن هنا جاء الاشتباه فى أن هذه هى تلك .

قال ابن السمعانى : والتمسك بقراءة سبعة من القراء دون غيرهم ليس فيه أثر ولاسنة ، وإنما هو من جمع بعض المتأخرين ، فانتشر رأيهم وأنه لا تجوز الزيادة على ذلك . .

والشروط أو الضوابط التى وضعها العلماء لقبول القراءة وهى :

١ – أن تكون مروية عن الرسول ﷺ بالتواتر . .

٢ – أن تكون موافقة لرسم أحد المصاحف العثمانية . .

٣ – أن تكون موافقة للعربية ولو بوجه . .

هذه الضوابط والشروط إذا توافرت فى رواية لقراءة فهى مقبولة وقوية وتعتبر من القرآن الكريم ، سواء كان راويها أحد القراء السبعة أو غيرهم ؛ لأن السبعة لا يختصون بتوافر هذه الضوابط فيهم دون غيرهم . . وكل قراءة اختل فيها شرط من هذه الشروط فهى قراءة شاذة لا تعتبر من القرآن . . ولو كان راويها أحد السبعة . .

قال العلامة أبو شامة فى كتابه « المرشد الوجيز » :

« لا ينبغى أن يغتر بكل قراءة تعزى إلى واحد من هؤلاء السبعة ، ويطلق عليها لفظ الصحة وأنها كذلك أنزلت إلا إذا دخلت فى ذلك الضابط . . إلى أن قال : فإن الاعتماد على استجماع تلك الأوصاف والشروط السابقة ، لا على من تنسب إليه ، والقراءة المنسوبة إلى كل قارئ من السبعة وغيرهم تنقسم إلى المجمع عليه والشاذ ، غير أن هؤلاء السبعة لشهرتهم وكثرة الصحيح المجمع عليه فى قراءاتهم تركن النفس إلى ما نقل عنهم فوق ما نقل عن غيرهم » .

وهذا له شبه كبير بالمذاهب الفقهية وأنها أربعة ، مع أن المذاهب الفقهية وأصحابها أكثر بكثير عشرة أو عشرات أومئات ، وكان هناك من يماثل الأربعة أويزيد فقها وعلما ، لكن هؤلاء الأربعة وجدوا لهم تلامذة أشاعوا علمهم وعلموه واحتفظوا بالمذهب مدونا . . بينما غيرهم لم يحظ بذلك فاندرس واندرس مذهبه ، فلا تعثر على شىء منه الآن إلا فى بعض الكتب . .

وأعود أخيرا للتنبيه على أن القراءات السبع المعروفة ليست هى الأحرف السبعة التى وردت فى الحديث . . وإن كانت القراءات شيئا من هذه الأحرف سواء كانت سبعا أو أكثر وليست كل الأحرف ، بعد ما أصبح الخط الذى كتبت به مصاحف عثمان هو الفيصل مع تواتر الرواية وموافقتها للغة العربية . .

* * *

نقط المصحف وتشكيله

المعروف لنا الآن أن معنى نقط المصحف أو الأحرف الهجائية عموما هو وضع نقط على بعض الحروف التى ورد إلينا وضع نقط عليها فوقها أو تحتها ، نقطة أو ثنتين أو ثلاثا . .

وأما الشكل فنعنى به وضع الشكل الذى عرفناه : فتحة أو ضمة أوكسرة أوشدة أوفتحتين أو ضمتين أوكسرتين بالصورة التى نعرفها الآن . .

لكن حين ترجع للكتب العلمية القديمة التى تحدثت فى هذا تجد أن كلمة « نقط الحرف » يعنون بها ما نعنيه الآن بكلمة تشكيل الحرف . . أما ما نعنيه الآن بنقط الحرف فقد عبروا هم عنه بكلمة « إعجام الحرف » أى وضع نقطة عليه فى اصطلاحنا الآن ليزيل عجمته أى إبهامه ؛ لأن « أعجم » فى اللغة معناها أزال العجمة فالهمزة هنا كما فى بعض كلمات أخرى مثل « أقسط »[1] للسلب أو النفى ، فأعجموا الباء بنقطة تحتها « ب » أى أزالوا التباسها بالتاء التى وضعوا لها نقطتين فوقها « ت » وهكذا . . فى الحروف المتشابهة تجدهم قد ميزوها بعضها عن بعض ، إما بنقطة أو نقطتين أو ثلاثا ، وإما بنقط حرف وترك حرف مثل « د . ذ » أو نقط حرف من تحت مثل « ج » وترك حرف « ح » ونقط الثالث بنقطة من فوق « خ » فميزوا كل حرف عن أخيه ، وأزالوا التباسه أو عجمته وإبهامه مثل : « د ذ ، رز ، س ش ، ص ض . ط ظ ، ع غ . ف ق » هذا هو المراد بالإعجام قديما ، لكنا نعبر عنه الآن بالنقط . .

أما تشكيل الحروف كما نعبر الآن فقد عبروا عنه قديما « بالنقط » والسبب فى ذلك ، أنهم لما وجدوا حروف المصحف مكتوبة مجردة من ضبط كيفية نطقها ؛

---

(١) فمعناها إزالة الظلم . وقسط : ظلم فأتت الهمزة لتقلب المعنى إلى المقابل وهو العدل . ولذلك شبيه فى اللغة الانجليزية حيث يجعلون un للسلب فى أول الكلمة .

لأنهم كانوا فى الصدر الأول يعتمدون على التلقى وعلى السليقة العربية فيميزون بسهولة بين المرفوع والمنصوب والمجرور . . . الخ . . فلم يجدوا أى عناء فى القراءة الصحيحة المروية إذ كان الإعراب وضبط الكلمات سليقة ينطقونها صحيحة دون حاجة لضبط آخرها . .

لكن لما امتدت رقعة الإسلام ودخله غير العرب ؛ والمصاحف أمامهم على ما كانت عليه فى الصدر الأول وعلى الكتابة العثمانية مجرد حروف حدث منهم خطأ فى قراءة آخر الكلمات ، وعادت المشكلة – مشكلة عدم تصحيح التلفظ بالقرآن ، لاسيما من جهة الإعراب ، وكسر آخر الكلمة أو ضمها ، أو فتحها – فكانوا يقرءون المرفوع مجرورا كما قرأ واحد : « إن اللهَ بَرِىءٌ من المشركين ورسولِهِ » بكسر اللام ، وهذا يعنى أن الله يبرأ من المشركين ومن الرسول معا . . وهذا خطأ فادح يغير المعنى ويعكسه تماما والصواب قراءة رسوله « بضم اللام » أى ورسوله برىء من المشركين أيضاً .

ولذلك ، فزعوا من هذا الخطأ ورأوا ألابد من علاج له حتى لا يقع فيه المسلمون ولاسيما المحدثون منهم – فاجتهدوا فى وضع علامات على آخر الكلمات تبين موقعها من الإعراب والنطق الصحيح . . فاخترعوا للفتحة نقطة فوق الحرف ، وللضمة نقطة بجانب الحرف ، وللكسرة نقطة تحت الحرف ، وللسكون نقطتين . . فكلمة (ورسوله) جعلوها هكذا (ورسولة) فيعرف أن اللام مضمومة . وأن اللّه . . جعلوا فوق النون نقطتين علامة التشديد وفوق الهاء نقطة علامة الفتحة ، وضمنوا بذلك أن تكون قراءة المسلمين للقرآن صحيحة من ناحية آخر الكلمات وسموا هذا العمل . . بالنقط . . ، لأنه قام على أساس « النقطة » . وكانت النقطة بوضعها ومكانها تميز علامة النصب والرفع والجر والتشديد . . وأدوا بذلك خدمة عظيمة للقرآن وللمسلمين ، وإن كان بعض المتحرجين قد تحرجوا فى وقتها ؛ لأنهم اعتبروا هذا إدخالا على القرآن ما ليس منه وما لم يفعله عثمان رضى الله عنه ، . لكن القافلة سارت ، ولا يصح إلا الصحيح كما يقال . .

ويروون فى سبب هذا حادثة وقعت فى أيام زياد بن أبيه حين كان واليا لمعاوية على البصرة ٤٨هـ ، فقد أحس ما يقع فيه قراء القرآن من خطأ فطلب من أبى الأسود الدؤلى أن يجعل لهم علامات تساعدهم على القراءة الصحيحة ، ولكن أبا الأسود لم يتحمس لهذا الطلب ، وربما تحرج أن يضيف لكتابة القرآن شيئا ، لكنه سمع مرة قارئا يقرأ : (إنَّ اللهَ برىءٌ من المشركين ورسوله) بجر اللام ، وهذا كما قلنا خطأ كبير يعكس المعنى ، ففزع وأثرت فيه الحادثة فنشط لعمل ما طلبه منه زياد وميز آخر الكلمات بالنقط على الصورة التى ذكرناها . .

وسار المسلمون على ذلك سنين ، لكن جد جديد فى الأمر ، وحصل لبس أو اشتد اللبس عليهم فى قراءة الحروف المتشابهة « ب ب ب » لاسيما غير العرب أو أبناء العرب الذين لم يتشربوا السليقة العربية داخل الجزيرة . . كيف يميزون بينها ؟ فكان لابد من وضع علاج لهذه الحالة الجديدة . . ومجابهتها بما يقضى على التحريف فى قراءة القرآن ، ويتيح للقارئ تمييز الباء من التاء من الثاء . . . الخ . . وكان هذا فى أيام . . « عبد الملك بن مروان » الخليفة الأموى الذى أصدر أمره إلى الحجاج بن يوسف الثقفى واليه على العراق لعلاج هذا الخطر . .

واختار لهذه المهمة نصر بن عاصم الليثى ، ويحيى بن يعمر ، والحسن البصرى . . فعملوا على نقط الحروف المنقوطة الآن : نقطة من فوق أو تحت ، نقطتين من فوق أو تحت ، وثلاثا . . ليميزوا الباء من التاء من الثاء ، وهكذا حولوا مشروع أبى الأسود الذى أراد به بيان شكل الحرف الأخير وإعرابه إلى ما نسميه الآن بنقط الحروف وعمموها فى أول الكلمة ووسطها وآخرها حسب وجود الحروف التى رأوا نقطها ، ولكن بقى تشكيلها لبيان الفتحة والضمة والكسرة . . . الخ . . وهو الذى جعله أبو الأسود بوضع النقط . . فعمدوا إلى النقطة من فوق ، فدوها قليلا فصارت فتحة ، ومن تحت فصارت كسرة ، وإلى نقطة الضمة ، فجعلوها على شكل واوصغيرة ، ونقطة السكون فجعلوها دائرة « ْ » وهكذا . . فتم بذلك النقط على الحروف التى نعرف أنها منقوطة الآن ، كما تم وضع شكل كل حرف فى الأول والوسط أو الآخر على الطريقة التى نعرفها الآن . .

وبذلك ضمنوا لكل من يقرأ القرآن طريقة القراءة الصحيحة ، وقدموا بذلك أجل خدمة للقرآن . . اقتضاها العصر وتدرج الزمن برغم ما وجدوا من معارضة المتحرجين المتورعين الخائفين من إضافة أى شيء إلى حروف المصاحف التى أمر بكتابتها عثمان رضى الله عنه . . وشعر كل مسلم وسيشعر حتى قيام الساعة بالخدمة العظيمة التى أداها هؤلاء المصلحون للقرآن وقرائه . .

والآن ، نستهجن أن تكتب آية بدون شكل ، ونرى من الخطر كتابتها بدون نقط . . نعم . . . ولقد تغير الزمان وتغيرت أحوال إنسانه ومن الضرورى وضع العلاج الذى يناسب التغيرات مادام ذلك لصالح العقيدة والمبدأ والقرآن الكريم والمسلمين الحريصين على القراءة الصحيحة للقرآن . . ترى لو لم يحصل هذا فماذا يكون عليه أمر المسلمين مع القرآن . . جزاهم الله خير ما يجزى به خدمة كتاب الله . .

الرسم الإملائى :

ولعل هذا يولد سؤالا ضروريا عن رسم المصحف الآن وتعذر قراءة بعض ألفاظه على الأغلبية منا دون معلم وملقِّن ، بعد ما تعلم الناس الخط على الطريقة الإملائية الحديثة التى تختلف من بعض وجوهها عن الرسم العثمانى فى المصحف .

فإذا كانت الجمهرة الغالبة ممن يعرف القراءة والكتابة يجب الواحد منهم أن يقرأ شيئا من القرآن الكريم فى المصحف فيمسك به ، ويبدأ فى القراءة . فيجد رسما للكلمة لم يعرفه فيما تعلمه فى المدرسة . . والتلاميذ الذين يبدءون فى تعلم الخط والقراءة يتعلمون الكتابة على الطريقة الحديثة ، ومن المقرر عليهم بعض آيات القرآن فيجدونها مكتوبة برسم مخالف لما يتعلمونه . فكيف يقرءون ؟

لماذا لا يكتب القرآن الآن بالإملاء الحديثة المعروفة للجميع حتى تسهل قراءته ، ولماذا لا نكتب القرآن للتلاميذ فى الكتب المقررة بالإملاء الحديثة ؟ وكذلك فى الصحف والكتب التى يتداولها الجمهور ؟ . صحيح أنه يوجد الآن فى المصحف إشارات خاصة تدل على طريقة القراءة حيث تجد مثلا أنهم رمزوا

للألف فى الكلمة الموصولة (الصَّـٰلِحات) (يَصـٰلح) بفتحة مائلة هكذا لتقرأ (الصالحات) و(ياصالح) وهكذا ، لكن هذا يحتاج إلى معلم ومرشد لكل من يريد قراءة القرآن وإلا وقع فى لبس شديد كما سمعت من يقرأ (ياصالح) يقرؤها حسب الرسم المصحفى أمامه (يَصْلِح) ويرتبك فى كيفية نطقها ويجد عنتا . . هل هى يصَلِح أو يصَلِح » وهو لا يعرف الرمز المكتوب فوق الياء « ٰ » ولا ما يشير إليه ، فلماذا نكلف قراء القرآن عنتا ؟ لماذا لا نرسم لهم الخط المصحفى مثلة فى أى كتاب وصحيفة ؟ . .

لقد عمل السابقون عملا مجيدا فى وضع النقط والشكل على كلمات القرآن ، ولم يكن ذلك موجودا ، فخدموا القرآن وقراءه خدمة عظمى نحسها الآن . .

فماذا علينا لو أقدمنا نحن على رسم كلمات القرآن التى يحصل فيها لبس بحالتها الراهنة فرسمناها بالطريقة الكتابية المعلومة لنا ، والمستقرة منذ أمد بعيد . . وستستمر كذلك إن شاء الله ؟ . .

إن شكل الحروف الآن قد تغير عما كان عليه حين كتب القرآن فى عهد الرسول وخلفائه . ثم دخلت على الحروف اصطلاحات الشكل والنقط ، فماذا لو عدلنا فى رسم بعض الألفاظ مثل (الصلوة) فكتبناها (الصلاة) فى المصحف وكذلك (الزكوة) فنكتبها (الزكاة) وهكذا ؟

هذا السؤال أو التساؤل ليس حديثا ولكنه قديم منذ القرن الأول من الهجرة . فقد سئل الإمام مالك وغيره هذا السؤال فكان جوابهم التمسك بالقديم المأثور . . ومعنى هذا أنه كانت هناك حالة أو حاجة ولدت هذا السؤال الذى نثيره اليوم ، وعلى مر القرون بعد ذلك ظل هذا السؤال قائما ، وظلت الإجابة عنه متنوعة مختلفة ، بعض يتمسك بالموروث ويحافظ عليه ، وبعض يرى أن ذلك ليس أمرا واجبا ورد فيه نص ولكنه يتبع حاجات الناس وتطور الخط والمصلحة ، بل يرى أن بقاء الكتابة على ما هى عليه أمر يورث اللبس والخطأ فى قراءة القرآن ومن واجبنا العمل على إزالة هذا اللبس بكتابة القرآن على الطريقة الإملائية التى

جدّت بعد كتابة القرآن فى عهد لم تزدهر فيه الكتابة كما ازدهرت فيما بعد وحتى الآن . لقد حدث فى عهد الملك فؤاد أن راج الخط التاجى الذى يرسم الخط الأول على شكل مشابه للتاج ( ) وهكذا وكتب مصحف به . وكان فيه كما ترى شئ من تغيير الحرف فى الرسم . . كما تغيرت الحروف كلها عن رسمها الأول دون اعتراض . ولو أن هذا أمر يتصل بالشكل إلا أنه وما حدث من تشكيل الحروف ونقطها تغيير فى الرسم العثمانى .

فلماذا نمنع هذا التغيير الذى سيحقق مصلحة ، ولن يمس جوهر المصحف ؟

فى كل قرن مر منذ عهد الإمام مالك حتى الآن تجد بين العلماء هذا الاختلاف أو هذين الرأيين حتى وجدنا مجمع البحوث فى الأزهر يحتضن الرأى القائل بالتمسك بالرسم العثمانى ، ويمنع كتابته بالإملاء الحديثة ، ولا يوافق على مصحف كتب بها . .

ولا أريدهنا أن أدخل بالقارئ فى خضم الأدلة التى ساقها كل فريق لتأييد رأيه . . إذ يكفى أن هذا الخلاف لم ينشأ من فراغ ، وإنما نشأ من أدلة استند إليها كل فريق ، وأدلة كل منهما أدلة وجيهة ، وهدفهما معا الحفاظ على القرآن الكريم ، فهو هدف شريف بجانب الأدلة الوجيهة . .

ولذلك ، لم يطعن فريق فى دين فريق آخر ، ولا وجه إليه تهمة تغض من شأنه ، فالموضوع موضوع اجتهادى ، ولكل وجهة نظره فى الوصول إلى الهدف المشترك وهو خدمة القرآن الكريم .

وإذا كان الرأى الغالب أو الرأى الرسمى للأزهر للآن هو الرأى المتمسك بالرسم العثمانى والمحافظ عليه ، فمن الجائز أن يتغير هذا الرأى بتغير وجهة نظر العلماء الممسكين بدفة الآراء فى الأزهر ، وتأتى جمهرة منهم تعتنق الرأى الاجتهادى الآخر وتجيز كتابة المصاحف بالرسم الحديث المعروف تسهيلا على المسلمين فى قراءة القرآن . .

ونحن نرى الآن تطورا نحو هذا ، يحدث فى كتابة آيات القرآن خارج

المصحف فى كتب التربية الدينية فى وزارة التربية ، بل وفى الكتب التى تدرس بالأزهر ، بل نرى العلماء المتمسكين بالرسم العثمانى فى كتابة المصحف يكتبون الآيات التى يستشهدون بها فى مقالاتهم وبحوثهم وكتبهم بالرسم الحديث المخالف لرسم المصحف ، فنجدهم يكتبون فى الآية هكذا (الصلاة والزكاة) ولا يكتبونها كما فى المصحف (الصلوة الزكوة) وذلك كله تسهيلا للقراءة . .

وهذا يعطى انطباعا بأن الخلاف ينحصر الآن فى رسم المصحف نفسه . كما يعطى انطباعا بأن الجميع يريد تسهيل القراءة . لكن يقف أمام المحافظين هدف هو الإبقاء على الرسم القديم والتمسك به خوفا من الاختلاف فى الكتابة الذى ربما ينشأ من اتباع الطريقة الإملائية الحديثة التى قد تتغير من حين لآخر . . وأما الآخرون فيقولون لامحل للخوف من هذا فلن يحدث تغيير فى كتابة الإملاء فى الألفاظ التى نحتاج إلى كتابتها بالإملاء الحديثة ، وأياما كان فسيكون الذى أمامنا هو القرآن الكريم . . ونحن نجد الآن خلافا فى كتابة المصحف فى المغرب العربى من حيث النقط . حيث ينقطون الفاء مثلا نقطة من تحت . .

وهكذا . . ومع ذلك فإن هذا لم يحدث خطرا ، ولم نحس منه أى محذور . . برغم أننا نجد معاناة فى قراءة القرآن بالطريقة المغربية الأفريقية . . السائدة فى شمال افريقيا والدول والجاليات الإسلامية فى غرب ووسط افريقيا . .

ولقد اهتم بعض المكتبات وأصحاب دور النشر هنا وفى بيروت بطبع مصحف على الطريقة المغربية الأفريقية ، وكان الرائد فى هذا هو الأستاذ محمد عبد الرحمن صاحب المكتبة المعروفة بحى الأزهر حيث قام بدراسة ميدانية لهذا الخط وخصائصه وقارب ما أمكن بين الخط المشرقى والخط المغربى مع الاحتفاظ بطريقة النقط المغربية وطبع مصحفا بهذه الطريقة وتبعه آخرون فى بيروت . . لتصدير هذه المصاحف إلى المناطق التى تروج فيها . .

ونحن نتمنى أن تزول هذه الفروق ، وتتوحد كتابة خط المصاحف فى كل أرجاء العالم الإسلامى .

وإننى لازلت أذكر أننى نشرت منذ نحو تسع سنوات للأستاذ الأديب المرحوم محمود غنيم بحثا علميا حول هذا الموضوع حينما كنت رئيسا لتحرير مجلة الوعى الإسلامى بالكويت ، وقد تحرى فى بحثه أن يذكر وجهات نظر الفريقين مع تأييد وجهة النظر الحديثة . وفتحت باب الرد والبحث وجاءتنى ردود نشرتها ، ومع ذلك شن بعض المتزمتين هناك - عن جهل - حملة كلامية لدى بعض الشخصيات المهمة أرضى فيها نفسيته ! ! فرأيت أن أغلق الباب بكلمة أحب أن أسجلها هنا .

« كنا نود أن تستمر المناقشة العلمية حول موضوع الرسم العثمانى للمصحف . ولكن الرسائل الكثيرة التى وردت إلينا ، وبعض ما وصل إلى سمعنا من تعليقات خرجت بالموضوع عن ميدان المناقشة العلمية البريئة إلى ميدان المطاعن الشخصية جعلتنا نؤثر إغلاق هذا الباب ونقول كلمتنا التى كنا ننتظر بها إلى أن تتم المناقشة . .

لقد تعجبت كثيرا من الذين انزعجوا من الكتابة حول هذا الموضوع . واتخذوا منه مادة للتعليق عليه بما يشتهون ، وما دروا أنه موضوع أثير من قديم حتى سئل فيه الإمام مالك ، واختلفت فيه آراء العلماء الأعلام منذ ذلك الوقت ، جماعة يمنعون كتابته بغير الرسم العثمانى ، وجماعة يجيزون ، ولكل من الجماعتين حجته وأدلته التى يمكن الرجوع إليها فى الكتب المطولة التى تعنى بالقرآن وعلومه . فالخلاف إذن فى هذا الموضوع خلاف قديم ، ويثار بين حين وآخر لما يحسّه بعض العلماء من حاجة لتيسير قراءة القرآن على من لم يتلقوه عن القراء . . ولئلا يوقع فى تغيير من الجهال كما يقول الشيخ الإمام العزبن عبد السلام إذا قرءوه بالرسم العثمانى . .

ونحن نرى تقديرا منا لوجهة نظر الفريقين وتحقيقا لما يهدفان إليه من خير أن تظل كتابة المصحف كما هى بالرسم العثمانى ، على أن تكتب الكلمات التى توقع فى اللبس فى هامش الصفحة بالرسم الإملائى الحديث الذى ألفه القراء . فكلمة (يُصلِح) نضع عليها رقما ثم نكتبها فى الهامش هكذا (يا صالح) وبهذا نحافظ

على الرسم العثمانى وفى الوقت نفسه نكون قد أرشدنا القارئ العادى إلى كيفية النطق الصحيح . وإن كان هذا سيشغله عن متابعة القراءة لكن إلى وقت .

ولعل أول من اتبع هذه الطريقة هو فضيلة الأستاذ الكبير الشيخ عبد الجليل عيسى عضو مجمع البحوث فى تفسيره القيم المختصر . . « تيسير التفسير » ثم فى تفسيره الأخصر على هامش القرآن أيضاً « المصحف الميسر » فحازت هذه التجربة إعجاب كل من اطلع عليها وارتياحه . .

فما رأى السادة الذين اختلفت وجهات نظرهم فى هذه الطريقة التى سبقنا إلى تنفيذها فضيلة الشيخ عبد الجليل عيسى ؟ .

لا أظن أنها تكون موضع خلاف ، ولهذا أستحث كل معنى بهذا الموضوع أن يعمل على تنفيذها وأتنبأ من الآن برواج كل مصحف يطبع بهذه الطريقة رواجا لم يسبق له نظير . .

فكرة أقدمها للذين يعنون بطبع القرآن وأستحثهم عليها ، ولا أطالبهم بشىء من أرباحها . . إن أجرى إلا على الله . . » . .

قلت هذا من سنين ولازلت عنده كحد وسط يحقق الفائدة ولايثير أحدا . وعلى الله قصد السبيل . . .

* * *

المحكم والمتشابه

وردت آيات تصف القرآن بأنه كله محكم ، وآيات أخرى تصفه كله بأنه متشابه . .

فالأولى كقوله تعالى فى أول سورة هود :

« كِتَٰبٌ أُحْكِمَتْ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ﴿١﴾ » (١)

والثانية وردت فى سورة الزمر :

« ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِىَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ » (٢)

فكيف يكون محكما متشابها وبينهما فرق بعيد . . ؟

والجواب عن هذا أنه كتاب أحكمت آياته كلها وأتقنت فى صياغتها وبلاغتها وصدقها فى أحكامها ، وليس فيه شىء متقن وشىء غير متقن ، بل إنه يشابه بعضه بعضا ، ويشترك كله فى هذه الخاصية ، وهى الإحكام والإتقان فهو متشابه من هذه الناحية – أى الإحكام ، وبهذا ينحل هذا الإشكال الظاهرى وتزول هذه السحابة كسحابة الصيف . .

لكن الذى ينبغى الوقوف عنده هو ما جاء فى آية أخرى من أن فيه محكما وفيه متشابها ، وهذه الآية من أوائل سورة آل عمران :

---

(١) الآية : ١

(٢) الآية : ٢٣

« هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌ ۖ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ ۘ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٧﴾ »[1]

فما معنى المحكم هنا الذى وصفه الله بأنه أم الكتاب ؟ وما معنى المتشابه الذى يتعلق به مرضى القلوب من أعداء الله ليثيروا به الشبه على الرسول ودعوته ، ويوقدوا نار الفتنة بما يفسرونه به على حسب أهوائهم وأغراضهم السيئة ؟ . .

لابد أن يكون التشابه هنا غير المراد بالتشابه فى قوله (كتابا متشابها) فما معناه ؟ وما معنى المحكم المقابل له ؟ ثم ما معنى التأويل هنا ؟ أعتقد أن من الضرورى معرفة الجو الذى نزلت فيه هذه الآية تذكر المحكم وتذكر المتشابه وتذم الذين يتعلقون بالمتشابه وحده دون رده إلى المحكم زيغا وميلا عن الحق ، وقصدا إلى إثارة الفتنة فى النفوس حول القرآن والإسلام .

فإذا عرفنا الجو أو السبب الذى نزلت من أجله هذه الآيات من أول سورة آل عمران إلى نحو ثمانين آية منها ، أمكن أن نفهم على ضوء ما حصل ، المراد بالمحكم ، والمتشابه ، والتأويل . .

يقول المفسرون فيما يروونه من سبب لنزول هذه الآيات : « إنها نزلت وما بعدها إلى نحو ثمانين آية ، فى نصارى نجران ، إذ وفدوا على رسول الله ﷺ وكانوا ستين راكبا فذكروا عقائدهم واحتجوا على التثليث وألوهية المسيح بكونه خلق على غير السنة التى عرفت فى توالد البشر ، وبما جرى على يديه من الآيات وبالقرآن نفسه . فأنزل الله هذه الآيات »[2] . .

---

(١) الآية : ٧

(٢) تفسير المنار ج ٣ . .

ويعنى هذا أن هذا الوفد من النصارى أخذوا يحتجون على مذهبهم فى ألوهية عيسى وفى التثليث بكلمات وردت فى القرآن عن عيسى عليه السلام بأنه كلمة الله وروح منه . دون أن يلتفتوا إلى الآيات المحكمة الأخرى التى تؤكد وحدانية الله وتنزيهه عن الولد والشريك . . . الخ .

فأنزل الله هذه الآيات ليرد عليهم وعلى استدلالهم ببعض آيات القرآن ليقول لهم ، إن هذه الآيات التى تتمسكون بها وحدها إنما هى من الآيات والكلمات المتشابهة المحتملة لعدّة أوجه فيجب ردها إلى المحكم القاطع فى دلالته من آيات القرآن الكريم ، لمعرفة المراد منها ، أما التمسك بها وحدها واقتطاعها مما حولها دون ردها للمحكم ومحاولة التشكيك بها فهذا ليس من شأن العقلاء الذى يحرصون على العقل والمنطق فى مناقشاتهم ، ولكن من شأن مرضى القلوب الذين يلتقطون الكلام المحتمل ليثيروا به الفتن ، ويؤيدوا رأيهم ، دون التفات إلى النصوص القاطعة التى تجعل استنتاجهم باطلا غير مقبول . .

فمادام القرآن نفسه يؤكد وحدانية الله وأنه لا إله إلا هو ، وأنه لا ولد له ولا والد ، فلا ينبغى أن تهملوا هذا ثم تعمدون إلى ما أفاده القرآن عن عيسى بأنه كلمة الله وروح من الله لتأخذوا منه أنه ابن الله ، لأن الآيات الأخرى القاطعة تنفى هذا . فلماذا تتمسكون بكلمات من القرآن ، وتهملون كلمات أخرى ؟ إذا كنتم تستشهدون بالقرآن فإما أن تنزلوا على حكمه كله وقوله كله وإلا فاتركوا الاستشهاد به . وهذا هو منطق العقول السليمة البعيدة عن الأهواء . . أما عملكم بهذه الصورة فهو عمل أصحاب الأهواء :

« فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ (أى وحده) ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ »

أى على هواهم تأويلا باطلا . مما نرى له مثيلا الآن فى مجادلات بعض المسيحيين فى هذه المسألة نفسها . .

ويقول ابن كثير فى تفسيره لهذه الآية : « يخبر تعالى أن فى القرآن آيات

محكمات هن أم الكتاب ، اى بينات واضحات الدلالة لا التباس فيها على أحد ، ومنه آيات أخر فيها اشتباه فى الدلالة على كثير من الناس أو بعضهم ، فمن رد ما اشتبه إلى الواضح منه وحكم محكمه على متشابهه عنده ، فقد اهتدى ، ومن عكس انعكس ولهذا قال تعالى (هن أم الكتاب) أى أصله الذى يرجع إليه عند الاشتباه : (وأُخَرُ متَشَابِهَات) أى تحتمل دلالتها موافقة المحكم ، وقد تحتمل شيئا آخر من حيث اللفظ والتركيب لا من حيث المراد » .ا هـ .

فيأتى الخصوم مرضى القلوب وينتهزون فرصة احتمال اللفظ لأهوائهم من حيث التركيب والظاهر فيتمسكون به دون نظر إلى النصوص الأخرى القاطعة التى تنفى نفيا قاطعا الفهم الذى يذهبون إليه . .

فهم حينما يتمسكون بكلمة : روح منه أى من الله ومن أنه ليس له أب ويأخذون منها أنه جزء من الله أو أنه ابن الله أو أنه ثالث ثلاثة ، لم يضعوا فى اعتبارهم الآيات الأخرى القاطعة التى تنفى أن يكون لله جزء أو ابن أو شريك . . وكان من الضرورى عليهم – لولا مرض فى قلوبهم – أن يرجعوا إلى الأصول المعتمدة القاطعة فى القرآن التى تنفى الشريك والولد ماداموا يستشهدون بالقرآن ، أما أن يتمسكوا بجزء منه ويتركوا الآخر فهذا هو تصرف أصحاب الأهواء مرضى القلوب والنفوس . . الذين يعتمدون على المهارات . والجدل اللفظى . والتقاط الكلمات وتحميلها فوق ما تحتمل . .

وكثيرا ما يجرى مثل هذا فى المناقشات السياسية بين الأحزاب بعضها مع بعض أو فى المعارك الصحفية فى أيامنا بقصد « التهويش والتبكيش » وكسب المؤيدين من السطحيين فى تفكيرهم . . ولكن هذا الأسلوب كثيرا ما يفقد صاحبه الأرض التى يقف عليها . ثم لا يبقى أخيرا إلا الصحيح :

« فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ »

وقد ورد تعليقا على هذه الآية وعلى الذين كانوا السبب فى نزولها بمسلكهم المجافى للحق ، أن رسول الله ﷺ قرأها فقال حين انتهى منها : (إذا رأيتم الذين

يجادلون فيه فهم الذين سمى الله فاحذروهم) وفى رواية أخرى تفسر معنى (يجادلون فيه) تقول : قال رسول الله ﷺ : (فإذا رأيتم الذين يتبعون ما تشابه منه فأولئك الذين سمى الله فاحذروهم) البخارى وغيره . .

أى أولئك هم الذين وصفهم الله بأنهم فى قلوبهم مرض ، ويريدون إثارة الشبه والفتن لا غير ، فاحذروهم ، واحذروا أن تستمعوا أو تستجيبوا إليهم . فليس لهم غرض إلا إثارة التشكيك واللعب بالألفاظ . والجدل معهم مضيعة للوقت وإثارة الفتن ، فلن يرجعوا هم إلى الحق مهما أظهرته لهم ، فالحق أمامهم واضح ولكنهم حادوا عنه لغرض أومرض فى نفوسهم ، وأصحاب الهوى يعبدون هواهم :

« أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَـٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَـٰوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِنۢ بَعْدِ ٱللَّهِ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٢٣﴾ »[1]

وهؤلاء من هذا الصنف ، فاحذروهم . .

وإذا عرفنا أن هذه هى الظروف التى نزلت من أجلها هذه الآيات ، وأن هذا هو الأسلوب الذى سلكه المجادلون الذين أدانهم الله ووصفهم هذا الوصف فى الآية بأنهم (فى قلوبهم زيغ) وأنهم يتبعون الألفاظ المتشابهة فيحملونها على أهوائهم ولا يراعون الآيات المحكمة التى تبطل تفسيراتهم للمتشابه .

إذا عرفنا هذا أمكن لنا أن ننتزع من أرضية الواقع هذه ، المعنى المراد بالمحكم ، والمراد بالمتشابه ، والمراد بالتأويل ، .

فقلنا إن المحكم هو الآيات ذات المعنى الواضح القاطع فى الإفادة مثل : (فاعلم أنَّه لاَ إلَه إلاَّ الله) ، ومثل : (قُلْ هُو اللهُ أَحَد . . السورة) ومثل : (للذكرِ مثْلُ حَظّ الأُنْثَيَيْن) ومثل :

---

(١) سورة الجاثية . الآية : ٢٣

« إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا۟ ٱلْأَمَـٰنَـٰتِ إِلَىٰٓ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحْكُمُوا۟ بِٱلْعَدْلِ »

مع اجتهاد المفسرين فى معنى الأمانات ؛ لأن آراءهم كلها تفسر معنى الأمانة ، ولاتثير شبهة أو معنى محذورا فى الإسلام . . وأغلب آيات القرآن كذلك محكمة واضحة . .

والمتشابه : هو الذى يحتمل معنيين فى ظاهره ، وأحدهما محظور أو بعيد مثل :

« وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ » « وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ » « ٱلرَّحْمَـٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ »

« يَدُ ٱللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ » « رُوحٌ مِّنْهُ »

ومثل ذلك . مما لو أخذنا بظاهره وقعنا فى محظور تشبيه الله بالخلق . . فهذا ونحوه يجب علينا فيه أن نلوذ بالآيات المحكمة التى تنزه الله عن الشبيه مثل قوله تعالى : (لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَىْءٌ) . . (قل هُوَ اللهُ أَحَدٌ . .) فإذا جعلنا هذه الآية المحكمة حكما فى الموضوع استحال علينا أن نفسر وجه ربك بأنه وجه كوجهنا أو أن غضبه كغضبنا ، أو يده كيدنا . وهكذا مما يمكن للمغرضين أن يقولوه . .

ومثل ما جاء من وصف عيسى من أنه كلمة الله وروح من الله مما لو أخذنا بظاهره وقعنا فى الأشراك ، فيجب علينا فى هذه الحالة أن نضع الآيات المحكمة أمامنا ونحكمها فى تفسير مثل هذا . . والآيات المحكمة تنفى أن يكون لله شريك أو ابن ، وعلى ذلك نستبعد فهم هذه الكلمات على أنها تفيد الجزئية من الله أو البنوة لله كما أراد هؤلاء الزائغون أن يفهموا . . وكما يريد أمثالهم الآن .

وهذه الحالة تحصل أحيانا فى غير القرآن ، فقد تأتى ألفاظ فى القوانين محتملة لمعنيين ، يريد بعض المحامين حملها لصالحهم فيكون الفيصل فى هذه الحالة الرجوع إلى الأصول من الدستور والقواعد العامة المتفق عليها .

ويكون معنى التأويل الذى فعلوه هو تفسير هذه الألفاظ المشتبهة على هواهم من غير ردها للمحكم ، وهو بهذا مذموم . فابتغاء التأويل والتفسير فى حد ذاته ليس مذموما ، فنحن نبتغى تأويل القرآن وتفسيره ، ولكن هناك فرق بين من يقبل على تفسير القرآن برأى مغرض مسبق يريد أن يلتمس له من القرآن دليلا على رأيه الفاسد ، وبين من يقبل على تفسير القرآن بروح الإنصاف والبحث عن الحقيقة ، مراعيا الأصول والقواعد العامة التى بينتها الآيات المحكمة الفاصلة . .

فلابد لنا أن نضيف حينئذ إلى قوله تعالى : (وابتغاء تأويله) قيدا من واقع حالهم ، وهو أنهم فسروا أو أولوا المتشابه بما يوافق أغراضهم الفاسدة ، ويؤدى إلى معنى لا تقره الآيات المحكمة ، ولا تقره القواعد المعترف بها فى الإسلام . . كما فعلوا حين أخذوا من كلمة (روح منه) أى من الله أن عيسى ابن الله أو جزء من الله ، ويقطعون بصواب تفكيرهم وتفسيرهم . . مع بعد هذا التفكير والتفسير عن الحق والصواب ، لأنه تفكير منحرف يتحاشاه المؤمنون ، كما يتحاشاه العقلاء المنصفون . والتفسير الصواب يعلمه الله قطعا وهو ليس كتفسيرهم ، كما يعلمه المؤمنون الراسخون فى علمهم وإيمانهم ، وذلك برد هذا المتشابه إلى المحكم ، وتفسيره على ضوئه مما يؤدى إلى سلامة الإيمان فى النهاية وسلامة الفهم واستقامته . .

وحينئذ لا يمكن أن يفهموا من (روح منه) أنه جزء من الله أو ابن له ، لأن الآيات الأخرى تنفى هذا الفهم وتبطله ، فيكون القيد (وابتغاء تأويله) أى تأويلا فاسدا يوافق أهواءهم . .

والذى أنزل المحكم وأنزل المتشابه هو الله ، ولا يمكن أن يقرر فى آية ما يبطل مفهوم ومضمون وحكم آية أخرى . . فكلا المحكم والمتشابه من الله ، نؤمن بهذا ونؤمن بأن الله لا يصدر عنه تناقض (كُلٌّ من عِنْدِ رَبِّنَا) ، ولا يليق حينئذ أن يناقض بعضه بعضا . . هذا هو منطق الإيمان ومنطق المؤمنين بل ومنطق العقلاء المنصفين . . (وما يَذَّكَّرُ إلاَّ أولُو الألْبَاب) والعقول . فيفهمون استحالة التناقض بين كلامه تعالى ، فيردون المتشابه للمحكم ويفسرونه بما يتفق معه . .

والذى يؤيد ما ذهبنا إليه من معنى المحكم ، والمتشابه ، والتأويل بخاصة ، هو أن كثيرا من المؤمنين والورعين منهم تحدثوا فى تفسير المتشابه ، وبينوا للناس معناه الصحيح على قدر طاقتهم ، وقد روى عن ابن عباس رضى الله عنهما أنه قال : « أنا من الراسخين فى العلم أنا أعلم تأويله » وقد دعا له الرسول : (اللهم فقهه فى الدين وعلمه التأويل) .

وليس من المعقول أو المقبول أن ينزل الله فى كتابه كلاما ، وصفه كله بأنه هدى ونور وشفاء لما فى الصدور ، ثم يكون فيه ما لايستطيع الرسول ولا جبريل والصحابة أن يفهموه ويفسروا معناه . . لا يستطيع أحد من المسلمين أن يقول ذلك ، وينسب للرسول الجهل بالقرآن . .

قال ابن تيمية فى تفسيره لسورة الإخلاص[1] « لا يجوز أن يكون الله أنزل كلاما لا معنى له ، ولا يجوز أن يكون الرسول وجميع الأمة لا يعلمون معناه ، كما يقول ذلك من يقوله من المتأخرين ، وهذا القول يجب القطع بأنه خطأ » إلى أن يقول : « فإن معنى الدلائل الكثيرة من الكتاب والسنة وأقوال السلف على أن جميع القرآن مما يمكن علمه وفهمه وتدبره وهذا مما يجب القطع به ، وليس معنا دليل قاطع على أن الراسخين فى العلم لا يعلمون تفسير المتشابه ، فإن السلف قد قال كثير منهم إنهم يعلمون تأويله ، منهم مجاهد مع جلالة قدره والربيع بن أنس ومحمد بن جعفر بن الزبير ، ونقلوا ذلك عن ابن عباس ، وقول أحمد فيما كتبه للرد على الزنادقة والجهمية فيما شكت فيه من متشابه القرآن وتأولته على غير تأويله ، وقوله عن الجهمية : « إنها تأولت ثلاث آيات من المتشابه ، ثم تكلم على معناها . دليل على أن المتشابه عنده تعرف العلماء معناه ، وأن المذموم تأويله على غير تأويله (أى وجهه الصحيح) فأما تفسيره المطابق لمعناه فهو محمود ليس بمذموم » إلى أن قال :

---

(١) نقلاً عن تفسير المنار للآية . ومعروف عن ابن تيمية أنه من أئمة السلفيين الذين يقال عنهم – خطأ – أنهم لا يقدمون على تفسير المتشابه . بل يقولون : الله أعلم بمراده وكفى . كما يوجد فى بعض التفاسير .

« ولهذا لم يقل أحمد ولاغيره من السلف إن فى القرآن آيات لا يعرف الرسول ولاغيره معناها أو يتلون لفظا لا يعرفون معناه » . .

وننتهى من هذا كله إلى أن التأويل الذى نريد به التفسير – وهو المراد هنا – تحدث فيه الجميع : السلف والخلف ، وبينوا معانيه حسب ما فهموا . فالسلف ومنهم أحمد بن حنبل فسروا معنى الاستواء ، وقالوا إن معنى الاستواء معلوم ونقول باستواء الله على عرشه ، لكن لا نتدخل فى بيان كيفية الاستواء ، ولم يقولوا إن معنى الاستواء مجهول ، ولكنهم أنكروا على بعض المتأولين تفسيرهم للاستواء بأنه الاستيلاء ، فمبدأ التفسير للمتشابه أمر مسلم به من الجميع لكن لكل طريقته فى التفسير . . يقول بما يؤديه إليه عقله ودينه ، وينكر على من يراه قد اشتط فى تفسيره . مثل أى تفسير للمحكم لا يقبله أحد العلماء فينكره على قائله . .

فالسلف أو أهل السنة كما هو المشهور يفسرون معنى جاء ربك ، وينزل ربنا وغضب الله عليهم ، ويقولون إن معنى النزول والمجىء والغضب معلوم ونقول به ، ولكنا نجرده حين نسنده لله عن المعنى الذى يراد به حين نسنده للخلق فهو مجىء يليق بالله ونزول أو غضب يليق به كذلك حتى لا نقع فى مشابهة الله فى صفاته لخلقه . . ويقفون عند هذا تورعا من الخوض فى بحر لا نحسن السباحة فيه ولا تؤمن عواقبها . .

ولكن هذه الطريقة فى التفسير لم توقف الزنادقة ولم تقنعهم ، فتصدى لهم علماء آخرون ، واخترقوا حجاب التورع ليسكتوهم فأولوا هذه الألفاظ المتشابهة أو فسروها بطريقة أخرى ، وقالوا جاء ربك أو ينزل ربنا بمعنى جاء أمره أو نزل أمره أورسله من الملائكة ، وغضب الله بمعنى عذب من يغضب عليهم ؛ لأن ذلك لازم الغضب ، ويد الله معناها هنا قدرة الله واستوى على العرش بمعنى استولى . . . الخ . .

ومع أن هذه الطريقة إنما اتبعها علماء مخلصون لإسكات الزنادقة والمهاجمين للإسلام فإنها لم ترض السلف باعتبار أن فيها جرأة فى تحديد المراد بها ، وفيها

صرف للألفاظ وتجريد لها من معناها إلى معنى آخر ، أوكما قالوا تعطيل للمعنى الموضوع لها إلى معنى آخر مجازى . مثل تفسير اليد بالقدرة . .

فأصبح لدينا طريقان لتفسير المتشابه طريق اتبعه السلف وأهل السنة وطريق آخر اتبعه بعض المتكلمين من العلماء المخلصين وإن كان لم يرض عنه السلفيون وهاجموه هجوما عنيفا . فالتفسير للمتشابه أمر متفق عليه من الجميع ، مثل تفسير المحكم ، لكن لكل منهم وجهة نظر فى تفسيره ، وكل يهدف لخدمة القرآن والإسلام . .

ولكن جاء بعض المتأخرين من العلماء المنتسبين لمذهب السلف ، وظنوا أن إنكار الإمام أحمد والسلفيين عموما لطريقة الآخرين فى التفسير إنكار لمبدأ التفسير نفسه ، وأن الواجب هو ألا نخوض فى معنى وتفسير هذه الألفاظ بل نسلم تفسيرها لله ، ومن هنا نجد كثيرا فى تفسير هذه الألفاظ فى القرآن مثل أوائل السور عبارة للمفسر هى « الله أعلم بمراده » وعند (استوى) الله أعلم بمراده . . بينما السلفيون الأول ومنهم الإمام أحمد فسروها بمعناها المعلوم لدى الناس ، ولكن قالوا : « استواء يليق بالله » لا كاستوائنا الحسى ؛ لأن ذلك محال على الله . فالذى توقفوا فيه هو بيان كيفية الاستواء والنزول والمجىء . . . الخ . . ولذلك وجدنا الإمام مالك رضى الله عنه يقول عندما سئل عن الاستواء : « الاستواء معلوم والعلم بكيفه مجهول والسؤال عنه بدعة » ، لأن قوما منحرفين اشتهر عنهم التمسك بهذه المشتبهات والسؤال عنها لإثارة الفتنة والتشكيك لا لمجرد الفهم . . ولم يكن ذلك موجودا من قبل ، فأراد الإمام مالك أن يسد هذا الباب بقوله عنه : إنه بدعة . . ومن قبله وجدنا عمر بن الخطاب رضى الله عنه يضرب صبيغ بن عسل لما سأل عن المتشابه ؛ لأنه اتخذ السؤال عنه وحده ديدنا له ، ولم يكن هدفه الفهم ولكن إثارة البلبلة فى النفوس وفى الجيش ، مثله مثل إنسان تراه الآن يحفظ بعض الأسئلة المثيرة المزمنة ، ويدور بها فى المجتمعات وحلقات الدروس يثير بها الجدل الذى لا طائل تحته وربما يؤدى إلى مشاحنات ، وكلنا نستنكر أمثال هذا الشخص طبيعياً ، لأنه إنسان ممجوج ولا يقصد الفهم ، ولذلك رأينا الرسول

ﷺ يذم مبتغى المتشابه ليثيروا به الفتن وحذر منهم . . فاستعمل الخليفة عمر سلطته وضربه وعزله عن الناس تأديباً له ، واستعمل الإمام مالك سلطته الأدبية وقال : السؤال عنه بدعة ، ليكف الناس عن كثرة السؤال فيه والجدل حوله ، لا عن مجرد السؤال من طالب علم ليفهم المراد منه ، فإن الذى يريد الفهم والعلم بإخلاص سيكتفى بتلقى الجواب المقنع عن سؤاله ، ثم لا يعود إلى الثرثرة مع كل واحد بهذا السؤال ، أما أصحاب اللجاجة ورواد الفتن ومثيرو التشكيك ، فهم مقدما غير مستعدين للاقتناع والوقوف عند جواب ، مهما كان مقنعا . مثل ما نرى فى كل مجلس وكل ندوة ومحاضرة من سؤال عن القضاء والقدر ، وهو سؤال مزمن أثير من قبل الإسلام ويثار وسيثار من كل إنسان لا بضاعة عنده غيره يسأل عنها . وهؤلاء مهما سقنا لهم من أجوبة يظلون يجادلون ، ولذلك لا علاج لهم بعد سوق الأجوبة لهم إلا الردع والإهمال ؛ لأنهم مجادلون ولا يريدون الاقتناع ، ولذلك رأينا الرسول ﷺ يسد هذا الباب وينهى عن السؤال فى القدر والجدل حوله ، ورأينا الصحابة رضوان الله عليهم ينهجون نهجه لا لسد باب العلم والفهم على من يريد – بإخلاص – أن يتعلم ويفهم ، ولكن لسد الباب فى وجوه المغرضين المثيرين للفتن والشبهات .

وهذا الموقف ليس بغريب ولا هو من قبيل التعنت ، فأنت حينما ترى فى إنسان أمامك أنه لجأ إلى المهاترات ، وإلى المجادلة لمجرد المجادلة واللعب بالألفاظ فإنك تتخذ موقفا منه فى الحال وتوقف الكلام معه ؛ لأن الكلام مع هذا وأمثاله مضيعة للوقت والجهد ، وتنقيص من قدر العقل ، وصدق الله العظيم :

« وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ »

ولا حيلة للعقلاء المؤمنين امام هؤلاء الذين أفقدهم الهوى عقولهم واتزانهم وصوابهم ، إلا إهمالهم وسد الباب فى وجوههم :

« قُلِ ٱللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِى خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ »

« رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنتَ الْوَهَّابُ ﴿٨﴾ »

« سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴿٣٢﴾ »

وصلى الله وسلم على من أنزل الله عليه القرآن هدى ونورا وشفاء لما فى الصدور . .

الفهـرس

الموضوع .	الصفحة
المقدمة	٣
القرآن	٥
الوحى	١٣
متى وأين نزل القرآن	٢٥
أول ما نزل من القرآن	٣٣
آخر ما نزل من القرآن	٣٨
المكى والمدنى	٤٨
طرق أخرى غير الرواية لمعرفة المكى والمدنى	٥٤
شبه واهية	٧٥
فائدة معرفة المكى والمدنى	٧٨
لماذا نزل القرآن مفرقا ... ولم ينزل جملة واحدة	٨١
أسباب النزول	٨٩
وهل العبرة بعموم اللفظ أو بخصوص السبب ؟	١٠٠
وما الموقف إذا اختلفت الروايات فى سبب النزول	١٠٢
لغة القرآن	١١٦
بأية لهجة عربية نزل القرآن وما معنى نزوله على سبعة أحرف ...	١٢٧
ولماذا الوقوف عند سبعة	١٤١
هل الأحرف السبعة هى القراءات السبع ؟	١٥٢
من أين جاء الإشتباه وهل القراءات سبع فحسب	١٦٠
نقط المصحف وتشكيله	١٦٢
المحكم والمتشابه	١٧١

رقم الإيداع : ١٩/٤٤٦٤
الترقيم الدولى : ٧ -١٨٨- ٢٨٦ - ٩٧٧ ISBN

مطبعة نهضة مصر